الموسوعة العلمية والأدبية

لقط الدراري

من مقتطفات الأنصاري

الجزء الأول

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبع على نفقة
إدارة إحياء التراث الإسلامي
بدولة قطر

الموسوعة العلمية الأدبية

لقط الدراري

من مقتطفات الأنصاري

الجزء الأول

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

طبعت على نفقة
إدارة إحياء التراث الإسلامي
بدولة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

بقلم فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

الحمد لله أنزل القرآن هدى ورحمة وتبياناً وحكمة.. أنزله على سيد الخلق أجمعيين، لينذر به الناس، ويبين لهم، من اهتدى به فاز بالرشاد، ونال أقصى المراد، ومن رام الهدى من غيره، ضل عن طريق الحق، فهو الفصل ليس بالهزل، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد.

وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، عجز خلقه عن الإتيان بسورة من مثل كتابه، لأن القرآن هو عين كلام الله تعالى المعجز، وهو كله من قول ربي، أنزله على رسوله بواسطة جبريل عليه السلام منجماً بعد أن أنزل القرآن جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا في ليلة القدر ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَـٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَـٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ .

وأشهد أن سيدنا ونبينا مُحَمَّداً عبده ورسوله، أرسله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله تعالى بإذنه وسراجاً منيراً، الله صل وسلم على سيدنا مُحَمَّد الذي أدبه ربه فأحسن تأديبه، وكان خلقه ﷺ القرآن الكريم، فصلاة ربي وعظيم تسليماته عليه وعلى آله وأصحابه الذين ساروا على نهجه، وسلكوا طريقه، وكانوا المثل الأعلى حتى قال عنهم النبي ﷺ (أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم) ورضي الله عن التابعين ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعد:

فلما كان من أشرف المراتب نشر العلم، إذ أن المعلم سراج الطرق، ومصباح المسيرات للأمة الإسلامية في حياتها وسلوكها وأعمالها وأقوالها، فالعلم مغرس كل خير، ومورد كل فضل وهو رفعة القدر، وصعب المنال، لا يناله طالبه إلا إذا بذل سخياً القيم العالية، والعلم لا يعطيك بعضه حتى تهبه كلك، وقد أجاء من قال:

العلم مغرس كل فضل فاجتهد ... أن لا يفوتك فضل ذاك المغرس

واعمل بأن العلم ليس ينالـه ... من همه في مطعم أو ملبس

إلا إخا العلم الذي يسعى لـه ... في حالتيه عارياً أو مكتس

فالعلم نور يهتدي به، ومن أجلّ العلوم تعلم القرآن العظيم وتعليمه فقد ورد ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) ومن هنا خصصنا هذا الجزء من الملتقطات من علوم القرآن العظيم، ملتمسين من الله العلي القدير أن يجزل لنا ولمن قام على مراجعته وطبعه ولمن قدم بحثاً في هذا القسم الأجر وحسن الثواب وأن ينفع به العباد، وأن يهدينا لسلوك الحق أينما كان ويرشدنا لما فيه خيري الدنيا والآخرة.. والله نسأل أن يحقق لنا المقاصد الصالحة، ويأخذ بأيدينا إلى كل خير، ويسخرنا وعباده الصالحين لتقديم العون في سبيل نشر العلم وتأييد معالم الإسلام.

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وعلى آله وصحبه وسلم.

سبحان ربك رب العزة عما يصفون وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين.

1408/1/15هـ

1987/9/9م

خادم العلم

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي

من أحكام القرآن الكريم

فضيلة الشيخ عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي

والمشرف العام على مراكز تحفيظ القرآن الكريم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله يقول الحق وهو يهدي السبيل القائل في محكم التنزيل: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ﴾.

والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد خاتم النبيين المنزل عليه كتاب رب العالمين بشيراً ونذيراً يهدي للتي هي أقوم.

أمره ربه بتبليغ رسالته، وتلاوة كتابه، وببيان ما أنزل إليه، وإتباعه فكان ﷺ يتخلق به.. بل كان قرآنا يمشي على الأرض هادياً ومعلماً، ومزكياً..

﴿ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾

فهذا بيان لبعض أحكام القرآن الكريم المتعلقة به.. كتاباً هادياً وقرآناً متلو.. تأدبه معه، امتثالاً لقول منزله الحكيم: ﴿ فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴿٧٧﴾ فِى كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ ﴾.

وقد راعيت في بيان هذه الأحكام ما تمس الحاجة إليه معتمداً في ذلك على النصوص المنقولة من الكتب المعتمدة في هذا الشأن.

والله الموفق للصواب.

خادم العلم

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

مدير إدارة إحياء التراث الإسلامي

فضل تعلم القرآن وتعليمه

عن أبي عبد الرحمن، عن عثمان بن عفان ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((خيركم من تعلم القرآن وعلمه)) رواه البخاري في فضائل القرآن[1].

وفي رواية: ((إن أفضلكم من تعلم القرآن وعلمه))[2].

و (أبو عبد الرحمن) هو: عبد الله بن حبيب السلمي رحمة الله، وكنيته: (أبو عبد الرحمن)، الكوفي أحد أئمة الإسلام ومشايخهم، قعد يعلم الناس القرآن من إمارة (عثمان بن عفان) ﷺ أيام الحجاج.

قالوا: وكان مقدار ذلك الذي مكث يعلم فيه القرآن (سبعين سنة) رحمة الله.

معاني الحديث:

وقد أشار الحديث إلى صفتين كريمتين من صفات المؤمنين المتبعين للرسل وهما:

1 - أن يكتمل الإنسان في نفسه، وأشار إلى ذلك بمن تعلم القرآن.

2 - وأن يسعى في تكميل غيره، وأشار إلى ذلك بمن يعلمه.

كما قال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ فجمع بين الدعوة إلى الله – سواء كان بالأذان أو بغيره من أنواع الدعوة إلى الله تعالى من تعليم القرآن، والحديث، والفقه، وغير ذلك مما يبتغي به وجه الله تعالى-، وعمل هو في نفسه صالحاً، وقال قولاً صالحاً.

فلا أحد أحسن حالاً من هذا، فهو جمع بين النفع القاصر على النفس، والنفع المتعدى إلى الغير.

وهذا بخلاف صفات الكفار الجبارين:

1 - الذين لا ينتفعون.

2 - ولا يتركون أحداً ممن أمكنهم أن ينتفع.

كما قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ ﴾، وكما قال تعالى: ﴿ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ ﴾ .

---

[1] – أخرجه ابن كثير في فضائل القرآن ط دار الأندلس ص63، 64 وفي البخاري (باب خيركم).

[2] – هكذا رواه الترمذي وابن ماجة.

في أصح قولي المفسرين في هذا: هو أنهم ينهون الناس عن اتباع القرآن، مع نأيهم وبعدهم عنه أيضاً، فجمعوا بين التكذيب، والصد..

كما قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا ﴾.

فهذا شأن شرار الكفار، نعوذ بالله من غضب الله..

وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (مثل المؤمن الذي يقرأ القرآن مثل الأترجة ريحها طيب وطعمها طيب ومثل المؤمن الذي لا يقرأ القرآن كمثل التمرة لا ريح لها وطعمها طيب حلو، ومثل المنافق الذي يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الريحانة ريحها طيب وطعمها مر، ومثل المنافق الذي لا يقرأ القرآن كمثل الحنظلة ليس لها ريح وطعمها مر)) رواه البخاري ومسلم.

والأترجة: نوع الثمار ذات منظر جميل وريح طيب.

والريحانة: كل بقلة طيبة الريح كالريحان والفل.

وعن عمر بن الخطاب رضي اله عنه أن النبي ﷺ قال: ((إن الله تعالى يرفع بهذا الكلام أقواماً ويضع به آخرين)) رواه مسلم.

فإن قيل: فيلزم على هذا أن يكون المقرئ أفضل من الفقيه:

قلنا: لا، لأن المخاطبين بذلك كانوا فقهاء النفوس لأنهم كانوا أهل اللسان، فكانوا يدرون معاني القرآن بالسليقة أكثر مما يدريها من بعدهم بالاكتساب، فكان الفقه سجية لهم، فمن كان في مثل شأنهم شاركهم في ذلك، لا من كان قارئاً أو مقرئاً محضاً لا يفهم شيئاً من معاني ما يقرؤه أو يقرئه [1].

الأمر بتعهد القرآن[2]

والتحذير من تعريضه للنسيان:

ثبت عن أبي موسى الأشعري ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((تعاهدوا هذا القرآن فو الذي نفس محمد بيده لهو أشد تفلتاً من الإبل يفي عقلها)) متفق عليه.

---

[1] - شرح السنة 427/4.

[2] - التبيان ص51.

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: ((إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعلقة إن عاهد عليها أمسكها وإن أطلقها ذهبت)) متفق عليه.

وعن أنس بن مالك ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: ((عرضت علي أجور أمتي، حتى القذاة يخرجها الرجل من المسجد، وعرضت علي ذنوب أمتي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو أية أوتيها رجل ثم نسيها)) رواه أبو داود والترمذي.

وعن سعد بن عبادة ﷺ عن النبي ﷺ قال: ((من قرأ القرآن ثم نسيه لقي الله عز وجل يوم القيامة وهو أجذم)). رواه أبو داود والترمذي.

حكم الوضوء لمس المصف

1- يجب الوضوء لمس المصحف:

لما رواه أبو بكر بن مُحَمَّد بن عمرو بن حزم عن أبيه عن جده ﷺ أن النبي ﷺ كتب إلى أهل اليمن كتاباً وكان فيه: ((لا يمس القرآن إلا طاهر)) رواه النسائي والداراقطني والبيهقي والأثرم، وقال ابن عبد البر في هذا الحديث: إنه أشبه بالتواتر، لتلقي الناس له بالقبول.

وعن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: ((لا يمس القرآن إلا طاهر))، ذكره الهيثمي في مجمع الزوائد، وقال: رجاله موثقون.

فالحديث يدل على أنه لا يجوز مس المصحف إلا لمن كان طاهراً.

ولكن (الطاهر) لفظ مشترك، يطلق على الطاهر من الحدث الأكبر، والطاهر من الحدث الأصغر، ويطلق على المؤمن، وعلى من ليس على بدنه نجاسة، ولابد لحمل الحديث على (معين) من قرينة، فلا يكون نصاً في منع حدثاً أصغر من مس المصحف.

وأما قول الله سبحانه: ﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ ﴾ :

فالظاهر رجوع الضمير إلى الكتاب المكنون وهو: اللوح المحفوظ؛ لأنه الأقرب، والمطهرون الملائكة، فهو كقوله تعالى: ﴿ فِى صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِى سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ ﴿١٦﴾ ﴾ سورة عبس 13-16.

2- وذهب ابن عباس والشعبي والضحاك وزيد بن علي، والمؤيد بالله وداود، وابن حزم، وحماد بن أبي سليمان إلى أنه:

يجوز للمحدث حدثاً أصغر مس المصحف.

حكم القراءة للمحدث حدثاً أصغر:

وأما القراءة للقرآن بدون مس فهي جائزة للمحدث حدثاً أصغر اتفاقاً [1].

حكم: (أ) مس المصحف وحمله للجنب

(ب) وقراءته القرآن [2].

(أ) مس المصحف وحمله:

1- يحرم على الجنب:

مس المصحف وحمله، وحرمتها متفق عليها بين الأئمة ولم يخالف في ذلك أحد من أصحابه.

2- وجوازاً (داود وابن حزم) للجنب مس المصحف وحمله، ولم يريا بهما بأساً. استدلالاً بما جاء في الصحيحين: أن رسول الله ﷺ بعث إلى هرقل كتاباً فيه:

((بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ... إلى أن قال: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ آل عمران/ 64.

قال ابن حزم: فهذا رسول الله بعث كتباً، وفيه هذه الآية إلى النصارى، وقد أيقن أنهم يمسون هذا الكتاب.

وأجاب الجمهور عن هذا: بأن هذه رسالة ولا مانع من مس ما اشتملت عليه من آيات من القرآن الكريم كالرسائل وكتب التفسير والفقه، وغيرهما، فإن هذه لا تسمى مصحفاً، ولا يثبت لها حرمته.

(ب) قراءة القرآن الكريم للجنب والحائض:

1- يحرم على الجنب أن يقرأ شيئاً من القرآن، عند الجمهور، لحديث علي ﷺ: ((أن رسول الله ﷺ كان لا يحجبه عن القرآن شيء إلا الجنابة)) رواه أصحاب السنن، وصححه الترمذي، وغيره، وقال الحافظ في الفتح: وضعف بعضهم بعض رواته، والحق: أنه من قبيل الحسن يصلح للحجة.

وعنه ﷺ قال: رأيت رسول الله ﷺ توضأ، ثم قرأ شيئاً من القرآن ثم قال:

---

[1] - انظر فقه السنة ص 57 جـ 1.

[2] - انظر فقه السنة جـ1 ص67، 68.

((هكذا لمن ليس بجنب فأما الجنب فلا، ولا آية)) رواه أحمد وأبو يعلي وهكذا لفظه، قال الهيثمي: رجاله موثقون.

قال الشوكاني: فإن صح هذا صح الاستدلال به على التحريم، أما الحديث الأول فليس فيه ما يدل على التحريم، لأن غايته أن النبي ﷺ ترك القراءة حالة الجنابة ومثله لا يصلح متمسكاً للكراهة، فكيف يستدل به على التحريم؟ أ هـ.

2- وذهب البخاري والطبراني وداود وابن حزم إلى: جواز القراءة للجنب.

قال البخاري: قال إبراهيم: لا بأسس أن تقرأ الحائض الآية ولم ير ابن عباس بالقراءة للجنب بأساً.

وكان النبي ﷺ: يذكر الله على كل أحيانه.

قال الحافظ – تعليقاً على هذا -: لم يصلح عند المصنف (يعني البخاري) شيء من الأحاديث في ذلك، أي: في منع الجنب والحائض من القراءة؛ وإن كان مجموع ما ورد في ذلك تقوم به الحجة عند غيره، لكن أكثرها قابل للتأويل [1].

حكم الاستعاذة: ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ ﴾ حكم الاستعاذة من الشيطان الرجيم كالآتي [2].

1 -الاستحباب

2 -وقال بعضهم: الوجوب

3 -والجهر بها عند بدء الترتيل.

4 -ولا تجوز بين السورتين في الترتيل الواحد.

5 -السرار بها في الصلاة، وفي القراءة على (انفراد)

أوجه الاستعاذة أربعة كالآتي:

1 -قطع الاستعاذة عن البسملة، وقطع البسملة عن أول السورة.

2 -قطع الاستعاذة، ووصل البسملة بأول السورة.

---

[1] – انظر فقه السنة جـ1 ص68.

[2] – كيف يتلى القرآن ص28.

3 -وصل الاستعاذة بالبسملة والوقوف عليها.

4 -وصل الجميع.

وأفضل هذه الوجوه هو: قطع الاستعاذة عن البسملة، وقطع البسملة عن أول السورة.

ولا يجوز وصل البسملة بآخر السورة والوقف عليها، لأنه يوهم أن البسملة ملحقة بآخر السورة السابقة، مع أنها لأول السورة التالية.

البسملة:

1 - المعروف أن (البسملة) – في المذهب الشافعي – آية من الفاتحة، وكذا من كل سور القرآن، وعددها (114) ما عدا سورة التوبة، فلا تبدأ بالبسملة، إذ لا بسملة أولها.

وما عدا سورة (النمل) في وسطها فإن البسملة في وسطها جزء من آية منها، لكنها آية في أولها كباقي السور.

2 - تقرأ البسملة عند ابتداء القراءة من أول السورة، أو من حيث بلغ..

حكم الجهر بالبسملة وتركه في الصلاة [1]

1- عن أنس بن مالك ﷺ: أن النبي ﷺ، وأبا بكر، وعمر، رضي الله عنهما، كانوا يستفتحون الصلاة بالحمد لله رب العالمين، وفي رواية: صليت مع أبي بكر، وعمر، و عثمان، فلم اسمع أحداً منهم يقرأ: (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ).

وفي رواية:

صليت خلف النبي ﷺ وأبي بكر، وعمر، وعثمان، فكانوا يستفتحون: الحمد لله رب العالمين، لا يذكرون: بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ في أول قراءة ولا في آخرها.

أخرجه البخاري بهذا اللفظ في الصلاة، ومسلم، ورواه النسائي.

قوله: كانوا يستفتحون الصلاة بالحمد رب العالمين.

تأولوا ذلك بأنه يبتدئ بالفاتحة قبل السورة.

وأما بقية الحديث: فيستدل به من يرى: عدم الجهر بالبسملة في الصلاة.

المذاهب في ذلك:

---

[1] - إحكام الأحكام ج1 ص 288.

أحدهما: ترك البسملة سراً: وهو مذهب (مالك).

الثاني: قراءتها سرًّا، ولا جهراً، وهو مذهب (أبي حنيفة وأحمد).

الثالث: الجهر بها في الجهرية، وهو مذهب (الشافعي).

والمتيقن من هذا الحديث: عدم الجهر، وأما (الترك أصلاً) فمحتمل، مع ظهور ذلك في بعض الألفاظ وهو قوله: (لا يذكرون).

وقد جمع جماعة من الحفاظ (باب الجهر)، وهو أحد الأبواب التي يجمعها أهل الحديث.. وكثير منها – أو الأكثر – معل.. وبعضها جيد الإسناد إلا أنه غير مصرح فيه بالقراءة في الفرض أو في الصلاة، وبعضها فيه ما يدل على القراءة في الصلاة إلا أنه ليس بصريح الدلالة على خصوص التسمية، ومن صحيحها:

حديث نعيم بن عبد الله المجمر، قال: كنت وراء أبي هريرة فقرأ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، ثم قرأ بأم القرآن حتى بلغ ولا الضالين، قال آمين، وقال الناس: آمين، ويقول كلما سجد: الله أكبر، وإذا قام من الجلوس قال: الله أكبر؛ ويقول إذا سلم: والذي نفسي بيده، إني لأشبهكم صلاة برسول الله ﷺ.

وقريب من هذا في الدلالة والصحة:

حديث المعتمر بن سليمان: (وكان يجهر ببسم الله الرحمن الرحيم، قبل الفاتحة وبعدها، ويقول: ما آلو أقتدي بصلاة أبي، وقال أبي: ما آلو أن أقتدي بصلاة أنس، وقال أنس: ما آلو أن أقتدي بصلاة رسول الله ﷺ.

وذكر الحاكم أبو عبد الله: أن رواة هذا الحديث عن آخرهم ثقات، وإذا ثبت شيء من ذلك فطريق أصحاب الجهر: أنهم يقدمون الإثبات على النفي، ويحملون حديث أنس على عدم السماع، وفي ذبك بعد، مع طول مدة صحبته ﷺ.

وأيد (المالكية) ترك البسملة بالعمل المتصل من أهل المدينة..

والمتيقن من ذلك – كما ذكر في الحديث الأول – ترك الجهر، إلا أن يدل دليل صريح على (الترك) مطلقاً.

الحروف الهجائية في أول بعض السور

1 - من المعلوم أن في القرآن آيات محكمات عرف تأويلها، وآيات متشابهات استأثر الله بعلمها.

2 - ومن المتشابه: الحروف الهجائية في أول بعض السور.

3 - عدد حروف الهجاء في اللغة العربية كما هو معلوم (28) ثمانية وعشرون حرفا أو (29) تسعة وعشرون حرفاً.

4 - عدد سور القرآن الكريم التي تبدأ بالأحرف الهجائية هو كذلك (29) تسع وعشرون سورة.

5 - نوع الحروف المبدوء بها في هذه السور – المبدوء بحروف هجائية – عدد نصف عدد حروف الهجاء أي (14) أربعة عشر حرفاً.

6 - بعض هذه الحروف (فردي) وبعضها: (ثنائي) أو (ثلاثي) أو (رباعي) أو (خماسي).

وجميعها من الأسرار التي لا يعلم مرادها إلا الله عز وجل.

7- أجمع (الكوفيون) على أن حروف الهجاء في بداية هذه السور (آية) قائمة بذاتها ما عدا السور التي في حروفها الأولى التالية:

(أ) الراء في (ألر) وهي سور: (يونس وهود ويوسف والرعد وإبراهيم والحجر)

(ب) طس وهي سورة (النمل)

(ج) ما كان على حرف و احد وهي سورة: (ص)، (ق)، (ن) فمل يعدوها آية قائمة بذاتها من هذه السور.

طرق قراءة القرآن الكريم

1- التحقيق:

هو المبالغة في الإتيان بالقراءة على حقها من غير زيادة فيها ولا نقص من أحكامها، وهو عبارة عن إعطاء كل حرف حقه من إشباع المد، وتحقيق الهمز، وإتمام الحركات، وإظهار التشديدات، وتوفية الغنات، ومراعاة الوقوف، وحسن الابتداء، ويكون برياضة الألسن، وتقويم الألفاظ، وإقامة القراءة بغاية الترتيل من غير إفراط ولا تفريط.

2- الحدر:

وهو الإسراع بالقراءة وإدراجها مع مراعاة تقويم اللفظ وتمكين الحروف ويكون لتكثير الحسنات في القراءة وحيازة فضيلة التلاوة مع المحافظة على حروف المد، والإتيان بالغنة. والإدراج: يقال: درج أي مشى مشية الصاعد في الدرج.

3- التدوير:

وهو التوسط بين التحقيق والحدر، وهو الذي ورد أكثر الأئمة ممن وسطوا المد المنفصل.

4- الهذرمة: وهو الإفراط في الإسراع وقد نهي عنها.

5- الترتيل: وسيأتي بيانه فيما يلي:

الترتيل:

اتفق العلماء على استحباب الترتيل لقول الله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ المزمل، وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ((لأن أقرأ سورة أرتلها أحب إلى من أن أقرأ القرآن كله)).

والترتيل مستحب للتدبر ولغيره حتى قالوا: يستحب الترتيل للعجمي الذي لا يفهم معناه لأن ذلك أقرب إلى التوقير والاحترام واشد تأثيراً في القلب.

معنى الترتيل:

الترتيل كما عرفه الإمام علي بن أبي طالب ﷺ وكرم وجهه عندما سئل عن قوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ قال: هو تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف.

فالتجويد: الذي هو حلية القرآن يكون بإعطاء كل حرف من حروف الهجاء حقه أي أنه يجب أن تكون مرتبة، ويرد كل حرف إلى مخرجه وأصله ويلطف النطق به على كمال هيئته من غير إسراف ولا تعسف ولا إفراط ولا تكلف.

والوقف: هو قطع الصوت على آخر كلمة زمناً يتنفس فيه القارئ، فكما أن الأمة الإسلامية متعبدون بفهم معاني القرآن وإقامة حدوده فهم أيضاً متعبدون بتصحيح ألفاظه وإقامة حروفه على الصفة المتلقاة من أئمة القراءة المتصلة بالرسول ﷺ التي لا يجوز مخالفتها ولا العدول عنها إلى غيرها.

وقد نهي عن الإفراط في الإسراع ويسمى (الهذرمة) سأل رجل ابن مسعود فقال له: إني أقرأ (المفصل) في ركعة واحدة فقال ابن مسعود: هكذا الشعر إن أقواماً يقرأون القرآن لا يجاوز تراقيهم ولكن إذا وقع في القلب فرسخ فيه نفع [1].

---

[1] – متفق عليه.

أفضلية مراتب القراءة [1]

اختلفت العلماء في أيهما أفضل:

ترتيل مع قلة قراءة؟

أم حدر مع كثرة قراءة؟

1 - فذهب بعضهم إلى أن (كثرة) القراءة أفضل لحديث ابن مسعود عن رسول الله ﷺ أنه قال: ((من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها)) رواه الترمذي وصححه.. ورواه غيره: ((بكل حرف عشر حسنات)).

2 - والصحيح بل الصواب هو ما عليه معظم السلف والخلف وهو أن (الترتيل) والتدبر مع قلة القراءة أفضل من الحدر مع كثرة القراءة... لقولة تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة محمد/ 24.

ومن المعلوم أن المقصود من تلاوة القرآن هو فهمه والتفقه فيه والعمل به، ثم إن تلاوته وحفظه وسيلة إلى فهم معانيه.

وعن مجاهد أنه سئل عن رجلين[2] : قرأ أحدهما (البقرة وآل عمران) وقرأ الآخر (البقرة) وحدها وزمنها وركوعها وسجودها وجلوسها واحد..

هل هما سواء؟ فقال: الذي قرأ (البقرة) وحدها أفضل.

ومن أحكام تلاوة القرآن الكريم:

الإدارة بالقرآن[3]:

والمعنى: أن يجتمع جماعة يقرأ بعضهم عشراً، أو جزاءًا أو غير ذلك ثم يسكت، ويقرأ الآخر من حيث انتهى الأول، ثم يقرأ الآخر.

حكم ذلك: وهذا جائز حسن.

وقد سئل الإمام مالك رحمه الله تعالى؟

---

[1] - أنظر كيف يتلى القرآن، إملاء ما من به الرحمن ص21.

[2] - التبيان ص63.

[3] - أنظر التبيان في آداب حملة القرآن للنووي تحقيق الشيخ عبد العزيز السيروان جـ1 دار النفائس ببيروت – ص71.

فقال: لا بأس به.

من أحكام الترتيل:

1 - حسن الأداء فرض في تلاوة القرآن لقوله تعالى: ﴿ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ ويقول ﷺ: ((رب قارئ للقرآن والقرآن يلعنه))[1].

2 - معرفة كيفية الأداء والنطق بالقرآن على الصفة التي نزل بها، وهذا لا يتأتى إلا بالتلقي، والأخذ بالسماع من أفواه القراء المتصل سندهم بالرسول ﷺ.

أي أن أخذ القرآن وتلاوته من المصحف مباشرة بدون معلم أو موقف لا يكفي بل لا يجوز ولو كان المصحف مضبوط الشكل لقوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

3 - حرمة تلحين القرآن: كما يفعل الملحنون للقطع الغنائية وإخضاعه للإيقاعات والأوزان الموسيقية ومختلف الأصوات الغنائية لما في ذلك من الخروج عن سنن تلاوته وصرف الناس عن التدبر في آياته. فقراءة القرآن مأثورة وسنة متبعة.

4 - كراهة رفع الصوت: فلقد قال رسول الله ﷺ: ((أحسن الناس صوتاً من إذا قرأ القرآن رايته يخشى الله تعالى)) [2]

5 - من السنة الوقوف عند التلاوة على كل آية من آيات القرآن لأن هذا الوقف توفيقي عن الرسول ﷺ كما علمه الوحي.

6 - اجتناب ترك بعض الآيات في التلاوة: أي أنه من الواجب أن تقرأ الآيات متصلة بعضها ببعض بترتيبها كما أنزل ولا يترك منها شيء.

7 - عدم الجمع بين القراءات المختلفة في التلاوة الواحدة، وقصر ذلك على مقام التعليم.

8 - ومن آداب التلاوة: الإتيان بسجدة التلاوة على التالي والمستمع إذا مرت آيات السجدة عند الترتيل، وهذا عند بعض الأئمة كالشافعي، وعدد آيات السجدة (14) أربع عشرة آية في كتاب الله تعالى.

---

[1] - من كتاب القول السديد في بيان أحكام التجويد للشيخ الحداد – ص3.

[2] - عمدة القارئ عن جابر.

9 - ينبغي لحامل القرآن ألا يلهو مع من يلهو، ولا يسهو مع من يسهو ولا يلغو مع من يلغو، وذلك تعظيماً لحق القرآن الكريم.

من آداب التلاوة [1]

1 - طهارة كاملة في البدن والثوب المكان.

2 - استقبال القبلة عند التلاوة.

3 - الاستعاذة بالله من الشيطان الرجيم عند ابتداء التلاوة، وقراءة البسملة عند ابتداء القراءة أول السور من حيث بلغ، ثم قراءة ما تيسر من القرآن.

4 - التفخيم: والمراد به ألا يرقق التالي للقرآن صوته كترقيق النساء أصواتهن.

5 - مضمضة الفم عند التنخع.

6 - استعمال السواك عند بدء التلاوة.

7 - الإمساك عن القراءة عند التثاؤب حتى يزول.

8 - عدم قطع التلاوة بالحديث مع الغير لغير ضرورة.

9 - الوقوف على آية الوعد أو الرحمة فيرغب إلى الله تعالى ويسأله من فضله، والوقوف على آية الوعيد فيستجير بالله منه... والوقوف على أمثاله فيتمثلها.

10 - تصديق ربه وشهادة منه لرسوله بالبلاغ عند الانتهاء من القراءة.

11 - عندما يختم القرآن بقراءة سورة قل أعوذ برب الناس، عليه بعدها أن يقرأ فاتحة الكتاب ثم خمس آيات من أول سورة البقرة حتى لا يكون القرآن في هيئة المهجور.

12 - يستحب دعوة الأهل عند ختم القرآن والإكثار من الدعاء لأن الرحمة تتنزل عند ختمه.

حكم أخذ الأجر على ترتيل القرآن الكريم فيه خلاف كالآتي:

1 - عدم أخذ أي أجر على ترتيل القرآن، دليل ذلك من قول الله تعالى: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ .

---

[1] - كيف يتلى القرآن، والتبيان، وفضائل القرآن.

2 - يجوز أخذ الأجر على تعليم القرآن إذا لم يكن للمعلم نصيب في بيت المال. ويسترشدون بحديث الرسول صلوات الله وسلامه عليه: ((إن أحق ما أخذتم عليه أجراً كتاب الله تعالى)).

3 - انعقد الإجماع على حرمة إعطاء الأجر على الفعل المحرم، وحرمة أخذه عليه، كأجر البغي، والنائحة، وحلوان الكاهن، والمنجم، والعراف.

وعلى ذلك:

فلا يجوز إذن إعطاء أجر على تلاوة شابتها الحرمة، ولا أخذه عليها كما أنه لا ثواب على هذه التلاوة لا للتالي، ولا لمن وهبت له، بل التالي آثم، ومعينه على الإثم مثله [1].

من آداب ختم القرآن: وفيه مسائل منها [2]

الأولى: في وقت الختم للقارئ وحده..

ويستحب أن يكون في الصلاة، في ركعتي الفجر أو سنته أو ركعتي المغرب، وأما من يختم في غير الصلاة، وكذلك الجماعة الذين يختمون مجتمعين فيستحب أن تكون هذه ختمتهم أول النهار أو في أول الليل.

الثانية: يستحب صيام يوم الختم إلا أن يصادف يوماً نهي الشرع عن صيامه، وقد ثبت ذلك عن بعض السلف.

الثالثة: يستحب حضور مجلس ختم القرآن استحباباً متأكداً، وقد روى الدرامي وابن أبي داود بإسنادهما عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه كان يجعل رجلاً يراقب رجلاً يقرأ القرآن فإذا أراد أن يختم أعلم ابن عباس فيشهد ذلك.

وكان أنس بن مالك ﷺ إذا ختم القرآن وجمع أهله ودعا.

الرابعة: الدعاء عقيب الختم استحبابً متأكداً وينبغي أن يلح في الدعاء، وأن يدعو بالأمور المهمة وبصلاح المسلمين وصلاح ولاة أمورهم، وقد روي (عبد الله بن المبارك) كان إذا ختم القرآن كان أكثر دعائه للمسلمين والمسلمات، والمؤمنين والمؤمنات.

---

[1] - انظر كيف يتلى القرآن – ص32، وكتاب (القرآن وآداب تلاوته وسماعه) ص 23 للشيخ مخلوف.

[2] - التبيان – ص 102.

الخامسة: يستحب إذا فرغ من الختمة أن يشرع في أخرى عقيب الختمة، فقد استحبه السلف، واحتجوا فيه بحديث أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: ((خير الأعمال الحل والرحلة)) قيل: وما هما؟ قال: ((افتتاح القرآن وختمه)).

وعن ابن عباس قال: سأل رجل رسول الله ﷺ فقال: ((أي الأعمال أحب إلى الله))؟ فقال ((الحال المرتحل))، قال يا رسول الله ما الحال المرتحل؟ قال: ((صاحب القرآن يضرب في أوله حتى يبلغ آخره وفي آخره حتى يبلغ أوله)) رواه الطبراني [1].

عبد الله بن إبراهيم الأنصاري

[1] – انظر فضائل القرآن لابن كثير – ص89.

وَاجِبُنَا نَحَو القرآن الكريم

للأستاذ الدكتور/ يوسف القرضاوي

عميد كلية الشريعة

جامعة قطر

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن اتبع هداه. ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾ ﴾ .

﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ ﴾ .

اللهم علمنا ما ينفعنا وانفعنا بما علمتنا وزدنا علماً. نحمدك اللهم على كل حال ونعوذ بك من حال أهل النار.

خير ما أحييكم به أيها الأخوة والأخوات تحية الإسلام. تحية الإسلام السلام، فسلام الله عليكم ورحمته وبركاته... وبعد:

فنحن الآن في رحاب القرآن الكريم أعظم نعمة من الله بها على هذه الأمة فهو الكتاب الخالد الذي ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ . وهو ﴿ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾. نحن المسلمين وحدنا نملك كلمات الله الخالدة الباقية التي لم يعترها تحريف ولا تبديل. أما الكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى على رسله السابقين قبل مُحَمَّد ﷺ فقد أصابها التحريف والتبديل اللفظي والمعنوي ولم تبق سالمة مصفاة لأن الله لمن يحفظها وإنما استحفظ عليها أهلها ولم يتكفل بحفظها لأنها كانت كتباً موقوتة لقوم مخصوصين في مراحل معينة.

فلما جاءت رسالة الإسلام العامة الخالدة أنزل الله لأهلها وللبشرية كلها كتاباً خالداً لا يعتريه تحريف ولا تبديل لأن الله تبارك وتعال تكفل بحفظه بنفسه ولم يستحفظه أحداً من خلقه قال عز من قائل:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ .

ولذلك لا نجد كتاباً سماوياً بقي كما أنزله الله تعالى إلا القرآن الكريم فهو الكتاب الذي بقي كما أنزل على مُحَمَّد ﷺ فنحن نقرؤه كما كان يقرؤه رسول الله ﷺ، لأن هذا القرآن حفظ من جميع جوانبه.

حفظ بطريقة نطقه وإلقائه أو أدائه في الغن والمدّ والإظهار والإدغام وغير ذلك. وكان هذا سبباً في تأليف علم التجويد الذي يخدم القرآن ويحافظ على طريقة الأداء بأحكامه المعروفة لتبقى طريقة أداء القرآن الكريم كما كانت في عهد النبي ﷺ.

حفظ بطريقة كتابته فمنذ كتب في عهد عثمان ﷺ بقيت كتابته ورسمه على ما كان عليه في عهد عثمان ولم يطرأ على هذه الكتابة إلا شيء من النقط والشكل فقط، ولذلك نجد في القرآن الكريم تكتب على غير قواعد الإملاء التي نعرفها مثل كلمة: (الصلواة، والزكوة، والربى) وغير ذلك من الكلمات التي بقيت على هذا الرسم إلى الآن ولم يجرؤ أحد أن يغير في هذا الكتاب حتى في رسم هذه الكلمات ليبقى هذا الكتاب سالماً.

كما أن هناك مائة وأربع عشرة سورة في كتاب الله كلها بدئت بالبسملة (بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ) إلا سورة واحدة وهي سورة التوبة (سورة براءة) ولم يجرؤ أحد طوال أربعة عشر قرناً أن يقول لنضع فيها البسملة لتكون كغيرها. ولم ولن يجرؤ أحد على ذلك. وهذا من أسرار حفظ هذا الكتاب الذي خصنا الله به.

ولذلك نحن المسلمين نعتز ونفخر بأن عندنا كلمات الله الهادية النيرة المضيئة التي تضيئ للبشرية كلها طريق الحياة إلى التي هي أقوم. وأن هذه الكلمات تكفل الله بحفظها فلم يعترها تحريف ولا تبديل.

ومن خصائص هذا أنه الكتاب ميسر، يسره الله للحفظ وللفهم وللذكر. يسره للحفظ فهناك الآلاف المؤلفة من العرب ومن غير العرب الذين لا يعرفون العربية من الأطفال والصغار يحفظون هذا الكتاب. يقرؤونه عن غيب ولا يخطئون ولا يلحنون.

كنت في الباكستان وزرت بعض المدارس هناك فوجدت كثيراً من الطلاب الصغار بها يحفظون القرآن الكريم. منهم من يحفظون لقرآن الكريم. منهم من يحفظ نصفه، ومنهم من يحفظ ثلثيه، ومنهم من يحفظه كله. وسألت بعض هؤلاء في حفظه للقرآن فكان الواحد منهم مثل المسجل (ركوردر) حافظ للقرآن لا يخرم حرفاً مه ولا يسقط كلمة. وحين قلت له: ما اسمك؟ لم يعرف ما أقول. لم يفهم معنى كلمة (ما اسمك؟) فهو لا يعرف كلمات العربية ولا معانيها، ومع هذا يحفظ القرآن الكريم ويجيد حفظه وترتيله. أليس هذا من أسرار تيسير الله هذا الكتاب للحفظ؟ إنه لا يوجد كتاب يحفظه الناس دون أن يعرفوا معانيه إلا القرآن الكريم. وقد رأى إخواننا هنا في قطر نماذج من هذا الصنف من الناس في امتحانات مسابقة القرآن الكريم. فقد امتحنوا أناساً ممن يعيشون في قطر من الباكستانيين أو الهنود أو غيرهم من بلاد الشرق الأقصى فوجدوهم يحفظون القرآن كله ولا يعرفون كلمات العربية ولا معانيها. وقد لفت نظري وأنا أزور بنجلاديش منذ سنوات أني زرت مدرسة إسلامية يجلس طلابها على التراب — فوجدت بها صبياً عمره أقل من تسع سنوات يحفظ القرآن الكريم كله. امتحنته في (الطواسين) و (الحواميم)، ومتشابهات القرآن فلم يخطئ في كلمة وهو صبي دون التاسعة من العمر. وليس من العرب ولا في بلاد العرب. علام يدل هذا؟ ألا يدل على تيسير الله هذا الكتاب للحفظ؟

هل في استطاعة أعظم قسيس أو أعظم أسقف أو كردينال أن يحفظ سطوراً أو صفحات معدودة من التوراة أو الإنجيل؟ لا أظن ذلك بإمكانه.

وكما يسر الله القرآن لحفظ فقد يسره للفهم أيضاً. فأي إنسان عربي أو يعرف العربية يستطيع أن يقرأ القرآن ويفهم منه على قدر ما آتاه الله. قد لا يفهم المعاني العميقة، وقد لا يفهم الألفاظ، ولكن مجرد أن يقرأ القرآن يحس بمعانيه. وأنها لتملك عليه قلبه. وكم رأينا بعض الأميين الذين لا يقرأون ولا يكتبون يبكون لمجرد سماع القرآن. ما الذي أبكاهم؟ أتراهم يبكون من فراغ؟ أم هناك من المعاني والفهم ما استقر في قلوبهم لمجرد السماع ففاضت بسببه أعينهم؟ وصدق الله إذ يقول: ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾ ﴾ - (القمر/17). وهذا من خصائص هذا الكتاب العظيم الذي أكرمنا الله به. والذي هو آية وهداية في الوقت نفسه. فهو الآية الكبرى والمعجزة العظمى لرسولنا مُحَمَّد ﷺ.

هناك قبل رسولنا أنبياء ورسل أعطاهم الله الآيات وأمدهم بالمعجزات كموسى عليه السلام فقد آتاه الله العصا، كما حكى القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾ قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾ قَالَ أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾ ﴾ . وآية اليد كما في قوله تعالى: ﴿ وَٱضْمُمْ يَدَكَ إِلَىٰ جَنَاحِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ ءَايَةً أُخْرَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ - (طه/ من 17-22). وكعيسى عليه السلام أعطي إبراء الأكمة والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله قال تعالى:

﴿ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ ﴾ - (المائدة – 110).

هذه الآيات نسميها الآيات الحسية أو الكونية وهي عظيمة ولا شك، ولكن هذه الآيات لا يؤمن بها إلا من رآها وعايشها ثم بعد هذا تكون خبراً من الأخبار. أما معجزة مُحَمَّد ﷺ وآيته الكبرى فكانت هي القرآن الكريم. وهو آية أدبية عقلية ومعجزة باقية على الدهر. تمضي الأيام والليالي والسنون والأعوام

والدهور والأعصار وهي حية باقية. فلا زال القرآن حياً باقياً نتحدى به العالم كله. نتحدى بإعجازه العلمي و بإعجازه الإصلاحي، هذه بعض مزايا القرآن الكريم.

ومن هنا كان علينا واجب وواجبات نحو هذا الكتاب العظيم كما سماه الله تعالى. فقد سمى الله القرآن الكريم ببعض أسمائة وصفاته فهو عظيم وعزيز وحكيم كما في قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَٰكَ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِى وَٱلْقُرْءَانَ ٱلْعَظِيمَ ﴿٨٧﴾ ﴾ - (الحجر/87)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ ﴾ - (فصلت/41)، وقوله تعالى: ﴿ وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ ﴿٤﴾ ﴾ - (الزخرف/4).

هذا القرآن العظيم علينا نحوه واجبات:

أهمها: أن نحسن تلاوته إذ تلوناه وأن نحسن استماعه إذا استمعنا إليه. ومعنى أن نحسن تلاوته أن نتمثل لقوله تعالى: ﴿ وَرَتِّلِ ٱلْقُرْءَانَ تَرْتِيلًا ﴿٤﴾ ﴾ أي أن نقرأ القرآن بترتيل كما كان يقرؤه الرسول والصحابة ومن تبعهم بإحسان. وهذا يلزمه أن نحافظ على سلامة النطق وأحكام التجويد فنخرج الحروف من مخارجها الصحيحة، ونعطيها حقها ومستحقها كما يقول علماء التجويد، وأن لا نغير فيها بأن ننطق حرفاً مكان آخر لأن هذا يترتب عليه فساد المعنى أو فهم آخر يتنافى ومعنى القرآن.

فمثلاً هناك بعض الناس لا يخرجون ألسنتهم في نطق ((الثاء)) و ((الذال)) و ((الظاء)). وهذا إن جاز في اللغة العادية فإنه لا يجوز ولا يليق بقارئ القرآن. ومثله أيضاً عدم تعطيش ((الجيم)). وهناك ما هو أقسى على النفس من هذا عند من يقلبون القاف غيناً في قوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾ وفي قوله تعالى: ﴿ وَأَنَّهُۥ هُوَ أَغْنَىٰ وَأَقْنَىٰ ﴿٤٨﴾ ﴾ فهم يجعلون القدر غدراً والغنى قنى والقنية غنية. أهذا يليق؟

لابد أن نحسن القراءة وأن نخضع لهجاتنا للقراءة السليمة ولا نتساهل في هذا بحال من الأحوال.

لابد من تقويم اللسان بالقرآن. فمن فضائل القرآن أنه يقوم اللسان ويعلم الفصاحة ويمنح القدرة على الخطابة. وقد فطن لهذا بعض الناس من غير المسلمين. فبعض النصارى في مصر كانوا يعلمون أولادهم القرآن في الصغر ليكون عوناً لهم على الفصاحة في مستقبلهم. حكى ذلك أديب معروف في مصر وهو الدكتور/ نظمي لوقا وهو نصراني كما نعرف. وقد ألف كتاب ((الرسالة والرسول)). وكتاب

((وا مُحَمَّداه)) و ((مُحَمَّد في بيته))... إلخ. وقال في مقدمة ((الرسالة والرسول)) إن أباه جعله عند شيخ يعلمه القرآن حتى يستقيم لسانه من الصغر.

وكان مكرم عبيد – وهو قبطي وزعيم سياسي معروف في مصر – أحد الخطباء المشهورين. والذي أعطاه القدرة على الخطابة حفظه للكثير من القرآن الكريم. ونحن أولى الناس بالقرآن أولى الناس بأن نحسن تلاوته وأن نقوم به ألسنتنا. وإذا كانت المحافظة على سلامة النطق أمراً ضرورياً ولازماً لمن يقرأ القرآن أو لمن يتعلمه فإن معرفة أحام التجويد وطريقة الأداء أيضاً أمر ضروري. ولا تكفي النظرية لأحكام التجويد بل لابد من التطبيق العملي حتى نقرأ القرآن كما كان يقرؤه الرسول والصحابة.

ومن فضل الله علينا أن يسر لنا هذا. يسر لنا سماع المصحف المرتل من الإذاعات، فبالإمكان أن يسمع الإنسان من إذاعات القرآن الكريم ما يشاء. وبالإمكان أن يحضر الإنسان الأشرطة والمسجل. وهناك المصحف المعلم وأيضاً مراكز تحفيظ القرآن الكريم، كل هذا ميسر لنا والحمد لله. ولا عذر إلا عن تقصير منا أو قصور فينا. فواجبنا جميعاً أن نقرأ القرآن قراءة حسنة كما كان يقرؤه الصحابة وأن نعلم أولادنا وتلاميذنا هذه القراءة. ولابد مع سلامة النطق أحكام التجويد من التدبر والخشوع لأن الله تعالى يقول:

﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ مُبَٰرَكٌ لِّيَدَّبَّرُوٓاْ ءَايَٰتِهِۦ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٩﴾ ﴾ - (ص/29) أي للتدبر والتذكر. ويقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴿٨٢﴾ ﴾ - (النساء/82)، ويقول: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ - (مُحَمَّد/24).

فلابد أن نعايش القرآن بعقولنا وقلوبنا. هذا هو المهم. فلا يليق أبداً أن نقرأه بألسنتنا وقلوبنا مشغولة عنه لأن هذا يتنافى وجلال القرآن وعظمته ورحم الله ((إقبال)) شاعر الإسلام في باكستان إذ قال: ((ما نفعتني وصية كوصية أمي قالت لي يا بني اقرأ القرآن كأنما عليك أنزل)) أي استحضر عظمة القرآن وأنت تقرأ.

وكيف لا نخشع لتلاوة القرآن أو لسماعه والله يقول: ﴿ لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ ﴾ - (الحشر/ 21). أي لتصدع الجبل وتزلزل على قوته وشموخته ورسوه في الأرض. ويقول: ﴿ أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ﴾ - (الحديد/16).

وإذا وجد الخشوع تضاعف أجر القراءة وثوابها ففيما رواه الترمذي عن ابن مسعود ﷺ أن النبي ﷺ قال: (من قرأ حرفاً من كتاب الله فله حسنة والحسنة بعشر أمثالها. لا أقول ألم حرف ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف) وقد نبه النبي ﷺ إلى أهمية الخشوع فقال: (إن هذا القرآن نزل بحزن فإذا قرأتموه فابكوا فإن لم تبكوا فتباكوا) ومع هذا نرى بعض الناس يقرؤون القرآن أو يسمعونه لمجرد أنه نغم دون تدبر أو خشوع. يسمعون القوارع والزواجر والآيات التي تزلزل القلوب بتهديدها ووعيدها وتعالى صيحاتهم بالإعجاب لصوت القارئ. يسمعون قول الله تعالى: ﴿ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ ﴾ ، أو قوله تعالى: ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلطَّآمَّةُ ٱلْكُبْرَىٰ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ مَا سَعَىٰ ﴿٣٥﴾ وَبُرِّزَتِ ٱلْجَحِيمُ لِمَن يَرَىٰ ﴿٣٦﴾ ﴾ ، أو قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾ ﴾ فترتفع صيحات الإعجاب وكأن القرآن لا يتحدث عن القيامة وأهوالها أو جهنم وأغلالها وسعيرها. إن هؤلاء في غفلة. للأسف نحن المسلمين لم نعد نقرأ القرآن أو نسمعه كما ينبغي. لذا فإن أعداء الإسلام أصبحوا يذيعون القرآن من إذاعاتهم لأنهم اطمأنوا إلى أن القرآن لم يعد يحرك فينا ساكناً أو ينبه منا غافلاً لم يصنع بنا ما صنع بالمسلمين الأوائل الذين طرأ القرآن على حياتهم فغيرها. فإسرائيل وغيرها يذيعون القرآن. ولو علموا أننا سنتدبره ونعمل به كسلفنا ما أذاعوه. لأن تدبره يؤدي إلى العمل به.

وتدبر القرآن والعمل وبه هو الذي يجمع شتات هذه الأمة ويوحد صفوفها ويجمع كلمتها ويجعل منها أمة قوية كسلفها. لذا فلابد من العمل بهذا القرآن.

إن القرآن لم ينزل ليقرأ على الأموات أو ليتبرك به في المنازل أو العربات وإنما منهاجاً للفرد ودستوراً للدولة ونظاماً للحياة كلها ليحكمها بما أنزل الله عز وجل من الهدى ودين الحق. قال تعالى: ﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ . يبين لنا الله فيه أصول الهداية وأصول الحياة وأصول التشريع وأصول القيم ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ ﴾ . ﴿ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾ ويوم اتبع المسلمون هذا الكتاب وساروا وراءه ونفذوا أحكامه وتعاليمه كانوا خير أمة حقاً كما أراد الله لهم. قادوا الدنيا بزمام، وفتحوا المشارق والمغارب بهداية هذا القرآن وبالعمل به. لم ينشروا الإسلام بالسيف كما يزعم الأفاكون من المبشرين والمستشرقين وغيرهم. أي سيف هذا الذي يتحدثون عنه؟

لقد دخل المسلمون مصر ببضعة آلاف على رأسهم عمرو بن العاص وكانت مهمتهم أن يخرجوا الرومان الذين احتلوا مصر وأن يتيحوا الفرصة أمام من يريد اعتناق الإسلام. لذا فقد تآلف المسلمون مع

الشعب المصري القبطي في ذلك الوقت ولم يكرهوا أحداً على الإسلام وانتشر الإسلام بين أهل مصر لا بسيف ولا بجيش وإنما دخل الناس في دين الله أفواجاً حتى اقترح أحد ولاة مصر في وقت من الأوقات على الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يفرض الجزية على من أسلم لكثرة من أسلم من الناس فبعث إليه عمر يقول: قبح الله رأيك إن الله بعث مُحَمَّداً هادياً ولم يبعثه جابياً.

فالإسلام لم ينتشر بالسيف إنما انتشر بهداية القرآن وبعمل المسلمين بهذا القرآن. كانوا صورة عملية لهذا القرآن كان كل واحد منهم مصحفاً يمشي على قدمين يرى الناس فيه آداب القرآن وأخلاق القرآن كما كان رسول الله ﷺ. سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلقه ﷺ فأجابت بالجواب الجامع قالت: ((كان خلقه القرآن)) أي إذا أردت أن تعرف خلق الرسول ﷺ فافتح المصحف واقرأ ﴿وَعِبَادُ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمۡشُونَ عَلَى ٱلۡأَرۡضِ هَوۡنٗا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلۡجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمٗا ٦٣ ...﴾ إلى آخر أوصاف عباد الرحمن. اقرأ ﴿قَدۡ أَفۡلَحَ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ١ ٱلَّذِينَ هُمۡ فِي صَلَاتِهِمۡ خَٰشِعُونَ ٢ ....﴾ اقرأ سورة البقرة: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ٣.... ﴾ إلخ. اقرأ القرآن تعرف أخلاق مُحَمَّد ﷺ فهو خير من جسد تعاليم القرآن في حياته. وهكذا كان المسلمون في العصور الأولى. كان كل منهم قرآناً مرئياً مجسماً بين الناس. بهذا نشروا الإسلام في العالمين ولم ينشروه بالسيف كما يزعم المضللون. إن بلاد الشرق الأقصى الفلبين، وأندونيسيا، وماليزيا وهذه البلاد التي فيها مئات الآلاف والملايين من المسلمين لم يدخلها فاتح مسلم ولم تطأ أرضها خيول المسلمين ولا جيوشهم فمن أين أسلموا؟ أسلموا بعمل المسلمين بالقرآن.

ومن هنا كان علينا نحن مسلمي اليوم إذا أردنا أن نكون من أهل القرآن كما قال ﷺ: (إن لله أهلين. قيل: من هم يا رسول الله؟ قال: أهل القرآن أهل الله وخاصته). هل مجرد أن يقرأ الإنسان القرآن بلسانه وقلبه بعيد عنه كل البعد وحياته تنافيه يشفع له يوم القيامة؟ ومن يقول هذا؟ السلف يقولون: رب تال للقرآن والقرآن يلعنه. وكأنهم يحذرون من يقرأ قول الله تعالى: ﴿لَّعۡنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلۡكَٰذِبِينَ ٦١﴾ ويكذب، ويقرأ قول الله تعالى: ﴿أَلَا لَعۡنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ١٨﴾ ويظلم، ويقرأ ﴿ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡخَآئِنِينَ ٥٨﴾ ويخون، يحذرونه من أنه لن تناله شفاعة القرآن، وكيف تناله وحاله هذا؟ إنما يشفع القرآن لمن قرأه وعمل به. كما جاء عن النبي ﷺ في حديث ابن مسعود (القرآن شافع مشفع وما حل مصبغ، من جعل القرآن أمامه قاده إلى الجنة ومن جعل القرآن خلفه زخه في قفاه حتى يرديه في النار) أي من جعل القرآن أمامه وإمامه قاده إلى الجنة ومن جعله خلفه واتخذه

وراءه ظهرياً وجعله نسياً منسياً فإن القرآن يزخه في قفاه حتى يرديه في النار لأنه أخر ما يجب أن يقدم ووضع القرآن في غير موضعه.

إنما يشفع القرآن لمن قرأه وعمل به، لمن أحيا به ليلة وعمل به نهاره كما جاء في الحديث (الصيام والقرآن يشفعان للعبد يوم القيامة يقول الصيام يا رب منعته الطعام والشراب بالنهار فشفعني فيه، ويقول القرآن يا رب منعته النوم بالليل فشفعني فيه)، وأيضاً جاء في الحديث (لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل آتاه الله المال فسلطه على هلكته في الحق فهو ينفق منه آناء الليل وآناء النهار.) والمراد بالحسد هنا الغبطة أي يتمنى أن يكون مثله في قراءة القرآن أو الإنفاق ولا يتمنى زوال نعمته. فتمنى زوال النعمة هو الحسد الذي يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. إنما يشفع القرآن لمن أحيا به ليلة وعمل به نهاره.

ومن هنا كان واجبنا نحن المسلمين أفراداً وجماعات ودولاً أن يصبح القرآن منهاج حياة لنا. وقد رسم القرآن المنهاج الكامل للحياة التي يحياها الإنسان في علاقته بالله عقيدة وعبادة، في علاقة الرجل بزوجته والمرأة بزوجها ﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ ﴾ ، في علاقة الوالد بوالده والولد بوالديه، في علاقة الفرد بالآخرين من الناس، في علاقة الحاكم بالمحكومين. هذا وغيره جاءت في آيات في القرآن موجزة جامعة تضع الأسس والأصول التي ترسم منهاج الحياة حتى في الأمور البسيطة كالمشي وآداب الزيارة يعلمنا القرآن كيف نمشي فيقول: ﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا ﴾ أي لا يشمون مبخترين ولا متجبرين لكن بسكينة وتواضع. ويقول أيضاً ﴿ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ ﴾ أي لا تمش مختالاً متكبراً لأنك مهما دببت على الأرض بقدمك أو تمطيت إلى السماء بعنقك فلن تخرق ولن تبلغ الجبال طولاً. ﴿ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ ﴾ أي لا تهرول كالحمقى ولا تتباطأ أو تتماوت وإنما كن متوسطاً. وفي آداب الزيارة يقول: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ ﴾ هذا التعبير القرآني (حتى تستأنسوا) يعلمنا أسمى وأرقى أنواع الذوق الإنساني لأنه يدل على مجرد الإذن وإنما يدل على الإذن والاستعداد والرغبة في زيارتك. أين ما يسمونه (الإتيكيت)، أو (البروتوكول) من هذا الأدب القرآني الذي يرتفع بنا إلى درجة الاستئناس عند الزيارة؟ (وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم) لا شيء في عدم الإذن أو الرجوع التماساً للأعذار أو لعدم الاستعداد في الحال. لا ينبغي أن يكون في

عدم الإذن غصة أو غضاضة لأن القرآن لا يرى ذلك. حكى الأستاذ/ بهي الخولي رحمه الله عن الإمام الشهيد حسن البنا أن جماعة من الناس زاروه وكان مشغولاً لأمر ما، فطلب من ابنه أو أخيه أن يفتح لهم وأن يدخلهم المجلس ففعل، ثم أمره أن يقدم لهم تحية الضيف، وبعد فترة جاءهم واعتذر إليهم عن الجلوس معهم لانشغاله بأمر ما. فغضبوا ولاموه، فقال لهم: القرآن حكم بيننا. الله يقول: (حتى تستأنسوا) وأنتم لم تستأنسوا لأنكم جئتم في وقت غير مناسب لي. واستقبلكم أحد أفراد البيت وقدم لكم واجب الضيف دون حضوري. وكان يمكن أن تفهموا بعد هذا أني مشغول فتنصرفوا ولم تفعلوا وحضرت أعتذر إليكم بنفسي فلم تقبلوا مع أن الله تعالى يقول: (وإذا قيل لكم ارجعوا فارجعوا) قال وكانوا على شيء من الفقه والعلم فقالوا أفحمتنا. الحق معك. فسلموا عليه وانصرفوا. هكذا يحكم الناس القرآن في سلوكهم وتصرفاتهم لأنه رسم لنا آداب السلوك فلو أننا كنا قرآنيين لكانت حياتنا أرفع حياة. نحن لسنا في حاجة إلى استيراد التقاليد منن هنا وهناك، عندنا ما يكفينا فقد أعطانا القرآن كل شيء. حبذا العود إليه، فبالقرآن نعز بعد ذلة، ونقوى بعد ضعف، ونأمن بعد خوف وتعود إلينا السيادة ونصبح في طليعة الأمم بعد أن أصبحنا وراء القافلة، كنا في مأخذ الزمام، كنا في المقدمة يوم كنا قرآنيين. لما أعرضنا عن القرآن أصبحنا في مؤخرة الأمم. الآن يقولون عنا العالم الثالث أو الدول النامية أي المتخلفة ولكنهم يخففون العبارة فيسمونها الدول النامية. يوم كنا قرآنيين كانت أمتنا في الطليعة. كانت إماماً للدنيا وقادت الدنيا بهذا الكتاب العظيم.

فواجبنا نحن المسلمين أن نعود إلى القرآن. نحسن قراءته ونحسن الاستماع إليه ونحسن فهمه وتدبره ونعيش معه بقلوبنا ثم نحكمه في حياتنا، حياتنا الأسرية، حياتنا الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، نحل ما أحل هذا القرآن ونحرم ما حرمه. هذا واجبنا جميعاً ليس واجب الرجال وحدهم ولا واجب النساء وحدهن، هو وواجب الرجال والنساء والحكام والمحكومين، واجب المسلمين جميعاً.

فالقرآن هو روح هذه الأمة ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا ۚ وَإِنَّكَ لَتَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٢﴾﴾ هو روح ونور: روح يحي ونور يضيء. ولكن للأسف نحن المسلمين لا نستفيد من هذا النور وإن كان معنا وفي أيدينا.

ومن العجائب والعجائب جمة ... قرب السبيل وما إليه وصول

كالعيس في البيداء يقتلها الظما ... والماء فوق ظهورها محمول

إذا أردنا أن نسعد في الدنيا وأن نفوز في الآخرة وأن يرضى الله تبارك وتعالى عنا إذا أردنا ذلك فعلينا أن نعود إلى القرآن أن نعود إلى كتاب الله تعالى. هو المخرج من كل فتنة وظلمة كما جاء في

الحديث الذي رواه الترمذي عن علي ﷺ أنه سمع النبي ﷺ يقول (ستكون بعدي فتن كقطع الليل المظلم. قال علي قلت وما المخرج منها يا رسول الله؟ قال كتاب الله. فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله. هو الذي لا يشبع منه العلماء ولا يمله الأتقياء، ولا يخلق على كثرة الرد. ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته إلا أن قالوا ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا ﴾ من علم علمه سبق، ومن قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجر، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم.

نسأل الله تبارك وتعالى بكل اسم هو له سمى به نفسه أو أنزله في كتابه أو علمه أحداً من خلقه أو استأثر به في علم الغيب عنده أن يجعل القرآن الكر يم ربيع قلوبنا ونور صدورنا وجلاء أحزاننا وذهاب همنا وغمنا وأن يجعلنا قرآنيين مسلمين. وأن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه الذين بشرهم الله بقوله:

﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٨ ﴾ .

وصلى الله على سيدنا مُحَمَّد وآله وصحبه.....

تعريف عام بالقرآن الكريم

إعداد

الدكتور حسن عيسى عبد الظاهر

جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً، أنزله بلسان عربي مبين ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

والصلاة والسلام على سيدنا مُحَمَّد الذي تلقى القرآن من لدن حكيم حميد ﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴿١٩٥﴾ ﴾ .

وبعد.. فهذه بعض معالم ذلك الكتاب الذي لا ريب فيه، تعريفاً بأهم خصائصه ليكون كل من يعرفه على بينه من أمره..

﴿ لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ﴾

وقد راعيت في ذلك الإيجاز والتحديد معتمداً على النصوص المنقولة من الكتب الخاصة بعلوم القرآن الكريم، والله ولي التوفيق.

تعريف عام بالقرآن الكريم وعلومه:

القرآن الكريم [1]:

كتاب ختم الله له الكتب، وأنزله على نبي ختم به الأنبياء، بدين عام خالد ختم به الأديان.

وهو حجة الرسول، وآيته الكبرى، يقوم شاهداً برسالته، ناطقاً بنبوته، دليلاً على صدقه.

يستند الإسلام إليه في عقائده، وعباداته، وحكمه، وأحكامه، وآدابه، وأخلاقه، وقصصه، مواعظه، وعلومه، ومعارفه..

وهو موضع العناية الكبرى من الرسول ﷺ، وصحابته، ومن سلف الأمة وخلفها جميعاً إلى أن تقوم الساعة..

وقد اتخذت هذه العناية أشكالاً مختلفة:

- فتارة ترجع إلى لفظه، وأدائه، وأسلوبه، وإعجازه، وكتابته، ورسمه..
- وتارة ترجع إلى مضمونه، وتفسيره، وأحكامه.

وقد اتسعت مجالات هذه العناية، وأفرد العلماء كل ناحية بالبحث والتأليف، ووضعوا من أجلها العلوم، ودونوا الكتب، وصنفوها في:

علم القراءات، وعلم التجويد، وعلم الرسم العثماني، وعلم التفسير، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن، وعلم إعجاز القرآن، وعلم إعراب القرآن، وغيرها...

وهذه العلوم كلها وغيرها مما هو على شاكلتها انتظمتها وانتظمت مقاصدها وأعراضها ما سمي بـ (علوم القرآن)..

لعل من أولى ما نتعرف به على ذلك الكتاب الكريم هو: اسمه.

من أسماء القرآن الكريم:

هذا الكتاب الكريم له أسماء باختلاف صفاته فهو: قرآن – وكتاب – وفرقان – وذكر – وتنزيل..

وتجري عليه هذه الأوصاف أو بعضها باختلاف المقام..

---

[1] – انظر مناهل العرفان ج1 ص3، 4، 5 بتصرف.

(**القرآن**):

هذا الاسم في الأصل عبارة عن (مصدر)، تقول: قرأته قرءاً، وقراءة، وقرآنا، بمعنى واحد، أي تلوته تلاوة..

وقد جاء استعمال لفظ (القرآن) بهذا المعنى المصدري في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ﴾ أي قراءته، سورة القيامة..

ثم صار (علما شخصياً) لذلك الكتاب الكريم،

وهذا هو الاستعمال الأغلب ومنه قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾ الإسراء/9.

واسم القرآن مشتق من القراءة وهي: التلاوة، إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي حفظ ويتلى كما أشار إليه تعالى:

﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ ﴾، وقوله تعالى: ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ باعتبار أن المقام للأمر بالتلاوة في الصلاة أو مطلقاً..

هذا ولم يوصف من الكتب السماوية بوصف (القرآن) غير الكتاب المنزل على رسول الله مُحَمَّد ﷺ .

(الفرقان) [1]: ويقال للقرآن: (فرقان) باعتبار أنه كلام فارق بين الحق والباطل، أو مفروق بعضه عن بعض في النزول، أو في السور والآيات..

يقول تعالى: ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴿١﴾ ﴾ سورة الفرقان. وهذا الاسمان[2] هما أشهر أسماء هذا النظم الكريم، بل جعلهما بعض المفسرين مرجع جميع أسمائه، كما ترجع صفات الله تعالى – على كثرتها – إلى معنى: الجلال، والجمال...

ويلي هذين الاسمين في الشهرة هذه الأسماء الثلاثة: الكتاب، والذكر، والتنزيل..

---

[1] – التبيان ص17 وهامشها.

[2] – أي (القرآن والفرقان).

وقد بلغ بعض العلماء والمؤلفين بعدة أسماء القرآن الكريم خمسة وخمسين اسماً –كما فعل صاحب البرهان – وبلغ غيره بها نيفاً وتسعين –كما ذكر صاحب التبيان – واعتمد هذا وذاك على إطلاقات واردة في كثير من الآيات والسور، وفاتهما أن يفرقا بين ما جاء من تلك الألفاظ على أنه (اسم) وما ورد على أنه (وصف) مثل: قرآن، وكريم، وذكر، ومبارك.. فلفظا قرآن وذكر مقبول كونهما اسمين، أما لفظا كريم ومبارك فلاشك أنهما وصفان[1]..

تعريف بالقرآن الكريم

كثر كلام العلماء في تعريف القرآن الكريم من متكلمين، وأصوليين، وفقهاء، وعلماء لغة، ومنهم من أطال في التعريف وأطنب بذكر جميع خصائص القرآن الممتازة، ومنهم من اختصر فيه وأوجز، ومنهم من اقتصد وتوسط، فالذين أطنبوا عرفوه بأنه: (الكلام، المعجز، المنزل على النبي ﷺ، المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته).

ويمكن أن نجمل أهم خواصه وعناصر تعريفه المشهور في النقاط التالية:

من خواص القرآن الكريم[2] وعناصر تعريفه المشهور:

1 – القرآن الكريم هو كلام الله تعالى.

2 – الذي نزل به الروح الأمين.

3 – على قلب رسول الله مُحَمَّد ﷺ.

4 – بألفاظ العربية، ومعانيه الحقة.

5 – ليكون حجة للرسول ﷺ على أنه رسول الله.

6 – ودستوراً يتعبدون بتلاوته.

7 – وقربة يتعبدون بتلاوته.

8 – وهو المدون بين دفتي المصحف.

9 – المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.

---

[1] – انظر مناهل العرفان جـ1 ص7، 8.

[2] – أصول الفقه – ص23 وما بعدها – لعبد الوهاب خلاف.

10 - المنقول إلينا بالتواتر كتابة ومشافهة جيلاً عن جيل.

11 - محفوظاً من أي تغيير أو تبديل مصداق قول الله سبحانه فيه:

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الحجر.

القرآن: (كلام الله تعالى):

الكلام: جنس شامل لكل كلام..

وأضيف إلى اسم الجلالة لأنه كلام أوجده الله ليدل على مراده من الناس [1]، وهذه الإضافة تميزه عن كلام من سواه من الإنس، والجن، والملائكة، وقد أبلغه إلى الرسول ﷺ بواسطة الملك، فلم يكن من تأليف مخلوق، ولكن الله أوجده بقدرته بدون صنع أحد، بخلاف الحديث القدسي.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ﴾ التوبة/6.

وقد استدل بهذه الآية من ذهب إلى أن (كلام الله) بحرف وصوت قديمين[2]، وهم: الحنابلة ومن وافقهم (كالعضد).

قالوا: لأن منطوق الآية يدل على أن (كلام الله) يسمعه الكافر، والمؤمن والزنديق، والصديق، والذي يسمعه جمهور الخلق ليس إلا هذه الحروف والأصوات.

فدل ذلك على أن (كلام الله) (القرآن) ليس إلا هذه الحروف والأصوات، والقول بأن كلام الله شيء مغاير لها باطل، لأن رسول الله ﷺ ما كان يشير بقوله (كلام الله) إلا لها.

وقد اعترف الرازي بقوة هذا، لإلزام من خالف فيه..

القرآن:

(المنزل..) الذي نزل به أمين الوحي جبريل:

---

[1] - انظر تفسير التحرير والتنوير – ج110 – للإمام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور، والنبأ العظيم للدكتور دراز.

[2] - انظر تفسير القاسمي – ج8 – ص (3078).

﴿ نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ﴿١٩٤﴾ ﴾ الشـــــعراء 193، 194

﴿ قُلْ مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٩٧﴾ ﴾ سورة البقرة 97.

و(**المنزل**):

مخرج للكلام الإلهي الذي استأثر الله به في نفسه، أو ألقاه إلى ملائكته ليعملوا به، لا لينزلوه على أحد من البشر، إذ ليس كل كلامه تعالى منزلاً، بل الذي أنزل منه قليل من كثير.

﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ الكهف 109/18.

﴿ وَلَوْ أَنَّمَا فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ﴾ سورة لقمان 27/31.

المنزل على قلب رسول الله ﷺ:

وتقييد المنزل بكونه على (مُحَمَّد ﷺ) لإخراج ما أنزل على الأنبياء من قبله، كالتوراة المنزلة على (موسى)، والإنجيل المنزل على (عيسى) والزبور المنزل على (داود)، والصحف المنزلة على (إبراهيم) عليهما السلام.

وبالحق أنزلناه وبالحق نزل:

﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ ۗ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿١٠٥﴾ ﴾ الإســـراء 105- وبالحـــق أنزلناه: أي بالحقيقة أنزلناه كتاباً من لدنا فأين تذهبون؟ كما قال تعالى: ﴿ لَّٰكِنِ ٱللَّهُ يَشْهَدُ بِمَآ أَنزَلَ إِلَيْكَ ۖ أَنزَلَهُۥ بِعِلْمِهِۦ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَشْهَدُونَ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿١٦٦﴾ ﴾ ..

(**وبالحق نزل**): أي متلبساً بالحق الذي هو ثبات نظام العالم على أكمل الوجوه، وهو ما أشتمل عليه من العقائد، والأحكام، ومحاسن الأخلاق، وكل ما خالف الباطل.

كقوله تعالى: ﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ﴾ ..

وهذا عود إلى التنويه بشأن القرآن الكريم فهو متصل بقوله ﴿ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٨٩﴾ ﴾ .

وقد وصف القرآن بصفتين عظيمتين، كل واحدة منهما تحتوي على ثناء عظيم وتنبيه للتدبر فيهما.

أنزلناه، نزل:

وقد ذكر فعل النزول مرتين، وذكر له في كل مرة متعلق متماثل اللفظ، لكنه مختلف المعنى:

1- فعلق إنزال الله إياه بأنه بالحق، فكان معنى الحق: الثابت الذي لا ريب فيه ولا كذب.

فهو كقوله تعالى: ﴿ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ ، وهو رد لتكذيب المشركين أن يكون القرآن وحياً من عند الله تعالى..

2- وعلق نزول القرآن: أي بلوغه للناس بالحق، فكوان معنى الحق الثاني: مقابل الباطل، أي مشتملاً على الحق الذي به قوام صلاح الناس وفوزهم في الدنيا والآخرة.

كما قال تعالى: ﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ ، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ وضمائر الغيبة عائدة إلى القرآن المعروف من المقام..

والباء في الموضعين: للمصاحبة.

لأنه مشتمل على الحق والهدى، والمصاحبة تشبه الظرفية، ولولا اختلاف معنى (الباءين) في الآية لكان قوله (وبالحق نزل) مجرد تأكيد لقوله: (وبالحق أنزلناه)، لأنه إذا أنزل بالحق نزل به، ولا ينبغي المصير إليه ما لم يتعين، وتقديم (المجرور) في الموضعين على عامله للقصر، رداً على المنكرين ادعوا أنه أساطير الأولين، أو سحر مبين، أو نحو ذلك.

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٥٦﴾ ﴾ .

جملة معترضة بين جملة (وبالحق أنزلناه) وجملة (وقرآنا فرقناه) أي وفي ذلك الحق: نفع وضر.

فأنت به مبشر للمؤمنين، ونذير للكافرين،

والقصر للرد على الذين سألوه أشياء من تصرفات الله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا ﴾ والذين ظنوا أن لا يكون الرسول بشراً.

مدة إنزال القرآن على الرسول ﷺ

ابتدأ هذا الإنزال من مبعثه عليه الصلاة والسلام، وانتهى بقرب انتهاء حياته الشريفة.

وتقدر هذه المدة بعشرين، أو ثلاثة وعشرين أو خمسة وعشرين عاماً، تبعاً للخلاف في مدة إقامته في مكة بعد البعثة:

أكانت عشر سنين، أم ثلاث عشرة، أم خمس عشرة سنة،

أما مدة إقامته بالمدينة فعشر سنين اتفاقاً، كذلك قال السيوطي، ولكن بعض محققي التاريخ التشريعي الإسلامي يذكر:

أن مدة مقامه ﷺ بمكة (اثنتا عشرة سنة وخمسة أشهر وثلاثة عشر يوماً) من 17 رمضان سنة 41 من مولده الشريف، إلى أول ربيع الأول سنة 54 سنة.

أما مدة إقامته في (المدينة) بعد الهجرة فهي (تسع سنوات وتسعة أشهر وتسعة أيام) من أول ربيع الأول سنة 54 من مولده إلى تاسع ذي الحجة سنة 63 منه ويوافق ذلك ستة عشرة من الهجرة).

وهذا التحقيق قريب من القول بأن مدة إقامته ﷺ في مكة ثلاث عشر سنة وفي المدينة عشر سنين، وأن مدة الوحي بالقرآن ثلاثة وعشرون عاماً.

لكن هذا التحقيق لا يزال في حاجة إلى تحقيقات ثلاثة، ذلك لأنه أهمل من حسابه باكورة الوحي إليه ﷺ عن طريق الرؤيا الصادقة ستة أشهر، على حين أنها ثابتة في الصحيح.

ثم جرى فيه على أن ابتداء نزول القرآن كان ليلة السابع عشر من رمضان وهي ليلة القدر على بعض الآراء، غير أنه يخالف المشهور الذي يؤيده الصحيح، ثم ذهب فيه مذهب القائلين بأن آخر ما نزل من القرآن هو آية (اليوم أكملت) وذلك في تاسع ذي الحجة سنة عشر من الهجرة وهذا المذهب غير صحيح.

نزول القرآن مفرقاً

﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ ﴾ الإسراء 106

أي نزلناه مفرقاً منجماً:

وقرئ بالتشديد (فرقناه): والقراءتان بمعنى، (وقرآنا) عطف على جملة (أنزلناه).

(قرآنا): انتصب على الحال، من الضمير المنصوب في (فرقناه)، مقدمة على صاحبها تنويها الكون قرآنا، أي كونه: كتاباً مقروءاً، فإن اسم (القرآن) مشتق من القراءة، وهي: التلاوة، إشارة إلى أنه من جنس الكلام الذي يحفظ ويتلى، كما أشار قوله تعالى: ﴿ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ وَقُرْءَانٍ مُّبِينٍ ۝١ ﴾ .

(فرقناه): جعلناه فرقاً، أي أنزلناه منجماً مفرقاً غير مجتمع صبرة واحدة.

يقال: فرق الأشياء إذا باعد بينهما، وفرق الصبرة إذا جزأها.

الفرق: ويطلق (الفرق) على (البيان) لأن (البيان) يشبه تفريق الأشياء المختلطة، فيكون (فرقناه) محتملاً معنى: بيناه وفصلناه..

وإذا كان قوله تعالى: (قرآنا) حالاً من ضمير (فرقناه) آل المعنى إلى: أنا فرقناه وأقرأناه..

العلة في ذلك:

وقد علل بقوله: ﴿ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ ﴿ عَلَىٰ مُكْثٍ ﴾ أي: على مهل، وتؤده، وتثبت..

فهما علتان: أن يقرأ على الناس: وتلك علة لجعله قرآنا، وأن يقرأه على مكث: أي مهل وبطء وهي علة لتفريقه..

﴿ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾ الإسراء 106.

أي من لدنا على حسب الأحوال والمصالح، وجملة (ونزلناه تنزيلا): معطوفة على جملة (وقرآنا فرقناه)[1].

وفي فعل (نزلناه) المضاعف، وتأكيد بالمفعول المطلق (تنزيلاً): إشارة إلى تفريق إنزاله المذكور في قوله: ﴿ وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ .

وطوى بيان (الحكمة) للاجتزاء بما في قوله: (لتقرأه على الناس على مكث) من اتحاد الحكمة، وهي ما صرح به قوله تعالى: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ۝٣٢ ﴾ .

---

[1] – أنظر تفسير التحرير والتنوير للإمام مُحَمَّد الطاهر بن عاشور.

ويجوز أن يراد: فرقنا إنزاله: رعياً للأسباب والحوادث، وفي كلا الوجهين إبطال لشبهتهم إذ قالوا: (لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة).

حكمة إنزال القرآن منجماً:

1 - تثبيت فؤاد النبي ﷺ.

2 - أن تكون ألفاظه ومعانيه أثبت في نفوس السامعين، وأيسر للحفظ وأعون على الفهم.

3 - يقول عبد الله بن مسعود رضي الله عنه:

(كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن، ويعمل بهن).

ويقول الإمام (أبو عبد الرحمن السلمي)

(حدثنا الذين كانوا يقرئوننا: أنهم كانوا يستقرئون من النبي ﷺ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يتركوها حتى يعملوا بما فيها، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً)

وصدق الله العظيم:

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَا نُزِّلَ عَلَيۡهِ ٱلۡقُرۡءَانُ جُمۡلَةٗ وَٰحِدَةٗۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَۖ وَرَتَّلۡنَٰهُ تَرۡتِيلٗا ٣٢ وَلَا يَأۡتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئۡنَٰكَ بِٱلۡحَقِّ وَأَحۡسَنَ تَفۡسِيرًا ٣٣ ﴾ الفرقان.

القرآن حجة ومعجزة:

والبرهان على أن القرآن حجة على الناس وأن أحكامه قانون واجب عليهم اتباعه هو أنه من عند الله، وأنه نقل إليهم من الله تعالى بطريق قطعي لا ريب في صحته [1].

أما البرهان على أنه من عند الله تعالى فهو: إعجازه الناس عن أن يأتوا بمثله.

والإعجاز: معناه نسبة العجز إلى الغير وإثباته له.

فمعنى: أعجز القرآن الناس: أي أثبت عجزهم عن أن يأتوا بمثله.

---

[1] - أصول الفقه ص 25 وما بعدها – لعبد الوهاب خلاف.

تحقيق معنى الإعجاز:

ولا يتحقق الإعجاز: أي إثبات العجز إلا إذا توافرت أمور ثلاثة:

الأول: التحدي: أي طلب المباراة، والمنازلة، والمعارضة، والقرآن الكريم توافر فيه التحدي به فإن الرسول ﷺ قال للناس: إني رسول الله وبرهاني هذا القرآن، لأنه أوحي إلي به من عند الله تعالى.

فلما أنكروا عليه دعواه قال لهم: إن كنتم في ريب من أنه من عند الله فأتوا بمثله، أو بعشر سور من مثله، أو بسورة من مثله.

وتحداهم، وطلب منهم هذه المعارضة بلهجات تستفز العزيمة، بل وأقسم أنهم لا يأتون بمثله، ولن يفعلوا ولن يستجيبوا.

يقول الله تعالى: ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ سورة البقرة.

الثاني: أن يوجد المقتضى الذي يدفع المتحدي إلى المباراة والمنازلة والمعارضة، ووجوه هذا المقتضى بين، لأن الرسول ﷺ ادعى أنه رسول الله وجاءهم بدين يبطل دينهم، وما وجدوا عليه آباءهم، وسفه عقولهم، وسخر من أوثانهم، واحتج على دعواه بأن القرآن من عند الله، وتحداهم أن يأتوا بمثله، فما كان أحوجهم وأشد حرصهم على أن يأتوا بمثله، كله أو بعضه ليبطلوا أنه من عند الله، وليدحضوا حجة الرسول ﷺ على أنه رسول الله، وبهذا ينصرون آلهتهم ويدافعون عن دينهم.

الثالث: أن ينتفي المانع الذي يمنعه من هذه المبارة.

أما انتفاء ما يمنعهم من معارضته فلأن القرآن بلسان عربي، وألفاظه من أحرف العرب الهجائية، وعباراته على أسلوب العرب، وهم أصل البيان والفصاحة.

هذا من الناحية اللفظية.

وأما من (الناحية المعنوية) فقد نطق شعرهم ونثرهم وحكمهم ومناظراتهم بأنهم ناضجو العقول ذوو بصر وخبرة. وقد دعاهم القرآن في تحديه ل هم أن يستعينوا بمن شاءوا.

وأما من الناحية الزمنية فالقرآن لم ينزل جملة واحدة حتى يحتجوا بأن زمنهم لا يتسع للمعارضة بل نزل مفرقاً في ثلاث وعشرين سنة بين كل مجموعة وأخرى زمن فيه متسع للمعارضة والإتيان بمثلها لو كان ذلك في مقدورهم.

ولو جاءوا بمثله – ولن يستطيعوا – لنصروا آلهتهم وأبطلوا حجة من سخر منهم، وكفوا أنفسهم شر القتال.

فالتجاؤهم إلى المحاربة بدل المعارضة اعتراف منهم بعجزهم، وتسليم منهم بأن القرآن فوق مستوى البشر، ودليل على أنه من عند الله تعالى.

من وجوه إعجاز القرآن الكريم: [1]

1 - اتساق عباراته ومعانيه وأحكامه ونظرياته.

2 - انطباق آياته على ما يكشفه العلم من نظريات علمية.

3 - إخباره بوقائع لا يعلمها إلا علام الغيوب سبحانه وتعالى.

4 - فصاحة ألفاظه، وبلاغة عباراته، وقوة تأثيره.

القرآن هدى ودستور [2]

يتكون القرآن الكريم من أكثر من (ستة آلاف) آية، وعبر عما قصد إلى التعبير عنه بعبارات متنوعة وأساليب شتى، وطرق موضوعات متعددة: اعتقادية، وخلقية، وتشريعية.

وقرر حقائق كثيرة: كونية واجتماعية ووجدانية.

فمن أنواع أحكامه ثلاثة:

الأول: أحكام اعتقادية: تتعلق بما يجب على المكلف اعتقاده في الله وملائكته وكتبه ورسله، واليوم الآخر.

---

[1] – أصول الفقه – لعبد الوهاب خلاف – ص 27 وما بعدها.

[2] – أصول الفقه – لعبد الوهاب خلاف – ص32 وما بعدها.

والثاني: أحكام خلقية تتعلق بما يجب على المكلف أن يتحلى به من الفضائل، وأن يتخلى عنه من الرذائل.

والثالث: أحكام عملية: تتعلق بما يصدر عن المكلف من أقوال وأفعال وعقود وتصرفات، وهذا النوع الثالث هو فقه القرآن وهو مقصود علم أصول الفقه.

والأحكام العملية في القرآن تنتظم نوعين:

أحكام العبادات:

من صلاة وصوم وزكاة وحج ونذر ويمين ونحوها من العبادات التي يقصد بها تنظيم علاقة الإنسان بربه.

وأحكام المعاملات:

من عقود وتصرفات، وعقوبات وجنايات وغيرها مما عدا العبادات، ومما يقصد به تنظيم علاقة المكلفين بعضهم ببعض، سواء أكانوا أفراداً أم أمماً أم جماعات، فأحكام ما عدا العبادات تسمى في الاصطلاح الشرعي: أحكام المعاملات بحسب مما تتعلق به، وما يقصد بها إلى الأنواع التالية:

1 - أحكام الأحوال الشخصية: وهي التي تتعلق بالأسرة من بدء تكونها، ويقصد بها تنظيم علاقة الزوجين والأقارب بعضهم ببعض، وآياته في القرآن نحو (70) سبعين آية.

2 - والأحكام المدنية: وهي التي تتعلق بمعاملات الأفراد ومبادلاتهم، من بيع وإجارة ورهن وكفالة وشركة ومداينة، ووفاء بالالتزام، ويقصد بها تنظيم علاقات الأفراد المالية، وحفظ حق كل ذي حق، وآياتها في القرآن نحو (70) سبعين آية.

3 - والأحكام الجنائية: وهي التي تتعلق بما يصدر عن المكلف من جرائم، وما يستحقه عليها من عقوبة، ويقصد بها حفظ حياة الناس وأموالهم وأعراضهم وحقوقهم، وتحديد علاقة المجني عليه بالجاني وبالأمة، وآياتها في القرآن نحو (30) ثلاثين آية.

4 - وأحكام المرافعات: وآياتها بالقضاء والشهادة واليمين، ويقصد بها تنظيم الإجراءات لتحقيق العدل بين الناس، وآياتها في القرآن نحو (13) ثلاث عشرة آية.

5 - والأحكام الدستورية: وهي التي تتعلق بنظام الحكم وأصوله، ويقصد بها تحديد علاقة الحاكم بالمحكوم، وتقرير ما للأفراد والجماعات من حقوق، وآياتها نحو (10) عشر آيات.

6 - والأحكام الدولية: وهي التي تتعلق بمعاملة الدولة الإسلامية لغيرها من الدول وبمعاملة غير المسلمين في الدولة الإسلامية، ويقصد بها تحديد علاقة الدولة الإسلامية بغيرها من الدول في السلم وفي الحرب، وآياتها نحو (25) خمس وعشرون آية.

7 - والأحكام الاقتصادية والمالية: وهي التي تتعلق بحق السائل والمحروم في مال الغني، وتنظيم الموارد والمصارف، ويقصد بها تنظيم العلاقات المالية بين الأغنياء والفقراء، وبين الدولة والأفراد، وآياتها نحو (10) عشر آيات.

ومن استقرأ آيات الأحكام في القرآن يتبين أن أحكامه تفصيلية في العبادات وما يلحق بها من الأحوال الشخصية والمواريث، لأن أكثر أحكام هذا النوع تعبدي، ولا مجال للعقل فيه، ولا يتطور بتطور البيئات.

وأما فيما عدا العبادات والأحوال الشخصية: من الأحكام المدنية والجنائية والدستورية والدولية والاقتصادية فأحكامه فيها: قواعد عامة ومبادئ أساسية، ولم يتعرض فيها لتفصيلات جزئية إلا في النادر، لأن هذه الأحكام تتطور بتطور البيئات والمصالح، فاقتصر القرآن فيها على القواعد العامة، والمبادئ الأساسية ليكون ولاة الأمر في كل عصر في سعة من أن يفصلوا قوانينهم فيها حسب مصالحهم في حدود أسس القرآن من غير اصطدام بحكم جزئي فيه.

(المتعبد بتلاوته):

وهو قربة يتعبد بتلاوته:

فه مأمور بقراءته في الصلاة ((لا صلاة لمن لم يقرأ بأم الكتاب)) ومأمور بتلاوته خارج الصلاة على وجه العبادة.

يقول رسول الله ﷺ: ((من قرأ حرفاً من كتاب الله تعالى فله حسنة، والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول: (الم) حرف، ولكن ألف حرف، ولام حرف، وميم حرف)) رواه الترمذي.

ويقول عليه الصلاة والسلام: ((يقال – يعني لصاحب القرآن – اقرأ وارق ورتل كما كنت ترتل في الدنيا فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها)) رواه أبو داود.

وهذا القيد أي: (المتعبد بتلاوته) [1] لإخراج ما لم نؤمر بتلاوته من ذلك كالقراءات المنقولة إلينا بطريق الآحاد.

وكالأحاديث القدسية وهي: المسندة إلى الله عز وجل، إن قلنا إنها منزلة من عند الله تعالى بألفاظها.

ومن خصائصه: توثيق مصدره وتأمين حفظه من أي تغيير أو تبديل مصداق قوله تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ وقد روعي في تسميته (قرآنا) كونه متلوا بالألسن، كما روعي في تسميته (كتاباً) كونه مدوناً بالأقلام، فكلتا التسميتين (قرآنا وكتابا) من تسمية شيء بالمعنى الواقع عليه.

وفي تسمية بهذين الاسمين إشارة إلى أن من حقه:

العناية بحفظه في موضعين لا في موضع واحد، يعني أنه يجب حفظه في الصدور والسطور جميعاً، فلا ثقة بحفظ حافظ حتى يوافق الرسم المجمع عليه من الأصحاب، المنقول إلينا جيلاً بعد جيل على هيئته التي وضع عليها أول مرة.

ولا ثقة لنا بكتابة كاتب حتى يوافق ما هو عند الحفاظ بالإسناد الصحيح المتواتر.

وبهذه العناية المزدوجة التي بعثها الله في نفوس الأمة الإسلامية اقتداء بنبيها ﷺ، بقي القرآن محفوظاً إنجازاً لوعد الله الذي تكفل بحفظه حيث يقول تعالى: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾ ﴾ سورة الحجر.

ولم يصبه ما أصاب الكتب الماضية من التحريف والتبديل وانقطاع السند حيث لم يتكفل الله بحفظها، بل وكلها إلى حفظ الناس فقال تعالى: ﴿ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلْأَحْبَارُ بِمَا ٱسْتُحْفِظُوا۟ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ ﴾ سورة المائدة. أي بما طلب إليهم حفظه..

والسر هذه التفرقة:

أن سائر الكتب السماوية جئ بها على التوقيت لا التأبيد..

وأن هذا القرآن جئ به مصدقاً لما بين يديه من الكتب ومهيمناً عليه، فكان جامعاً لما فيها من الحقائق الثابتة زائدا عليها بما شاء الله زيادته.

وكان ساداً مسدها ولم يكن شيء منها ليسد مسده فقضي الله أن يبقى حجة إلى قيام الساعة.

---

[1] – انظر (النبأ العظيم) ص14، 15 للدكتور مُحَمَّد عبد الله دراز.

في رياض القرآن الكريم

إعداد

الأستاذ الدكتور/ مُحَمَّد كمال جعفر

جامعة قطر

انفرد القرآن الكريم بخصائص لم يشاركه فيها كتاب سماوي منزل من قبل. ولم يتمتع القرآن الكريم بهذه الخصائص عبثاً، ولم تكن تلك المميزات إلا الضمانات المؤكدة لعموم الرسالة، وختام الكلمة وشمولها وصلاحيتها لخطاب الإنسان بما هو إنسان بصرف النظر عن الزمان والمكان. وهذا العموم والشمول والصلاحية أمر مفروغ منه الآن عملياً وواقعياً، حيث لم تأت رسالة الخاتم ﷺ، وإن كان قد وجد متنبئون، تهاوت دعوتهم، فبادت وبادوا وبقي صلوات الله عليه ملء السمع والبصر والقلب، بما أتى للبشرية من تشريع وتوجيه، تضمنه كتاب تضافرت فيه كل مقومات الجمال والكمال والجلال ظاهراً وباطناً، لفظاً ومعنى، حقيقة وعبارة، حتى كان بحق مجمعاً لرياض متنوعة، يتربى ويتنزه فيها الفكر والوجدان والسلوك.

ومما توج هذا الفصل تكفل منزله – جل شأنه – بحفظه وصيانته من أن يعروه أدنى تغيير أو تحريف. وقد كان هذا الحفظ الإلهي ضرورياً، حتى تثبت حجة الله على جميع الأجيال، منذ عهد رسول الله مُحَمَّد ﷺ حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ولعل هذا هو السبب الذي من أجله لم يصرف العلماء كل عنايتهم إلى معجزات النبي ﷺ التي تتصل بخرق العادة في الأمور المحسوسة، وهي ما تسمى بالمعجزات الحسية، كتسبيح الحصا، ونبع الماء من أصابعه الشريفة، وحنين الجذع، وتكثير الطعام وغير ذلك مما سجلته السيرة.

وهذا الموقف يعتبر مختلفاً تماماً مع الموقف المتبني في الديانات السابقة، حيث كانت الركيزة الأساسية هي هذه المعجزات الحسية. وقد كان ذلك أمراً طبيعياً من حيث محدودية الرسالة، وخصوص المهمة وقصرها على قوم ينتمون إلى دم واحد وأرومة واحدة، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى هذه الحقيقة حين قال: ((كان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس كافة)).

وإذا تأملنا هذه الحقيقة – حقيقة الآيات أو المعجزات الحسية، وجدنا أن مثل هذه الآيات تكون حجة دامغة على من شاهدوها، أو كانوا قريبين من زمن حدوثها، أما هؤلاء الذين تباعدت أزمانهم، فقد يكون لهم سبيل إلى الإنكار أو التكذيب، ولا سبيل إلى إقناعهم بالحدوث إلا من قبيل الإيمان والتصديق والثقة بمصدر الخبر. والله ﷻ يعلم أن في الناس مغالطين وذوي لجج وخصومة، ومثل هؤلاء يتيسر لهم استغلال هذا البعد الزمني، ويتهيأ لهم السبيل إلى التكذيب والإنكار، وليس هناك ما يواجهون به. ولهذا كان هذا الكتاب المبين المهيمن المصدق لما بين يديه بهذه الصورة المعجزة الجامعة، التي جعلته منتجعاً لكل قاصد، ونبعاً فياضاً لكل وراد.

قصد إليه علماء اللغة يدرسون ألفاظه ومشتقاته وعباراته وتراكيبه وحروفه وأصواته في مناهج متعددة أثرت الحياة الثقافية واللغوية، وقدصه النحاة يتأملون قواعده وعلاقات مفرداته وجمله، ونظام هذه

العلاقات وما توحي به من قوانين ومبادئ، كما قصده الفقهاء لاستجلاء أحكامه واستنباط آدابه وتوجيهاته، ولجأ إليه المفسرون يسبرون أغوار معانيه ومبانيه، ويستنبطون عظاته وعبره وحكمه ودلائله ودلالاته الخصبة الغنية، بمناهج لا تقل ثراء عن مناهج السابقين.

وقصده البلغاء لاستكناه أسرار روعته وطلاوته، ومقومات بلاغته وأسره لأفصح الفصحاء وابلغ البلغاء، وقصده كذلك المؤرخون في علاقاتهم بالله وعلاقاتهم مع أنفسهم، وقد استطاع هؤلاء وأولئك أن يتعلموا أقيم الدروس وأنفعها فيما يتصل بقوانين التاريخ وسنن الأحداث التي تعبر حقيقة عن سنة الله في الكون وفي الإنسان.

كما قصد القرآن العباد والزهاد وأرباب السلوك يستلهمون إشاراته وتوجيهاته ويضيئون قلوبهم ويرطبون ألسنتهم بتلاوته وتأمله ومعايشته باعتباره حبل الله المتين.

كثيرة هي التخصصات، وعديدة هي الفئات والجماعات التي جاءت إلى هذا الكتاب العزيز تنتج من بئره، وتستمد من عطائه، وما لعطائه من نفاد. ولعل ما يمكن أ، يعتز به مسلم إزاء هذا الكتاب المهين هو أن إعجازه لا يقف عند الحدود البلاغية أو الحدود التنبؤية أو الأخبار الصادقة عن الأحداث والحقائق الماضية إلى غير ذلك مما لا حصر له، بل إن إعجازه ليمتد إلى تأكيد أن كل جيل من أجيال البشر على تعاقبها وتسلسلها يمكن أن يقرأ القرآن وكأنه ما نزل إلا في شأنه، يخاطبه وكأنه أنزل للتو والساعة، ففيه الجلوة وفيه الطلاوة والحلاوة وفيه الجدة التي لا تبلى، وهما كررت القراءة عبر عمرك الطويل فلا تتسرب إليك الملالة أو الاستيعاب، وهذا ما يمكن أن يسمى بالثبات الدائم المهيمن للكلمة الإلهية، التي تستمد ثباتها وخلودها وتأثيرها من الحي الذي لا يموت، ولا تأخذه سنة ولا نوم .

وفي هذه المحاضرة الوجيزة لا يسعنا إلا أن نتنزه معاً في بعض رياض هذا الكتاب الجليل على الله ينفعنا ببعض الدروس المستفادة من هذه النزهة التي يجب أن نعتبرها تلبية لدعوة ربانية وأمر إلهي أشار إليه سبحانه في قوله عز سلطانه: ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥ وَأَنصِتُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٢٠٤﴾ ﴾ وها نحن نستمع وننصت مشرئبين إلى رحمته عز وجل؛ وقوله تعالى: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَآ ﴿٢٤﴾ ﴾ ؟

ولا يغيب عن ذهن المسلم قط أن أول آية شرف الله قلب مُحَمَّد ﷺ بتلقيها هي قوله تعالى: ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴿١﴾ ﴾ ويعتبر هذا عند التحقيق محواً فعلياً، وإيذاناً إلهياً بانتهاء أمية البشر وجهالتهم، حيث كان من يستطيع القراءة أو التفكير منهم يقرأ ويفكر بغير اسم الله فينسب الأشياء إلى غير مالكها وينسب الأحداث الكبرى إلى غير فاعلها، إن هذه الآية حين تنزل على الأمي الأمين بالرغم من قوله صلوات الله عليه: ((ما أنا بقارئ)) تدل دلالة واضحة على أن المقصود في الواقع إزالة جهالة الوثنية والشرك والتردي في حمأة الجهالة. ثم تتابعت الآيات الكريمة ترسم المنهج الأمثل في تربية الإنسان وتغذية قواه وملكاته في توازن واعتدال ويمكننا الآن أن نستطلع في عجالة أهم الخطوط العريضة التي رسمها القرآن لهذا الإنسان بما هو إنسان بصرف النظر عن الجنس واللغة واللون والزمان والمكان.

كفايات الإنسان:

لقد تحدث العلماء فأفاضوا على قوى الإنسان وملكاته ونوازعه وخواطره وسوانحه ونياته وقصوده وعزماته وإرادته وغير ذلك من أوجه النشاط النفسي، كما تحدثوا عن مجالاته العقلية والفكرية والخيالية والظنية، حديثهم عن أنماط سلوكه وتنوع أفعاله وملابسات تواجده وصراعه مع من وما حوله.

والحديث في كل هذه الجوانب يطول ويستغرق وقتاً ومساحة لا قبل لهذه المحاضرة بها، ولذا آثرنا أن نبسط الأمر فنتحدث عن الكفايات الرئيسية في هذا الإنسان، وكيف سلط القرآن الكريم أنواراً كاشفة عليها، وكيف قدم وسائل تغذيتها وتربيتها تربية تكفل لها سعادتها في الدارين.

إن هذه الكفايات الرئيسية تقع تحت ثلاثة مصطلحات، هي على الترتيب:

كفاية العقل، وكفاية الوجدان، وكفاية السلوك.

أما كفاية العقل فإننا نجد مجالاتها تتصل بمنهج التربية والتنمية، وفي هذا المنهج نلاحظ أن القرآن يبدأ مع الإنسان بالمحسوس ثم ينتقل به إلى المجرد، حتى إذا كان المجرد أمراً يظن أنه بعيد عن الفهم والاستيعاب ضرب الحق له المثل الذي يجعل هذا المجرد محسوساً ملموساً.

أما البدء بالمحسوس فهو أمر يتمشى مع طبيعة الإنسان ونموه العقلي، حتى فيما يشاهد في حياة الطفولة وما يتلوها من مراحل. ومثال ذلك من القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ

مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ ﴾ (سورة الأنعام/ 75-83).

إن هذه الآيات تضع وسيلة إيضاح للعقلية البشرية لكيفية الاستدلال على وجود الله عن طريق تأمل أكبر وأظهر الظواهر المحسوسة، ومبررات رفض أن تكون إلها ليصل الاستدلال في النهاية إلى الإقرار بالذي فطر السموات والأرض دون شريك. وأمثلة هذا المنهج مبثوثة في آيات عديدة في القرآن الكريم مع تنوع الإيجاز أو الإطناب، فقوله تعالى مثلاً: ﴿ لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ ﴾ استدلال يكاد يضع يدنا على ما نعانيه في تجاربنا وما نقوله حتى في أمثالنا (المركب ذات الريسين تغرق)، وقوله تعالى لأهل الكتاب: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ . توحي بضرورة استخدام العقل حتى في فقد الأحكام التاريخية فهو هنا يقول لأهل الكتاب لم تمارون وتزيدون في الجدل حول إبراهيم ووصفه باليهودية أو النصرانية إذ كيف يكون ذلك صحيحاً وما أنزلت التوراة البادئة عهد اليهودية إلا بعد زمن إبراهيم، فكيف يوصف إبراهيم بشيء لم يكن في زمنه، وإنما أتى بعده، ولهذا كان ختام الآية أنسب ختام (أفلا تعقلون). وهذا بلا شك يعلمنا درساً في التاريخ والنقد والتمحيص. أما تجسيد المجرد لتقريب صورته إلى الذهن، بل إلى النفس على جهة العموم فله أمثلة كثيرة وصورة متعددة تذكر منها هذه الصورة الرائعة التي لا تتطلب مزيداً من الإيضاح والإيقان، وهي صورة تصف ضياع ثمار الأعمال التي يصحبها الكفر ويفارقها الإيمان. إذ تعتبر هذه الأعمال هباء لا غناء فيه، مع خداعها لصاحبها الذي يظن أن وراءها طائل – ولعل من المناسب أن نشير إلى أن هذه الآية التي ترسم تلك الصورة هي من سورة النور – والنور يكشف حقيقة الأشياء، لأنه نور الله الذي لا تخفى عليه خافية.

يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَعْمَٰلُهُمْ كَسَرَابٍۭ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ۗ وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴿٤٠﴾ ﴾ (النور/ 39، 40). فالسراب ظاهرة

محسوسة، وخداعها مجرب، والتناسب بين خداع السراب وخداع أعمال الكافر دقيق، ولكن الآية الثانية التي تزيد الأمر وضوحاً بما لا مزيد عليه تصور الكافر في ضلاله وحرمانه من النور الذي يعطي لعباد الرحمن، بصورة مقيم في أعماق ظلمات متتابعة متراكبة، بلغت من حلكتها حداً لا يتمكن الإنسان فيه من رؤية يده. وإذا لاحظنا البحوث العلمية الحديثة في أعماق البحار، واكتشاف العلماء الظلمات نتيجة لكثرة الطبقات التي يشكلها الموج المتراكم، وذلك بالنسبة ل نظريات الضوء وتكسره في الماء مما يحقق فعلاً أنواعاً من الظلمات في البحر الواحد لا بمجرد العمق، ولكن لتكون طبقات حقيقية من الأمواج. وتكتنف الظلمات هذا التعس من أعلى ومن أسفل. وتأمل التعبير: ﴿ كَظُلُمَٰتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ظُلُمَٰتُۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ ﴾. إن هذه صورة محسوسة ملموسة رهيبة للضلال وما يفعله بأهله، هؤلاء الذين يجحدون فضل الله وعبادته. وتتنوع أساليب ووسائل التربية والتنمية العقلية في القرآن فمنها: أسلوب النقد التحليلي لتفاصيل الرأي المخالف، ومنها: أسلوب التوجيه والتحذير العام من مسببات الخطأ والصد عن اليقين كالدعوة إلى التفريق بين العلم والظن، والنهي عن اتباع ما ليس لنا به علم، وغير ذلك من الأساليب التي يضيق عنها الحصر [1].

غير أنه من الممتع عقلياً أن نتأمل أسلوباً آخر للتربية والتنمية العقلية والوجدانية وهو أسلوب الحوار بين طرفين مختلفين: طرف الكفر وطرف الإيمان، وينتهي الحوار بما يشدك شداً إلى الإيمان عن اقتناع وشوق وجداني عميق. إن هذا الحوار يرد في سورة الكهف (من آية 32 إلى 44) من قوله تعالى: ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ ﴾ .. إلخ الآيات. وتأمل رسم القرآن الكريم للحديقتين وما فيه من دقائق فنية مفصلة بعلم الزراعة وفلاحة البساتين، وتأمل كذلك حافتي الحديقتين وقد سورتا بالنخل المثمر فليس مجر د سور، بل سور مثمر وهو صاد للرياح والتراب ومثمر في الوقت ذاته، ويجري النهر في الوسط ليسقي الحديقتين وما في ذلك من نفع وجمال، وما يمكن أن يعطي ذلك من اغترار بالأمان والثبات وعدم الزوال – وهي الفكرة الأساسية التي عبر عنها الكافر حين حكى القرآن قوله: ﴿ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ ﴾ .

إن من المفيد حقاً قراءة المتأمل منه بما لا يحصي من دروس وفوائد تتعلق بعالم الأحياء وعالم النفس وعالم الخلق، ثم ما يتعلق بزبدة الحكمة العظيمة والحقيقة الكبرى المستخلصة من نهاية المصير الذي انتهى

---

[1] – انظر على الترتيب سورة المائدة أواخرها، الأنعام، الإسراء، النجم، وغيرها من السور.

إليه المتحاوران، ويعبر عنها القرآن بقوله: ﴿ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ ۚ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾ ﴾ (سورة الكهف/ 44).

ومما يتصل بالتربية العقلية والدقة في التخطيط والتنظيم والتدبير وعمل الحساب لكل شيء ما ورد في سورة يوسف – أحسن القصص كما يصفها القرآن – بشأن تدبير يوسف لاستبقاء أخيه الشقيق بعد تدبيره لضرورة طلبه من إخوته ومن تدبيره كذلك لمواجهة الأزمة الاقتصادية التي فهمها الصديق يوسف من رؤيا الملك، وكلها أنماط تعمل على تفتح العقل وابتكار الحيلة، ومحاولة التوصل إلى الحلول لما يجد من مشكلات، استناداً إلى حسن التفكير ونشاط العقل. بل إنك لو تأملت قوله تعالى في سورة ((الكهف)) التي يصف فيها رقدة أهل الكهف والظروف المحيطة بهم من الناحية الطقسية على أساس علمي ندركه الآن تمام الإدراك وإن كنا لا نشك لحظة في أن أمر أهل الكهف من أوله إلى آخره معجزة لا سبيل لبشر إلى تحقيقه أو محاكاته، لكن الذي نريد أن نلفت النظر إليه هو أنه- عز شأنه – يوجه انتباهنا إلى دقائق تتصل بالمكان الذي يرقد فيه أهل الكهف وما يحيط به من مناظر وظروف طبيعية وذلك في قوله تعالى: ﴿ ۞ وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ .

فالشمس تميل في الصباح عنهم من جهة لتمنح هذا الجانب الدفء المطلوب دون أن تصيبهم بأذى المباشرة، أما في آخر النهار فهي تتولى جعة الشمال دون أن تؤذيهم، فالدف يصل إلى الجهتين في قدر فإذا أضيف إلى ذلك تقليبهم ذات اليمين وذات الشمال، تعلمنا أن المريض الذي حكم عليه بطول الرقاد لابد أن نراعي في رعايته هذه الإجراءات لئلا يصيب بدنه الأذى إذا لبث جزء منه ممنوعاً من التهوية أو الدفء، وقد رأينا مرضى هلكوا نتيجة الإهمال في مراعاة تقليبهم حيث تكاثرت الثور والتشققات التي يستطيع السيطرة عليها.

ولعل أحسم الأدلة وأنجع الوسائل في الإقناع العقلي هو الإحالة على الواقع المشاهد ووضع الإنسان الشاك في مواجهة هذا الواقع الذي لا يملك أي مكابر إزاءه إلا التسليم والاقتناع، أو إعلان الإفلاس بالمكابرة، ومن أكثر هذه الوسائل والأدلة حسماً وتأثيراً ما عرضه القرآن الكريم لمشهد يتكرر، وفيه يتقرر مصير كل إنسان، مهما كانت الظروف، ومهما بذل من جهود. واستمع إلى قوله تعالى: ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾ وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ ﴿٨٤﴾ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ ﴿٨٥﴾ فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (سورة الواقعة 38-87).

والواقع أننا لا نستطيع الاسترسال في هذا النسق القرآني الذي يفيد الإنسان منه سلامة الفكرة ودقة التعبير وسلامة الحجة ووضوح الدليل وقوة البرهان وشحذ الذهن وما يستند إليه من حسن وتخيل إذ لا يكفيه كتاب مستقل. وحسبنا ما عرضنا، ولمن شاء المزيد فعليه بتأمل الآيات التي أ شرنا إلى كثير منها في مجال الملحق.

ولننتقل الآن إلى مجال الوجدان والشعور والعاطفة لنجد أن القرآن عالج في هذا المجال جوانب أساسية متعددة ليضمن سلامة هذا الوجدان وصدق العاطفة ونبل الشعور وحيويته بما يضمن في النهاية صحة نفسية وسعادة روحية وحياة طيبة. لكي نحدد مهمتنا فلا يتشعب بنا السبيل إلى ما لا يستطاع الإلمام به فنشير إلى نقاط محددة، ومسائل معينة في هذا المجال، على أن يقاس عليها غيرها مما يفيض به هذا الكتاب الجليل.

ومن هذه النقاط: التوازن والاعتدال في المشاعر وعدم الإفراط في أي طرف منها، سواء كان الشعور حزناً أو فرحاً أو خوفاً أو طمعاً، أو ميلاً أو نفوراً، أو حباً أو كرهاً، أو عداوة أو صداقة، فالإفراط في الخوف قد ينقلب إلى اليأس و ﴿ لَا يَاْيۡـَٔسُ مِن رَّوۡحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾ والإفراط في الرجاء قد يدعو إلى التحلل واللامبالاة كما فعل بأقوام قالوا ﴿ نَحۡنُ أَبۡنَٰٓؤُاْ ٱللَّهِ وَأَحِبَّٰٓؤُهُۥۚ قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمۖ بَلۡ أَنتُم بَشَرٞ مِّمَّنۡ خَلَقَۚ.. ﴾ وربط الحزن والفرح بالأشياء العابرة المنتهية قد يحدث في المرء زلزلة نفسية وتردياً وجدانياً ينتهي بالدمار والبوار، ومن هنا كان توجيه القرآن في قوله سبحانه: ﴿ لِّكَيۡلَا تَأۡسَوۡاْ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمۡ وَلَا تَفۡرَحُواْ بِمَآ ءَاتَىٰكُمۡۗ ﴾ . وقد صحح وجهة العاطفة الفرح فجعل موضوعها دائماً حتى تدوم فرحة الإنسان وذلك في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ بِفَضۡلِ ٱللَّهِ وَبِرَحۡمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلۡيَفۡرَحُواْ هُوَ خَيۡرٞ مِّمَّا يَجۡمَعُونَ ﴿٥٨﴾ ﴾ .

ويعرض القرآن نصيحة قوم قارون فيما يتعلق بما لديه من نعمة ومال ﴿ إِذۡ قَالَ لَهُۥ قَوۡمُهُۥ لَا تَفۡرَحۡۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ وَأَحۡسِن كَمَآ أَحۡسَنَ ٱللَّهُ.. ﴾ .

وهذا مما يرشدنا إلى أن الله سبحانه لا يحرم علينا الفرح، وإنما يحرم علينا أن يكون فرحنا مقصوراً على المال وعلى الدنيا مع وجود ما يفوق ذلك قيمة وجدارة بالفرح وهو فضل الله ورحمته فيما أتى به من دين ونور وهدى وما أرسل به رسوله الخاتم صلوات الله عليه. وهنا نجد أن عاطفة الفرح قد رشدت ترشيداً عاقلاً وضابطاً صيانة لكر امة الإنسان وعزته.

وهنا لابد أن نشير إلى هذا التوازن العجيب الذي يحققه الإسلام في كتابه الكريم إذا قامت على تلاحم بين الخوف والرجاء، والرهبة والرغبة، فلا ينفرد الخوف فيولد يأساً، ولا ينفرد الرجاء فينقلب تحللاً وهوساً. ولذا كان المؤمنون يد عون ربهم (خوفاً وطمعاً)، و (رغباً ورهباً) ولذا قال علماؤنا: الخوف والرجاء جناحان يطيران بالمؤمن إلى أعلى الدرجات في الأدب مع الله سبحانه وتعالى. ولقد كان إمام المرسلين على ما هو عليه من قرب وحب ورجاء لله دائم الاستغفار، وأتقى عباد الله وأخشاهم له، وكذلك الصديق رضوان الله عليه – على ما له من مكانة في الصدق والصلاح والقرب والتقرب – يقول: لا آمن من مكر الله وإحدى رجلي في الجنة. وذلك لما لله من جلال قاهر وهيبة آمرة وكما يقول السلف: جماله يدعونا، وجلاله يردعنا، ورحمته تطعمنا، وعذابه يخيفنا.

إن ميل القلب إلى شيء أو شخص قد يكون أمراً لا يقاوم، ويشير القرآن إلى ما يفهم منه ذلك وبخاصة في العلاقة الزوجية في حالة التعدد فيقول – عزّ من قائل – ﴿ فَلَا تَمِيلُوا۟ كُلَّ ٱلْمَيْلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلْمُعَلَّقَةِ ﴾ فهو ينهي عما يترتب على الميل عن فلانه أو الميل، وهذا هو الأثر العملي للمشاعر، وهو ما يصل حقيقة إلى الشخص المعني.

ومن هذه النقاط في المجال النفسي أو الشعوري: التوعية والدعوة إلى مجال التدقيق وإعادة النظر فيما نحب وما نكره أي تحليل مجالات المحبة والكراهة على أساس من العلم اليقيني. ومن هنا يعلن القرآن حقيقة طالما لمسناها في حياتنا العملية. ويعبر عنها القرآن بقوله: ﴿ ..وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾ ﴾، (سورة البقرة/224). لطالما مرّ بنا كثيراً وقائع وأحداث انزعجنا لها أول الأمر، وكرهنا أشد الكره، ثم تجلى لنا بعد ذلك ما لهذه الوقائع والأحداث من خير عميم نخجل إزاءه لكراهتنا الأولى له. وبالمثل كم من أمور طرنا بها فرحاً، ثم كانت عاقبتها في نهاية الأمر وبالاً وترحاً. ويسجل القرآن أمثلة كثيرة لكل هذه الظواهر، كحديث الإفك، وقصة ثعلبة، وأصحاب الجنتين، وفرح فرعون بموسى عقب التقاطه، وغير ذلك من الأمثلة التي نجد لها تطبيقاً في حياتنا العملية.

ومن هذه النقاط: التحليل النفسي الدقيق للنوازع والخواطر والاتجاهات القلبية بما يبصرنا بحقيقة الأعمال التي قد تبدو معجبة وممدوحة وهي في حقيقية انبعاثها خبيثة ماكرة. ومن هنا كانت عناية الإسلام بالنية كقاعدة مرعية لأساس قبول العمل لديه. فالمنافقون الذين بنوا المسجد الذي سماه الله (ضراراً) قد قاموا قدموا عملاً من الناحية الشكلية لا غبار عليه، فبناؤه جيد، وربما كانت مواد البناء فيه أكثر تكلفة وأجمل منظراً من المسجد الذي بناه الرسول الكريم ﷺ بمواد بسيطة ولكنه أسس على تقوى من الله ورضوانه أي أن النية في بنائه خالصة لوجهه سبحانه وابتغاء مرضاته. ومن هنا حسم القرآن

المسألة في المقارنة بين المسجدين ونهى الرسول الكريم عن الصلاة في مسجد الضرار ((الذي بني على شفا جرف هار فانهار به في نار جهنم)) فمسجد المنافقين من الناحية الشكلية قد يكون جذاباً ولكن الإسلام لا ينخدع بجمال المظهر مع سوء المخبر. وهذا ما يفرق الإسلام من غيره من الديانات المحرفة أو المذاهب الوضعية التي تقيس الأعمال بنتائجها فقط لا ببواعثها أو دوافعها، وما ذلك إلا لأن الإسلام يكرم الإنسان ويزنه ميزاناً صحيحاً، ولا يتم ذلك إلا في ضوء المعرفة الدقيقة لنواياه ومشاعره وأفكار هـ.

والواقع أن التشريح القرآني لنفوس المنافقين وضروب نفاقهم يعد ثروة علمية خطيرة في تزويد قواتنا بالحقائق النفسية التي يعلمنا إياها القرآن وكيف نفيد منها في مواجهة الحرب النفسية التي يثيرها الأعداء في ربوع الأمة الإسلامية.

إن هـذا التشـريح النفسـي يـتم في مختلـف أوضـاع المنـافقين واخـتلاف هيئـاتهم وفئـاتهم في منـازلهم ومجتمعاتهم وفي حربهم وسلمهم، وفي علاقاتهم فيما بينهم وبين غيرهم من مختلفي الملل والنحل.

وفي سورة ((التوبة)) وسورة ((المنافقون)) وسورة ((الحشر)) مناجم تضم كنوزاً في معرفة دخائل النفوس التي ضمت على الحقد والضغينة والكيد والحسد والغل.

ويمتـد التشـريح النفسـي إلى المشـركين واللاأدريـين الـذين يصـورهم القـرآن بالحيـارى الـذين يضـربون في الأرض على غير هـدى أو بالـذي ((خـر)) مـن السـماء فتخطفـه الطير أو تهـوي بـه الـريح في مكـان سحيق.

وفي صدد العواطف النبيلة والمشاعر الجياشة يدعونا القرآن لاصطحابه في مواقف وكأنها نحن فتثور مشاعرنا وتصحو عواطفنا وتتيقظ أحاسيسنا مشاركة في هذا الموقف أو ذلك ونخرج وكأننا نحن المعنيين بهذا الموقف، فنحس بعدها وكأن غذاء ربانياً قد صب في قلوبنا، ومدداً إلهياً قد أفيض على مشاعرنا، فإذا القلب مضيء وإذا الروح طليقة وإذا الصدر مشروح.

فمن منا يملك نفسه فيحول بينها وبين أن تندمج مع يوسف الصديق الذي تصوره الآيات وقد أتى بأبويه ورفعهما على العرش قائلاً ﴿ يَـٰٓأَبَتِ هَـٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَـٰيَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ وَقَدۡ أَحۡسَنَ بِيٓ إِذۡ أَخۡرَجَنِي مِنَ ٱلسِّجۡنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلۡبَدۡوِ مِنۢ بَعۡدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيۡطَـٰنُ بَيۡنِي وَبَيۡنَ إِخۡوَتِيٓۚ إِنَّ رَبِّي لَطِيفٞ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ١٠٠ ﴾ ثم تنطلـق الآيات دون حكايـة علـى سـبيل الالتفات لدعوتنا للاندماج مع يوسف فتقول معاً:

﴿ ۞ رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ ۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ (يوسف/ 100، 101).

وتأمل طهارة النفس وصفاءها في قول يوسف عن إخوته ﴿ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِيٓ ۚ ﴾ وكيف وضع الملام على الشيطان لا على إخوته وهذا هو النبل والعفو والكرامة التي يدعونا إليها القرآن حتى مع المسيء، وأعتقد أن إساءة إخوته يوسف إليه كانت من أشد أنواع الإساءة.

وهذا الحيز من الصفحات والمسموح به من الوقت تقتضي الاقتصار على ما أوردنا في المجال النفسي أو الشعوري والعاطفي لكن ينبغي أن نعلم في تلخيص وتركيز أن جميع نوازع النفس وخواطرها وقصودها وميولها قد تولاها القرآن بما يكشف عن طبيعة الإنسان قبل التهذيب ثم بقوله وعمله وإقراره حتى كان هذا الجيل الأول الذي حمل أمانة الرسالة جيلاً سوي النفس قوي الإرادة وصادق العزيمة، لم تغره نعمة، ولم تفتنه عاجلة، ولم تغره نعمة، و لم تفتنه عاجلة ولم ترده شهوة أو نزوة.

أما المجال الثالث فهو مجال السلوك أو العمل: وهو المقصود على الحقيقة من التوجيهات الإسلامية. إذ أن التربية العقلية والفكرية إنما كانت لتحصين العقل وإنارته، وتدريبه على مناقشة الآراء ونقدها وعدم قبول شيء إلا ببرهان صادق، كما كان للإيقان والإيمان المدعم بالدليل الواضح الحاسم، وكانت التربية الوجدانية من أجل إكساب هذا الفكر وهذا المحصول العلمي، نبضاً وحرارة وحيوية، تدفع إلى العمل والتطبيق، ومن هنا نقول: إن مجال السلوك، هو الغاية التي يسعى إليها الإسلام، ولذلك جاء العمل دائماً مقروناً بالإيمان لأنه لا فائدة من فكر أو إيمان لا يدفع إلى العمل، ولا يساهم في تغيير الواقع أو إصلاح الفاسد.

وفي هذا المجال لم يتوجه القرآن كما تتوجه كتب الفلاسفة أو كتب البشر بإطلاق إلى تعريف السلوك، وتحديد ألوانه وأنواعه تحديداً نظرياً، وإنما سلك القرآن أقرب السلوك، وتحديد ألوانه وأنواعه تحديداً نظرياً، وإنما سلك القرآن أقرب السبل إلى قلب الإنسان وعقله لإصلاح سلوكه، وترقية عقله، وتبرئته من الشوائب الخفية، و ضمان تمتعه بالإتقان والإحكام. و اتخذ الإسلام في ذلك كما قلنا أنجع الوسائل وهو القدوة الشارحة، والنموذج الدال، سواء للجيل الذي يستمع إلى القرآن ومن هنا كانت صلاحية هذه الوسيلة وقابليتها للتطبيق وفاعليتها في المجال التربوي في شتى العصور.

ومن الناحية العلمية البحتة ينظر إلى القدوة أو المثل أو النموذج أو الأسوة على أنه وسيلة إيضاح مقنعة، يظهر السلوك المطلوب حياً نابضاً مؤثراً فعالاً، ناطق بجميع الجوانب، بصورة أبلغ بكثير من مجرد وصفه أو الحديث عنه، ولعل هذا السرّ الذي من أجله وجه القرآن أنظار المسلمين جميعاً إلى هذا المبدأ

باختياره أكمل النماذج وأمثل أنماط القدوة مُحَمَّداً ﷺ فقال عز سلطانه: ﴿لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُوا اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الأحزاب 21).

ثم وجه الأنظار كذلك إلى هذه الصورة الرائعة الآسرة لعباد الرحمن.

وإذا لاحظنا أن الآيات التي تتصل بهذه الصورة ترد عقب حديث القرآن عن البروج والكواكب والأقمار التي تهدي بضيائها في ظلمات الليل، أدركنا أن هذه الأنماط الرائدة من عباد الرحمن تهدي هي الأخرى في غياهب الحياة. يقول تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ﴿٦٤﴾ .....﴾ إلخ (الفرقان الآيات حتى نهاية سورة الفرقان). ولا يقتصر القرآن على عرض أنماط القدوة بل يعقب ذلك أحياناً بعواقب ومصائر هذه الأنماط، وما ينتظرها من الثواب العظيم أو العقاب الأليم، وذلك لأن القرآن لم يقتصر على الأنماط الشريفة الصالحة التي تقود إلى الهدى والصلاح، بل إنه يعرض كذلك النماذج الطالحة وما تعيثه في الأرض من فساد، وما يحل عليها بعد ذلك من عقاب ووبال، تحذيراً وتنبيهاً.

والقرآن يذهب في ذلك أبلغ مذهب حيث يعيد لك موقف هؤلاء، وتقلبهم في أحوال سلوكهم وكأنك تعايشهم فعلاً، وتحسهم حقيقة، بل إن الإعجاز الحق أنك ترى شواهد لهذه النماذج فيمن يعاصرونك على الحقيقة. ومن هنا تصبح النماذج التي عرضها القرآن نماذج وأنماط دائمة تتكرر في كل زمان ومكان، فيصدق عليها، ما سبقت به كلمة الرحمن في القرآن.

ويمكن لكل متأمل أن يطوف مع هذه النماذج الصالحة أو الطالحة التي يعرضها القرآن الكريم بأروع الوسائل الجمالية والبلاغية المؤثرة التي تجعل هذه النماذج حية نابضة تضرب في الحياة، وتؤثر بضروب أحوالها: وما فرعون أو هامان أو قارون إلا من بين هذه النماذج التي طبقت شهرتها الآفاق، وخلفت آثاراً ما تزال تهز تفكير ووجدان كل قارئ منصف، وما تزال الدروس والعبر تستقي من سير مثل هذه النماذج وقاية للأجيال القادمة أو المعاصرة التي أعقبت عصر هؤلاء من شر عواقب سلوك هذه النماذج.

كما لا يغيب عن وعي أي منصف النموذج الإبراهيمي الخليلي الذي يجسد السخاء والفداء والبطولة والحب الذي لا حد له لله عز شأنه، ذلك الحب الذي استرخص في سبيله كل غال حتى فلذة الكبد، أحوج ما يكون إليه، وكذلك نموذج الصدق والأمانة الخالدة التي أضاءت وما زالت تضيء مسيرة الإنسان، وتدعو بمآلها إلى أنبل السلوك وأشرفه في دنيا الناس.

ولعل مما يتوج هذا الكمال والجمال النمط الفريد للقدوة الأمثل والأسوة الأكمل، خاتم رسل الله وخير من اصطفاه من خلقه صلوات الله عليه. هذا النبي الأمي الذي كان خلقه القرآن. ويكفيه هذا

شرفاً لا يبارى ومجداً وكمالاً لا يجارى، فكما كان القرآن مهيمناً على سائر الكتب السماوية، كان الرسول الخاتم مستعلياً ومسيطراً في أوجه كمالاته وسجاياه على سائر الأخلاق البشرية في أوج مثاليتها، وحسبك أن تعلم حكم العلي العظيم بأن رسوله مُحَمَّداً ﴿ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴿٤﴾ ﴾.

إن الحديث عما يقدمه القرآن الكريم من زاد للفكر أو للوجدان أو السلوك حديث لا ينفد من حيث عرض صورة وأنماطه وأمثلته، ففي رياض القرآن نجد تدريبات ربانية للحس والعقل في مختلف أوجه نشاطها، وفيها أصول وقواعد التربية الجمالية الحقة التي تشحذ حاسة الجمال وتصدق الذوق وتنميه وتدفعه إلى الإبداع، وفيها أنساق من الفضائل عرضت بشتى الصور لتجذب إليها العقول والقلوب، حقائق الحياة وظواهرها مجلوة ﴿ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ﴿٣٧﴾ ﴾ ، وفيها كذلك حقائق الموت وما بعده، ومن منا يملك ألا يهتز وجدانه ويسجد عقله وتحبس أنفاسه حين يسمع قوله تعالى: ﴿ وَجَآءَتْ سَكْرَةُ ٱلْمَوْتِ بِٱلْحَقِّ ۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾ وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ ۚ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾ وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَآئِقٌ وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾ لَّقَدْ كُنتَ فِى غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴿٢٢﴾ ﴾ (سورة ق/ 19-22).

لقد ذكرني الحديث عن القرآن الكريم بموقف عايشته في السودان الشقيق حيث كنت أستاذاً زائراً لجامعة أم درمان وقد تعرفت على قارئ ومقرئ للقرآن، قد وهب حلاوة الصوت وجمال الأداء في التلاوة، ووسامة المظهر وأناقة الملمس فكان حقيقة حسن المظهر والمخبر تماماً.

وذات يوم حاول الأصدقاء أن يصحبهم في نزهة جميلة، جمعت الزهر والروض والماء والمنظر الخلاب، لكن هذا القارئ اعتذر لأن عنده ما يشغله، وقد عجبت لرفضه صحبة إلى مثل هذه التزهة التي يتهافت عليها الكثيرون فألهمني ذلك أبياتاً أهديتها إليه، فطار بها فرحاً وقال حسبي هذا من دنياي، وفي هذه الأبيات أقول حاكياً رفضه:

قال الأنيق وصوته متمكن ... الحسن في ديني وفي قرآني

أبليت فيه العمر أحفظ آيه ... أعطيه من روحي ومن وجداني

وطوف بين رياضه أجني المنى ... لي من هداه في الدجا نوران

قد ذقت فيه باللسان حلاوة ... فملأت منها مهجتي وكياني

ورأيت فيه عطاء ربي بارزاً ... ووجدت في عصمتي وأماني

وصـــــحبت فيـــــه نخبـــــة ممتـــــازة ... فـــازوا بحســـــن الأجـــور والرضــــوان

ووقفــت فيــه علــى الأولى تركــوا الهــدى ... رغـــــم النـــــذير وواضـــــح التبيـــــان

عُلِّمْــــتُ فيـــه مـــن الحكـــيم مـــداركا ... دقـــــت فوائـــــدها علـــــى الأذهـــــان

أرأيـــت خـــيراً مـــن كـــلام مصـــوري ... أرأيـــت أعـــذب مـــن جـــنى الـــرحمن؟

أرأيـــت أصـــدق مـــن مقالـــة خـــالق ... منشــــي الوجــــود وبارئ الأكــــوان؟

أرأيـــت جبريـــل الأمـــين مـــردّدا ... في قلـــب طـــه ســـورة الإنســـان؟

أرأيـــت فيـــه محمَّداً يســـري بـــه ... حيـــث اللقـــاء بمعقـــل الإخـــوان؟

في بيـــت مقدســـه يـــزف إلى العـــلا ... في النـــور لم تطـــرف لـــه عينـــان

أسمعـــت نجـــواه الحبيـــب لربـــه ... أرأيـــت كيـــف تطـــامن الـــثقلان؟

إن رحـــت أذكـــر مـــا حـــواه كتابـــه ... جـــلّ الكتـــاب وذبـــت في الأركـــان

الأستاذ الدكتور/ محمَّد كمال جعفر

نظرة في

مقاصد القرآن الكريم

إعداد

فضيلة الأستاذ الدكتور

عبد الفتاح عبد الله بركة

جامعة قطر

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب، عبرة لأولي الألباب، ما كان حديثاً يفترى، لكن تصديق الذي بين يديه، وتفضيل كل شيء، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون.

والصلاة والسلام على المبعوث بالكتاب المبين رحمة للعالمين، وهدى وبشرى للمؤمنين، كم يصعب على من يريد الحديث عن مقاصد القرآن الكريم أن يجمع همته ويشحذ فكرته لكي يقدم في هذا الميدان، أو يستبق على هذا المضمار، ومنشأ الصعوبة أن القرآن الكريم محيط زاخر العباب، متشابك الشعاب، محتبك الأطراف، متداخل الألفاف، محكم الآيات، مفصل البينات، لا توجد فيه آية بغير مقصد، ولا جملة إلا ولها غاية، كل ذلك في نسيج محكم تتماسك فيه المقاصد وتتساند، وتمتزج فيه الغايات وتتعاضد، فإذا به رفيع الأركان، متلاحم البنيان، مراح الأبصار والبصائر، مسرى الأسرار، تخشع أمام ساحته المنيعة الأفكار، وتخضع عند ساحله العقول والألباب، فلا ينال منه مستميح إلا على قدر إنائه، ولا يعي منه إلا على سعة وعائه، وهو على ذلك مورد لا يكف عن عطائه لكل وارد، ومصدر لا يمنع رفده لكل وافد، معين لا ينضب، ومدد لا ينفد، ﴿ قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ .

من أجل ذلك لم يكن من اليسير إلا أن نستلهم القرآن نفسه، فنغترف منه على قدر ما نستطيع نحن من جانب، ثم على قدر ما يسعه هذا المجال من جانب آخر، وسوف نجتزئ من هذه الآيات بما يسمح به المقام.

ففي أول لسورة التالية لفاتحة الكتاب نجد قوله تعالى: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٢﴾ ﴾ وفيها يقول: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ﴾ البقرة.

وفي سورة آل عمران التالية لها نجد قوله تعالى: ﴿ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ ﴾ آل عمران.

وفي سورة المائدة يقول جل شأنه: ﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ المائدة 15، 16.

وفي سورة الأعراف يقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَٰهُم بِكِتَٰبٍ فَصَّلْنَٰهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥٢﴾﴾ الأعراف 52.

وفي أول سورة إبراهيم يقول عز وجل: ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ﴿١﴾﴾ إبراهيم.

وفي سورة النحل يقول تبارك وتعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾ النحل 89.

وفي سورة الإسراء نجد قوله عز من قائل: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ الإسراء 9.

ولسنا نريد أن نستقصي، فالقرآن مليء بهذه الآيات التي تعرف بمقاصد القرآن على الإجمال مرة، وعلى التفصيل أخرى، وبذكر الكتاب والقرآن نصا وتصريحا، أو بذكره شرحاً وتوضيحاً، أو بذكره إشارة وتلويحاً، ولذلك نكتفي في هذه البداية بتلك الآيات التي تبين المقصد العام الإجمالي من هذا القرآن، وفي أنه هدى، وهدى للناس، وهدى للمتقين، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين، ويهدي للتي هي أقوم، ويهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه، ويهديهم إلى صراط مستقيم، ويخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد.

ومقتضى ذلك أن البشرية كانت في متاهتها إلى طريق مسدود لم تعد تبصر فيه ضياء، أو ترى لها منه مخرجاً، وأن الأكثر في الأكثرين لم يكونوا يشعرون بما فيه من ضلال، لكثرة الفهم له واعتيادهم عليه، فاستمرءوا العجز، وتطامنوا للعمى، وأن الأقل من الأقلين هم الذين كانوا يستشرقون لمطلع فجر جديد، ويترقبون بزوغ شمسه، شاعرين بثقل التيه الذي يرزحون تحته، واعين لمقدار عجزهم عن التخلص منه، والتحرر من ربقته، فهم ينتظرون في شوق من ينتشلهم من وهدته، وينير لهم طريق هدايته.

ذلك أن البشرية عاجزة بفطرتها عن أن تستفيد بذاتها في معرفة طريق الهدى، لكي تسلكه، وتسبر فيه إلى مداه بل إنها في أكثر أحوالها تنحرف به عندما يتضح لها بنور الله، فهي واقعة بين أمرين: عجز فطري يقعد بها عن سبيل الهدى إذا احتجب عنها نور الوحي وهداية السماء، وضعف في الهمة والإرادة يسمح لها أن تنحرف عن هذا النور وتحرف في هذا الوحي تسمح به إرادة الله.

لهذا كانت البشرية تهيم في أودية شتى من الضلال، ضلال أصيل يعود إلى العجز البشري الفطري، وضلال مرضي يعود إلى نكوص البشر عن الحق الذي اهتدوا إليه، والانحراف عنه، والتحريف فيه.

فوجدنا أفكاراً شتى، ومذاهب مختلفة، وملاً متعارضة، ونحلاً متناقضة، وفلسفات يضرب بعضها بعضاً، تعود في تضاربها وتناقضها إلى ضلة العقل وقصوره، وحيرته في شهاب النظر ودربه، ووجدنا أدياناً أسستها يد العناية الإلهية، فحرفتها يد الغواية البشرية، وطمست أنوارها يد الهوى الشيطانية، فكان هنالك الوثنيون والمشركون الذين اتخذوا آلهتهم صراحة من دون الله، وكان هنالك المحرفون الذين يعترفون بالإله الواحد، ولكنهم يضعون له مفاهيم من عند أنفسهم، متلونة بأهوائهم وأغراضهم، ما أنزل الله بها من سلطان، فإذا بها مفاهيم محدودة بحدود بشرية، وتصورات بشرية، سبحانه وتعالى عما يصفون.

والمساحة التي تشعب فيها هذا الضلال مساحة واسعة، تشمل أديان: الصين والهند والفرس والعرب بما فيها من وثنيات وشركيات تتردى في حمأة التعبد لما يتمثل لهم في صورة الكواكب والنجوم، أو في صورة الأشجار والآبار والأنهار، أو في صورة الحيوانات والنباتات، أو في صورة النيران، إلى أصنام صنعوها بأنفسهم، ونحتوها بأيديهم، كما تشمل أدياناً أخرى في بلاد الروم، وما جاورها أو خضع لها، بما فيها من يهودية، ونحل مسيحية متعددة.

وليست المسألة في اختلاف العقائد وضلالها بالمسألة الهينة، ذلك لأنها هي الأساس الذي ينبني عليه تصور الإنسان لهذه الحياة، فنظرته إلى الكون في مجموعة بصورة عامة، ونظرته الإنسانية كمجتمع إنساني واسع، ونظرته إلى مجتمعه الخاص الذي يعيش فيه كأسرة أو قبيلة أو شعب، ونظرته إلى نفسه كذات لها كيانها الخاص وشخصيتها المستقلة، كل ذلك مبني على أساس تلك العقيدة، فإذن كان فيها على نور وهدى، استقام تصوره لهذه الحياة، ولهذه النواحي من هذه الحياة، واستقام هدفه فيها، فاستقام سلوكه، واعتدلت موازينه، أما إذا انحرفت عقيدته، وزاغت فطرته، فقد انحرف كل شيء في تصوره بالنسبة لهذه الحياة، وهذه النواحي جميعها من هذه الحياة انحرفاً لا يسهل استدراكه، ولا يرجى اعتداله فتضرب شؤونه، وتضيع نفسه في متاهات الضلال دون هدف صحيح يرجى، ولا أمل طيب يرتقب.

وفي مجتمع كهذه المجتمعات التي تسودها الجاهلية العمياء، يستبعد الإنسان فيها نفسه لأوهام، ما أنزل الله بها من سلطان، فيقع فريسة العبودية الفكرية حتى لا يمكنه التفكير بنفسه لنفسه، وإنما يتبع فيها التقاليد والعادات، ومواريث الآباء والأجداد، مهما بدا عوارها، وثقلت عليه آصارها، وعجزا عن الاستقلال في التفكير، وجموداً على ما استقر في المجتمع من نظم ومفاهيم، ويقع فريسة العبودية العقلية، فتسيطر على عقله الخرافات، وتهيمن عليه الأساطير والحكايات، فيفسر على ضوء هذه الترهات كل ما يحيط به من ظواهر الطبيعة والكائنات، ويقع فريسة العبودية الاجتماعية، حيث تخضع عواطفه ومشاعره لتوجيهات عرقية، ونعرات عصبية، تهدر فيها حياته المادية وكرامته الأدبية، ويقع فريسة العبودية الإدارية حيث يستبد به السادة المستكبرون، والحكام المتجبرون، فيفرضون عليه ذلة العبودية للبشر، واستكانة الخضوع والقهر للظلمة والمفسدين، وبالجملة تفسد الحياة كلاًّ وأجزاءً، وتضطرب إجمالاً وتفصيلاً.

ولقد كانت الحياة الإنسانية قبل نزول القرآن على هذه الصورة من الضلال والفساد، وكانت حاجتها إلى الهداية والنور كحاجة الهائم في البيداء المشرف على الهلاك من العطش إلى واحة ظليلة ترد لهفته وتروي غلته وتبقي عليه رمقه.

ولهذا كان من أهم وأول المقاصد التي يمكن أن يتم بها الهدى تصحيح العقائد بإبطال وإظهار زيفه وبهتانه، وإقرار الحق، وإحلاله مكان هذا الركام من العقائد الباطلة.

وكان من أهم المقاصد وأولها التي يمكن بها بقاء الهدى، وحمايته: تكوين المجتمع الإسلامي الذي ترتبط وشائجه ارتباطاً لا ينفصم بعقدة الحق وعقائده.

وتحت كل مقصد من هذين المقصدين الرئيسين تترتب مقاصد كثيرة كل منها يستحق الكثير من العناية والكثير من التحقيق والتقرير.

أما في باب العقيدة، فهناك مجالات متعددة قصد القرآن الكريم إلى معالجتها جميعاً حتى تستقيم العقيدة في صورتها العامة المتكاملة، لقد كان هنالك فساد في تصور العقائد في مجال الألوهية، ثم في مجال الوحي والنبوة، ثم في تصور حقيقة وجودنا ومعناه في هذه الحياة الدنيا، ثم في الفكرة عن الحياة الآخرة.

فإذا تم التوصل إلى إقرار هذه الهدف أمكن التقدم إلى صياغة المجتمع الإسلامي الذي ينبني على أساس العقيدة السليمة والذي تتمثل في علاقاته أتم تمثيل، فيتم عندئذ تبادل الحماية، حيث يقوم هذا المجتمع بحماية عقيدته وجلوتها بمراعاتها في كل علاقاته الداخلية والخارجية، وتقوم هذه العقيدة بحراسة مجتمعها بعوامل التماسك والتكامل أفراداً وطوائف وجماعات من خلال هذه العلاقات.

أما تصحيح العقيدة في مجال الألوهية، فلقد كان هنالك إسراف وغلو في نسبة الألوهية إلى غير أهلها، إما بجعلهم شركاء أو بجعلهم شفعاء أو بجعلهم بنات وأبناء، والله سبحانه وتعالى غني عن العالمين.

وقد ناقش القرآن هذه القضية متسائلاً عن صاحب الملك والخلق والتصرف، وأخذ إ قرار الجميع على أنه هو الله، ثم سجل عليهم جميعاً هذا الإقرار، ثم ناقشهم بعد ذلك في قضية التسوية بين صاحب الحق في ذلك كله وبين من لا يملك شيئاً من ذلك كله، كما ناقشهم في مصدر زعمهم أنهم لهم شفعاء، إن كان الله قد أذن بذلك أو أنزل به سلطاناً، ثم ناقشهم في موضوع اتخاذه بنات أو أبناء، فلم يدع لأي دعوى من هذه الدعاوي أي سند من العقل أو الوحي، ولم يبق أمامهم إلا أن تكون هذه مواريث الآباء والأجداد، وأن يجادلوا بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير.

من ذلك قوله تعالى في سورة يونس: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَمَن يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ وَمَن يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ ٱللَّهُ ۚ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٣١﴾ ﴾ سورة يونس 31.

وقوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿ قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ ۚ قُلْ فَأَنَّىٰ تُسْحَرُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ آيات 84، 89.

وقوله جل شأنه في سورة النمل: ﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ۗ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾ أَمَّن يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾ قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ آيات من 59، 65.

ولقد قرر القرآن أنه لا يسع عاقلاً أن يجيب على مثل هذه التساؤلات بغير هذا الجواب، لهذا قرر جوابهم في غير ما آية من غير أن ينتظره منهم، فقال سبحانه: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٦١﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿٦٢﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ الآيات: 61: 63.

وكرر مثل هذه الصور في آيات متعددة مثل ما في سورة لقمان والزمر والزخرف.

ولقد كانت الجزيرة العربية تحتفظ لإبراهيم عليه الصلاة والسلام ودينه باحترام كبير وتقديس عظيم، وإن انطمست لديهم معالم دينه ودرست كثير من سماته، كما كان اليهود ينتسبون إليه، ويزعمون أنهم أولى الناس به، وكانت المسيحية تمت إليه بسبب أو بآخر باعتبار ظهورها في بني إسرائيل، ومع ادعائهم هذه الدعوى لم تكن طائفة منهم تقبل ما عليه الآخرون، حتى هؤلاء الوثنيون عباد الأصنام، فإنهم لم يكونوا ينظرون إلى اليهودية والمسيحية من حولهم باعتبار أنها أديان صحيحة أو باعتبار أنها قد احتفظت من دين إبراهيم بعناصر مؤكدة سليمة، فنظروا إليها بترفع وكبرياء، لذلك كانت تجلية موقف إبراهيم وإظهار عقيدته يناسب تحقيق المقصد الأول من تصحيح العقيدة، خاصة في باب الألوهية، فهو يصلح رداً على الجميع من جانب، كما يصلح إظهاراً للحق في ذاته على لسان إبراهيم عليه السلام من جانب آخر، ففي سورة الأنعام مثلاً يناقش عقيدة عباد الكواكب، ويظهر فسادها، ويعلن التبرؤ منها. يقول تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ نُرِيٓ إِبۡرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلۡمُوقِنِينَ ٧٥ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيۡهِ ٱلَّيۡلُ رَءَا كَوۡكَبٗاۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلۡأٓفِلِينَ ٧٦ فَلَمَّا رَءَا ٱلۡقَمَرَ بَازِغٗا قَالَ هَٰذَا رَبِّيۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمۡ يَهۡدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡقَوۡمِ ٱلضَّآلِّينَ ٧٧ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمۡسَ بَازِغَةٗ قَالَ هَٰذَا رَبِّي هَٰذَآ أَكۡبَرُۖ فَلَمَّآ أَفَلَتۡ قَالَ يَٰقَوۡمِ إِنِّي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ ٧٨ إِنِّي وَجَّهۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ حَنِيفٗاۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٧٩ ﴾ آيات 75، 79.

ففي مثل هذه الآيات نرى إبراهيم عليه السلام – وهو الذي يزعم الجميع أنهم ينتسبون إليه – يبطل عبادة الهياكل والكواكب، ويبين أنها مسخرة مقدرة بسير معين ووقت محدد، لا تملك لا لنفسها ولا لغيرها تصرفاً، فكيف تصلح مثل هذه الأجرام لوصف الألوهية.

وفي سورة الأنبياء –كما في غيرها – يناقش إبراهيم عليه الصلاة والسلام عقيدة عباد الأوثان والأصنام، فلا يدع فرصة لرد أو لجواب، إلا أن يواجههم بالقسوة والعذاب، وهو يعلن براءته من كل شيء دون الله، يقول تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ ءَاتَيۡنَآ إِبۡرَٰهِيمَ رُشۡدَهُۥ مِن قَبۡلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ ٥١ إِذۡ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوۡمِهِۦ مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمۡ لَهَا عَٰكِفُونَ ٥٢ قَالُواْ وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا لَهَا عَٰبِدِينَ ٥٣ قَالَ لَقَدۡ كُنتُمۡ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمۡ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ٥٤ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا بِٱلۡحَقِّ أَمۡ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ٥٥ قَالَ بَل رَّبُّكُمۡ رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ ٱلَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا۠ عَلَىٰ ذَٰلِكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ٥٦ وَتَٱللَّهِ

لَأَكِيدَنَّ أَصْنَٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّوا۟ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾ فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ
يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ
يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾ قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا
بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾ قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾
فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾ ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا
هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾ قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ
﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾ قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن
كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ
ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ آيات 51-70.

في مثل هذه الآيات نرى إبراهيم عليه السلام – وهو الذي يزعم الجميع أنهم ينتسبون إليه – يبطل عبادة الأوثان والأصنام بأسلوب ملزم غاية في الإقناع، ومع ذلك فهو غاية في السخرية واستفزاز العقول للتفكير الحر المنظم حتى إذا انتفت صفة الألوهية عن كل هذه المعبودات الزائفة، لم يبق أمام الجميع إلا الله وحده.

وفي سورة البقرة يناقش المتأهلين من البشر الذين غرهم سلطانهم وجبروتهم: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى
حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا
أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى
كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾ ﴾ آية 258.

أما تصحيح العقيدة عن النبوة والرسالة، فعلى الرغم من أنه لم تخل بقعة من الأرض من أديان، وأن كثيراً من هذه الأديان ينتسب إلى أنبياء خاصة اليهودية والنصرانية، وخاصة ما تذكره يهود عن أنبياء بني إسرائيل، وأن كثيراً من حنفاء العرب كان ينتظره نبوة قريبة، ويتهيأ في نفسه لاستقبالها، ويتمناها ويتعرض لها، إلا أن التصور العام عن النبوة وعن الأنبياء لم يكن واضحاً أو متزناً.

أما انتظار بعض العرب لهذا النبي وترقبه، فكما روي عن أمية بن أبي الصلت في حديث بينه وبين أبي سفيان قال أمية: إني كنت أجد في كتبي نبياً يبعث من حرتنا هذه، فكنت أظن، بل كنت لا أشك أني

أنا هو، فلما دارست أهل العلم إذا هو من بني عبد مناف، فنظرت في بني عبد مناف فلم أجد أحداً لهذا الأمر غير عتبة بن ربيعه، فلما أخبرتني بسنه عرفت أنه ليس هو حين جاوز الأربعين ولم يوح إليه.

قال أبو سفيان: فضرب الدهر ضربة فأحي إلى رسول الله ﷺ وخرجت في ركب من قريش أريد اليمن في تجارة، فمررت بأمية فقلت له كالمستهزئ به: يا أمية، قد خرج النبي الذي كنت تنعته، قال: أما إنه حق فاتبعه، قلت: ما يمنعك من اتباعه: قال: ما يمنعني إلا الاستحياء من نساء ثقيف، إني كنت أحدثهن أني هو ثم يريني تابعاً لغلام من بني عبد مناف!!

وقد روى القرآن الكريم بعضاً من هذه التصورات الفاسدة عن النبوة والوحي، في مختلف الأمم، في أمة العرب وفي الأمم السابقة.

يظهر ذلك في قول نوح عليه السلام: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُواْ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ ﴾ الأعراف 63، ذلك أنهم قالوا له: ﴿ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ ٱلرَّأْيِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾ ﴾ هود 27، وقالوا: ﴿ مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَن يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَنزَلَ مَلَٰٓئِكَةً مَّا سَمِعْنَا بِهَٰذَا فِيٓ ءَابَآئِنَا ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٤﴾ ﴾ المؤمنون 34، وكذلك نرى الأمر بالنسبة لهود عليه السلام وهو يقول لقومه: ﴿ أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ﴾ الأعراف 69، لذلك أنهم قالوا له: ﴿ مَا جِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِيٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ وَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٥٣﴾ إِن نَّقُولُ إِلَّا ٱعْتَرَىٰكَ بَعْضُ ءَالِهَتِنَا بِسُوٓءٍ ﴾ هود 53-54، وكذلك قالت ثمود لصالح عليه السلام: ﴿ قَدْ كُنتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَٰذَآ ﴾ هود 62، ﴿ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ الشعراء 154، وكذلك فعلت مدين مع شعيب عليه السلام حيث قالت له: ﴿ قَالُواْ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾ ﴾ هود 87، وقالت له: ﴿ يَٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَىٰكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَٰكَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾ ﴾ هود 91، وقالوا له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ

إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا ﴾ ﴿ وَمَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَإِن نَّظُنُّكَ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿١٨٦﴾ فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ الشعراء.

وهكذا سوف نجد داء هذه الأمم في تصورهم عن النبوة والوحي، وكيف يشق على نفوسهم وعقولهم أن يتقبلوا النبوة في البشر، مع أنه لم يثبت أن جاء إلى أمة من الأمم نبي من الملائكة، ووقر في عقولهم ونفوسهم أن يخلطوا بين النبوة والألوهية فطالبوا الأنبياء بأن يقدموا لهم من المعجزات ما يريدون وقت ما يريدون، وإذا كان مثل هذا الطلب في مقام الألوهية من إساءة الأدب وعدم توقير الألوهية وقدرها حق قدرها، فإنه في مقام النبوة سوء إدراك وعدم فهم لمنصب النبوة على قدره وشرفه. وظل الأمر على ذلك حتى ردد مشركو العرب وغيرهم مثل ذلك بالنسبة لرسول الله ﷺ، وحكى القرآن الكريم عنهم ذلك في كثير من الآيات، وقد ناقش القرآن ذلك كله على ألسنة الأنبياء السابقين في جوابهم لأقوامهم، وأعاد مثل هذه المناقشة مع هؤلاء وفقا لأقاويلهم وتخرصاتهم.

منذ لك ما حكاه في سورة الإسراء: ﴿ وَقَالُواْ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا ﴿٩٠﴾ أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ ٱلْأَنْهَٰرَ خِلَٰلَهَا تَفْجِيرًا ﴿٩١﴾ أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِٱللَّهِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ قَبِيلًا ﴿٩٢﴾ أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَىٰ فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّىٰ تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَٰبًا نَّقْرَؤُهُۥ ۗ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٣﴾ ﴾ آيات 90-93، ومثل هذه المطالب لمثل هذه الآيات إنما ينشأ عن تصور فاسد لحقيقة الرسول فيتصورونه قديراً على كل شيء وأنه يفعل ما يشاء حين يشاء، وهم يعلمون أنه بشر، لا يشكون في ذلك، ولكنه حين يظهر أمامهم في صورة نبي يخلطون بين صورته البشرية كرسول وتصورهم لحقيقة من أرسله كإله، أو على أقل تقدير كملك موكل من ملائكة الله، فالأزمة عندهم أنه بشر، ولهذا عقب القرآن على هذه الآيات بقوله: ﴿ وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓاْ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ ﴾ الإسراء 94.

ويروي لنا القرآن الكريم مثل هذا التصور عنهم في سورة الفرقان: ﴿ وَقَالُواْ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي ٱلْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُۥ نَذِيرًا ﴿٧﴾ أَوْ يُلْقَىٰٓ إِلَيْهِ كَنزٌ أَوْ تَكُونُ لَهُۥ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا ۚ وَقَالَ ٱلظَّٰلِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا

مَّسْحُورًا ﴿٨﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا۟ لَكَ ٱلْأَمْثَالَ فَضَلُّوا۟ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلًا ﴿٩﴾ ﴾ الفرقان 6-9.

وقد تمسكوا أن يخاطبهم الله مباشرة، فإن لم يتمكنوا من ذلك فليكن رسولهم من الملائكة، فإن لم يكن كذلك فليكن مع الرسول البشري رسول ملكي، فإن لم يكن كذلك فليأتهم من الآيات بما يظلون يخترعونه ويبتكرونه من معجزات، فإن لم يكن كذلك أعرضوا، وإن أتاهم ببعض هذه الآيات أعرضوا كذلك، وسنة الأمم السابقة تدل على هذه النتيجة فكم من نبي أتى لقومه بآيات ما آمنوا بها حتى أهلكهم الله وأخذهم.

وإجابات القرآن الكريم عن مثل هذه التخرصات كثيرة متنوعة، وحكاياته لهذه التعاملات أيضاً مثيرة للنظر والتأمل في هذا العناد والاستكبار والمكابرة.

أنظر لقوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ۖ وَلَا تُسْـَٔلُ عَنْ أَصْحَٰبِ ٱلْجَحِيمِ ﴿١١٩﴾ ﴾ البقرة 118-119.

ولمثل قوله تعالى: ﴿ ۞ وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ﴿٢١﴾ يَوْمَ يَرَوْنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ لَا بُشْرَىٰ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُجْرِمِينَ وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَّحْجُورًا ﴿٢٢﴾ ﴾ الفرقان 21-22.

ولقوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا۟ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِى نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ ﴿٦﴾ لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧﴾ مَا نُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَمَا كَانُوٓا۟ إِذًا مُّنظَرِينَ ﴿٨﴾ ﴾ الحجر 6-7.

أما عن بشرية الرسول ﷺ واعتبراهم عندهم مناط رفضه وعدم الإيمان به والتعلل بضرورة كونه ملكاً، فقد أمر رسول الله ﷺ أن يؤكد لهم كونه بشراً في قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ ، وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَىَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ﴾ فصلت 6.

وقد أكد الله تعالى هذه الحقيقة ودافع عنها بأنه لا ينبغي أن يكون الرسول إلى البشر إلا من البشر، ولو كان ملكاً لتصور لهم في صورة البشر والتبس الأمر عليهم، فلا فائدة لهم عندئذ من كونه ملكاً، كما لو كان الأمر لو كان المرسل إليهم ملائكة، إذن لكان رسولهم من الملائكة، يقول تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ ۖ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِىَ ٱلْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾﴾ الأنعام 8-9.

وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ ٱلنَّاسَ أَن يُؤْمِنُوٓا۟ إِذْ جَآءَهُمُ ٱلْهُدَىٰٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓا۟ أَبَعَثَ ٱللَّهُ بَشَرًا رَّسُولًا ﴿٩٤﴾ قُل لَّوْ كَانَ فِى ٱلْأَرْضِ مَلَٰٓئِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَلَكًا رَّسُولًا ﴿٩٥﴾﴾ الإسراء 94-95.

ولقد تمادوا في مكابرتهم فزعموا أن الوحي لا يمكن أن يتصل بالبشر بزعم عدم المناسبة بين المقامين، فأنزل الله يناقش هذه الفرية ويرد عليها بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ﴾ الأنعام 91، ثم بين لهم في آيات متعددة أنه لم يسبق أن أرسل إلا بشراً، فقال في سورة النحل: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ ۗ﴾ 43، 44، وقال كذلك: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۖ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٧﴾ وَمَا جَعَلْنَٰهُمْ جَسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ ٱلطَّعَامَ وَمَا كَانُوا۟ خَٰلِدِينَ ﴿٨﴾﴾ الأنبياء 7، 8، وأكد ذلك بوصف الرسل السابقين بأوصاف لا تتفق مع طبيعة الملائكة مبيناً أن رسولنا ﷺ ليس بدعاً من دونهم، فقال في سورة الرعد: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ﴾ 38، وقال كذلك: ﴿وَقَالُوا۟ مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ ۙ﴾ الفرقان 20، إلى غ ير ذلك من الآيات التي تؤكد ببشرية الرسل السابقين جميعهم، واتصافهم بالصفات البشرية التي تمنع كل شبهة في أن يظن بهم أحد عنصراً إلهياً أو عنصراً ملائكياً، فما العجب إذن أن يكون رسولنا ﷺ بشراً مثلهم يوحي إليه كما أوحي إليهم!؟

فإذا انتقلنا إلى طلبهم للآيات فإنه أظهر تعسفهم في طلبها من جانبين:

الأول: أنهم يظنون أن الرسول ينبغي أن يكون قادراً على إظهار المعجزات، وتنفيذ ما يقترفونه من آيات وإلا كانوا معذورين في رفضه وعدم الإيمان به، وهذا التصور فاسد، يرجع فساده إلى عدم إيمانهم برسالة البشر، أو بشرية الرسول، وقد سبق أن أكد لهم أنه لم يرسل إلا بشراً.

الثاني: أنهم لم يكونوا يطلبون من الآيات ما يتناسب مع موضوع الرسالة ليتأكدوا من صدق الرسول في رسالته، وإنما كانوا يطلبون ما يطلبونه استهزاء وجدلاً ومماراة، دون جدية في البحث وطلب المعرفة مع سبق عزمهم وقصدهم إلى التكذيب مهما تكن نتائج الجدل والمماراة.

أما عن الجانب الأول فقد أكد بشرية الرسول وأن مهمته ليست إلا أن يكون بشيراً ونذيراً، وأن أمر الآيات مرجعه إلى الله وحده، وأن أي رسول لا يستطيع أن يأتي بآية من تلقاء نفسه، وإنما بإذن الله وحده من ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ﴾ يونس 20، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾ الرعد 7، وقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ الرعد 27، وقوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۖ قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٥٠﴾﴾ العنكبوت 50، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ﴾ الرعد 38. ومثلها في سورة غافر 78.

ولقد كان الرسول ﷺ يؤمر حين تطلب منه الآيات والمعجزات أن يعلن للجميع أنه لايملك شيئاً مما ينسبونه – جهلاً منهم – إلى المرسلين مما يخرج بهم عن حدود بشريتهم وعبوديتهم لربهم، من ذلك ما ذكره في سورة الأنعام: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾ 37، وبعد أن يبين كثيراً من الآيات التي يغفلون عنها ويحذرهم وينذرهم يجيب على هذا الطلب بقوله: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۖ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾﴾ 48-50، ومثل قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى

ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ لَا تَأۡتِيكُمۡ إِلَّا بَغۡتَةٗۗ يَسۡـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنۡهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا عِلۡمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ١٨٧ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُۚ إِنۡ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٞ وَبَشِيرٞ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ١٨٨ ﴾ الأعراف 187-188.

وأما عن الجانب الثاني فقد عالج فيه حقيقة نفوسهم ومشاعرهم، ووضعهم في وضعهم الصحيح من سنن الله الاجتماعية، شأنهم في ذلك شأن الأمم السابقة عليهم، فهم يطلبون الآيات فإذا تأخرت عليهم تعللوا وتمسكوا على رسولهم جدلاً ومماراة، فإذا أتاهم بآية وقفوا موقف الإعراض، وتعللوا بكثير من التعليلات، واتهموا رسولهم بالسحر المبين، أو طلبوا أن تجري الآية على أيديهم، وأن يشاركوا رسل الله فيما يوحي إليهم من وحيه، ولعلهم يعرضون عن ذلك إلى الغلو في طلب آيات أخرى بعيدة كل البعد عن طلب الحق والتعرف عليه، حتى يصل الأمر بهم أحياناً إلى طلب الحق والتعرف عليه، حتى يصل الأمر بهم أحياناً إلى طلب الآية في صورة الهلاك والدمار، ومثل هذه المناقشات كثير في القرآن الكريم، نجتزئ منه بما يسعه هذا المجال مما يبين أن مقصدهم في النهاية هو التخلص من الإيمان على أفئدتهم وأبصارهم كما أم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم أي صورة من الصور، سواء رأوا الآيات أو لم يروها، ولو انصفوا لرأوا الكون كله معرض آيات لا تحصى، انظر إلى قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا لَمۡ تَأۡتِهِم بِـَٔايَةٖ قَالُواْ لَوۡلَا ٱجۡتَبَيۡتَهَاۚ قُلۡ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّيۚ ﴾ الأعراف 203، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ نَزَّلۡنَا عَلَيۡكَ كِتَٰبٗا فِي قِرۡطَاسٖ فَلَمَسُوهُ بِأَيۡدِيهِمۡ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ ٧ ﴾ الأنعام 7، وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ١٤ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ١٥ ﴾ الحجر 14، 15، وقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا رَأَوۡاْ ءَايَةٗ يَسۡتَسۡخِرُونَ ١٤ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٌ ١٥ ﴾ الصافات 14، 15، وقوله تعالى: ﴿ ٱقۡتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلۡقَمَرُ ١ وَإِن يَرَوۡاْ ءَايَةٗ يُعۡرِضُواْ وَيَقُولُواْ سِحۡرٞ مُّسۡتَمِرّٞ ٢ ﴾ القمر 1، 2، ولذلك فقد حكم عليهم بأنهم لا يرغبون في الإيمان، حتى من بعد ما يرون الآيات يقول تعالى: ﴿ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلۡأَوَّلِينَ ٢٥ ﴾ الأنعام 25، ويقول جل شأنه: ﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَتۡهُمۡ ءَايَةٞ لَّيُؤۡمِنُنَّ بِهَاۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَمَا يُشۡعِرُكُمۡ أَنَّهَآ إِذَا جَآءَتۡ لَا يُؤۡمِنُونَ ١٠٩ وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ

يُؤْمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُواْ لِيُؤْمِنُوٓاْ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ الأنعام 109 – 111، ولقد بين القرآن الكريم أن تلك هي سنة الأمم السابقة مع رسلهم، فليس هذا الموقف بغريب على مثل هذه الأفكار المتشابهة والقلوب المتماثلة، يقول تعالى: ﴿ تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ بِمَا كَذَّبُواْ مِن قَبْلُ ۚ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٠١﴾ ﴾ ألأعراف 101، ويقول سبحانه: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا ٱلْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُواْ وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَمَا كَانُواْ لِيُؤْمِنُواْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ يونس 13، ويقول عز وجل: ﴿ بَلْ قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ بَلِ ٱفْتَرَىٰهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِـَٔايَةٍ كَمَآ أُرْسِلَ ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٥﴾ مَآ ءَامَنَتْ قَبْلَهُم مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَآ ۖ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ ﴾ الأنبياء 5-6.

ولقد روى القرآن الكريم في آيات أخرى عن موقف الأمم مع رسلهم وأنبيائهم حين طلبوا الآيات متعنتين، وموقفهم بعد أن جاءتهم الآيات حين جحدوا وأنكروا، واستكبروا وأعرضوا، وكيف أصابهم بسبب ذلك العذاب والهلاك، من ذلك ما رواه في صور عديدة ذات ألوان وظلال مختلفة عن موسى عليه السلام وما قدمه من آيات أمام فرعون وقومه، وكذلك الأمر بالنسبة لصالح وشعيب وعيسى وغيرهم عليهم السلام، بل وصل الأمر بهم إلى حد أن يطلبوا الهلاك، كما فعلت مدين مع شعيب عليه السلام حين قالت له: ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ مِنَ ٱلْمُسَحَّرِينَ ﴿١٥٣﴾ مَآ أَنتَ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُنَا فَأْتِ بِـَٔايَةٍ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٥٤﴾ ﴾ الشعراء 185-187، وقد فعل هؤلاء مثل ذلك مع رسولنا ﷺ ي قول تعالى: ﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا قَالُواْ قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣١﴾ وَإِذْ قَالُواْ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأنفال 31-32.

ولقد كان ﷺ حريصاً على قومه أشد الحرص، يتمنى أن لو اهتدوا إلى الحق، لكنه ﷺ لا يملك إلا الامتثال لأمر ربه، فكان القرآن ينل عليه بجوابهم مرة مثل قوله تعالى: ﴿ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ ۚ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ ۖ وَهُوَ خَيْرُ

ٱلۡفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوۡ أَنَّ عِندِي مَا تَسۡتَعۡجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۗ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾ ﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿ وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِۚ وَلَوۡلَآ أَجَلٞ مُّسَمّٗى لَّجَآءَهُمُ ٱلۡعَذَابُ وَلَيَأۡتِيَنَّهُم بَغۡتَةٗ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ﴿٥٣﴾ يَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلۡعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ العنكبوت 53-54، وبمواساة الرسول ﷺ وصرفه عن هذا الضيق مرة أخرى بمثل قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٞ نَّفۡسَكَ أَلَّا يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾ ﴾ ﴿ إِن نَّشَأۡ نُنَزِّلۡ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ءَايَةٗ فَظَلَّتۡ أَعۡنَٰقُهُمۡ لَهَا خَٰضِعِينَ ﴿٤﴾ ﴾ الشعراء 3-4، ومثل قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمۡ عَلَى ٱلۡهُدَىٰۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلۡجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ ﴾ الأنعام 35.

ولقد لفت القرآن الكريم أنظار البشرية جمعاء إلى أن الآيات التي يطلبونها ماثلة أمام الجميع، إن كانوا صادقين في طلب الآيات من أجل الهدى، ومعرفة الحق، فالكون كله ممتلئ بالآيات في جملته وتفصيله، وما عليهم إلا أن يفتحوا أبصارهم، ويتدبروا في خلق السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم، انظر مثلاً في سورة الأنعام، وفيها الكثير من مناقشته في طلب الآيات، كيف يلفت أنظارهم إلى الآيات المحيطة بهم من كل جانب وهم عنها معرضون: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلۡحَبِّ وَٱلنَّوَىٰۖ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَمُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتِ مِنَ ٱلۡحَيِّۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُۖ فَأَنَّىٰ تُؤۡفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلۡإِصۡبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيۡلَ سَكَنٗا وَٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَ حُسۡبَانٗاۚ ذَٰلِكَ تَقۡدِيرُ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ فَمُسۡتَقَرّٞ وَمُسۡتَوۡدَعٞۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَفۡقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيۡءٖ فَأَخۡرَجۡنَا مِنۡهُ خَضِرٗا نُّخۡرِجُ مِنۡهُ حَبّٗا مُّتَرَاكِبٗا وَمِنَ ٱلنَّخۡلِ مِن طَلۡعِهَا قِنۡوَانٞ دَانِيَةٞ وَجَنَّٰتٖ مِّنۡ أَعۡنَٰبٖ وَٱلزَّيۡتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشۡتَبِهٗا وَغَيۡرَ مُتَشَٰبِهٍۗ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثۡمَرَ وَيَنۡعِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمۡ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٩﴾ ﴾ الأنعام 95-99، وفي مثل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿ وَلَوۡ فَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَابٗا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَظَلُّواْ فِيهِ يَعۡرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوٓاْ إِنَّمَا سُكِّرَتۡ أَبۡصَٰرُنَا بَلۡ نَحۡنُ قَوۡمٞ مَّسۡحُورُونَ ﴿١٥﴾ وَلَقَدۡ جَعَلۡنَا فِي ٱلسَّمَآءِ بُرُوجٗا وَزَيَّنَّٰهَا لِلنَّٰظِرِينَ ﴿١٦﴾ وَحَفِظۡنَٰهَا مِن كُلِّ شَيۡطَٰنٖ رَّجِيمٍ ﴿١٧﴾ إِلَّا مَنِ ٱسۡتَرَقَ ٱلسَّمۡعَ فَأَتۡبَعَهُۥ شِهَابٞ مُّبِينٞ ﴿١٨﴾ وَٱلۡأَرۡضَ مَدَدۡنَٰهَا وَأَلۡقَيۡنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتۡنَا فِيهَا مِن كُلِّ

شَيۡءٖ مَّوۡزُونٖ ﴿١٩﴾ وَجَعَلۡنَا لَكُمۡ فِيهَا مَعَٰيِشَ وَمَن لَّسۡتُمۡ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾ وَإِن مِّن شَيۡءٍ إِلَّا عِندَنَا
خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٖ مَّعۡلُومٖ ﴿٢١﴾ وَأَرۡسَلۡنَا ٱلرِّيَٰحَ لَوَٰقِحَ فَأَنزَلۡنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ
فَأَسۡقَيۡنَٰكُمُوهُ وَمَآ أَنتُمۡ لَهُۥ بِخَٰزِنِينَ ﴿٢٢﴾ ﴾ 14-22، وفي مثل قوله تعالى: ﴿ فَسُبۡحَٰنَ
ٱللَّهِ حِينَ تُمۡسُونَ وَحِينَ تُصۡبِحُونَ ﴿١٧﴾ وَلَهُ ٱلۡحَمۡدُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَعَشِيّٗا وَحِينَ تُظۡهِرُونَ
﴿١٨﴾ يُخۡرِجُ ٱلۡحَيَّ مِنَ ٱلۡمَيِّتِ وَيُخۡرِجُ ٱلۡمَيِّتَ مِنَ ٱلۡحَيِّ وَيُحۡيِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ وَكَذَٰلِكَ تُخۡرَجُونَ ﴿١٩﴾
وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٖ ثُمَّ إِذَآ أَنتُم بَشَرٞ تَنتَشِرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنۡ خَلَقَ لَكُم مِّنۡ
أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا لِّتَسۡكُنُوٓاْ إِلَيۡهَا وَجَعَلَ بَيۡنَكُم مَّوَدَّةٗ وَرَحۡمَةً إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَتَفَكَّرُونَ
﴿٢١﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفُ أَلۡسِنَتِكُمۡ وَأَلۡوَٰنِكُمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّلۡعَٰلِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ مَنَامُكُم بِٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱبۡتِغَآؤُكُم مِّن فَضۡلِهِۦٓۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ
لِّقَوۡمٖ يَسۡمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءٗ فَيُحۡيِۦ
بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَآۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦٓ أَن تَقُومَ ٱلسَّمَآءُ
وَٱلۡأَرۡضُ بِأَمۡرِهِۦۚ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمۡ دَعۡوَةٗ مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ إِذَآ أَنتُمۡ تَخۡرُجُونَ ﴿٢٥﴾ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ
كُلّٞ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِي يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهۡوَنُ عَلَيۡهِۚ وَلَهُ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ فِي
ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ الروم 17-27.

والقرآن كثير التنبيه إلى هذه الآيات وإلى غيرها مما يحيط بالإنسان من حوله، ومما يتعلق بالإنسان في أصل خلقته ثم نشأته، ثم في نموه وشيخوخته، وما يهبه الله من ولد وذرية، وليس المراد في هذا المجال الاستقصاء أو حتى الإشارة إلى كل هذه الآيات، لأن ذلك يخرج بنا عن مجالنا، ولكن المراد بيان أن القرآن يلفت الأنظار عن مسائل الجدل والمماراة التي لا طائل وراءها، والتي تجري وراء معجزات وآيات كفر بمثلها الأولون، وكفر بمثلها الآخرون، والتبست عليهم بالسحر، خاصة مع وجود التصميم وسوء القصد إلى عدم الإيمان: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ حَقَّتۡ عَلَيۡهِمۡ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٩٦﴾ وَلَوۡ جَآءَتۡهُمۡ
كُلُّ ءَايَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُاْ ٱلۡعَذَابَ ٱلۡأَلِيمَ ﴿٩٧﴾ ﴾ يونس 96-97.

المراد بيان أن القرآن الكريم يلفت الأنظار إلى الجد في البحث والنظر ولو أنهم كانوا جادين حقاً لكفتهم أدنى آية من آيات هذا الكون الواسع، وكل ما فيه آية تستحق الانتباه والتأمل، ولقد رسم لهم

القرآن المنهج السليم في هذا الكون، ووضع لهم الإطار العام والصراط السوي للتوصل إلى النتائج الضرورية من هذا التأمل، وهو الإيمان الواعي على علم بصيرة.

وهكذا يمكن أن تستقيم النظرة إلى النبوة وإلى الأنبياء، وإلى الرسل والرسالات، وتصبح مسئولية الرسل في التبليغ بشارة ونذارة فحسب: ﴿ فَإِنْ أَعْرَضُوا۟ فَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾ ال شورى 48، ﴿ فَهَلْ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٣٥﴾ ﴾ النحل 35، ﴿ وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٥٤﴾ ﴾ النور 54، والعنكبوت 18.

والرسالة إذن لا تصح أن تخضع للمقاييس البشرية، لأنها لم تكن إلا لإصلاح هذه المقاييس، ولذلك فعندما وضعت رسالة الله في رجل تنطبق عليه كل المقاييس الصحيحة لتحمل الرسالة الإلهية هو: مُحَمَّد ﷺ اعترض عليه المعترضون بمقتضى مقاييسهم الفاسدة: ﴿ وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ ۚ نَحْنُ قَسَمْنَا بَيْنَهُم مَّعِيشَتَهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَتَّخِذَ بَعْضُهُم بَعْضًا سُخْرِيًّا ۗ وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الزخرف 31-32.

ولقد فعل فرعون وقومه مثل ذلك من قبل: ﴿ وَنَادَىٰ فِرْعَوْنُ فِى قَوْمِهِۦ قَالَ يَٰقَوْمِ أَلَيْسَ لِى مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ ٱلْأَنْهَٰرُ تَجْرِى مِن تَحْتِىٓ ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾ فَلَوْلَآ أُلْقِىَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ ﴿٥٣﴾ فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ الزخرف 51-54، ﴿ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ ﴾ إبراهيم 11، و: ﴿ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ ﴾ الأنعام، و: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ ﴿٢﴾ ﴾ النحل.

بهذا تستقر الصورة النقية الصافية للنبوة والأنبياء في أذهان هؤلاء الذين شوهت أفكارهم مفاهيم الجاهلية ومقاييسها.

فإذا انتقلنا إلى التصور عن حقيقة وجودنا ومعناه في هذه الحياة الدنيا وما كان يشوبه من فساد عقلي وعملي جله مفصولاً كلياً عن الفكرة في الحياة الآخرة، وجدنا الأمر يحتاج إلى تلك الهداية التي أتى بها القرآن الكريم وهي مرتبطة كل الارتباط بتلك الهداية التي جاءت في شأن الفكرة عن الألوهية ثم النبوة.

وفكرة الحياة في هذه الدنيا على ما هي عليه، أو على أي صورة تكون عليها، إذا انفصلت عن فكرة صحيحة عن الحياة الآخرة فسدت فساداً لا صلاح فيه في كل جانب وناحية من جوانبها ونواحيها، لهذا ارتبط إصلاح فكرتنا عن حياتنا الدنيا بإصلاح فكرتنا وتوجيهها، إلى حياتنا الأخرى، ذلك أن الذي يتصور أنه لا حياة بعد هذه الحياة، أو أن هنالك حياة مماثلة لهذه الحياة لا يمكن أن يأخذ حياته هذه مأخذ الجد، وإنما يأخذها مأخذ العبث واللهو، وهو في هذا إما أن يسلك سبيل اليأس الذي يظهر في صورة التخلص من هذه الحياة بكل وسيلة سواء بالعزلة أو الترهيب أو الانتحار، أو سبيل اليأس الذي يظهر في صورة الانغماس في كل وسائل اللهو والترف والمتعة دون اعتبار لقيمة إنسانية أو خلق كريم، وبكل صورة من هاتين الصورتين أخذت طائفة من البشر، كهندوسية الهند وبوذيتها، ورهبانية المسيحية وعزلتها، بالنسبة للصورة الأولى، وكعنف اليهودية وماديتها، وقسوة المشركين وغلظتهم وانهماكهم جميعاً في ملذاتهم وشهواتهم بغير نظام ولا قانون صحيح حيث يستوي المصلح والمفسد، والمحسن والمسيء، وذلك بالنسبة للصورة الثانية، ولقد كان هذا الظن السائد بين مجموع البشر، فكان من مقاصد القرآن الكريم في باب الاعتقاد أن يبين فساد هذا الظن، وأن يؤكد لناس حقيقة الحياة في الآخرة، وما يكون في بدايتها من قيامه وبعث وحشر وحساب وما يكون فيها من جنة أو نار، ونعيم أو عذاب، فحكى القرآن الكريم قولهم ورده عليهم بأن مبناه الظن الذي لا يعتمد على أساس، وأن الظن لا يغني من الحق شيئاً، ﴿ وَقَالُوٓاْ إِنۡ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا وَمَا نَحۡنُ بِمَبۡعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ الأنعام 29، ﴿ وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِنۡ هُمۡ إِلَّا يَظُنُّونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الجاثية 24.

فكان من جوابه عليهم قوله تعالى: ﴿ أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ ﴾ المؤمنون 115، وقوله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجۡمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ ﴾ القيامة 3، وقوله تعالى: ﴿ أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ ﴾ القيامة 36، وكيف يستقيم هذا الحساب ومقتضاه أن يستوي المحسن مع المسيء، والمصلح مع المفسد، والتقي مع الفاجر، ومثل هذا التصور لا يستقيم مع الإيمان بالله كما تصوره عقيدة الحق لذلك كانت هذه الأسئلة والتقريرات التي تطلب الحق على ألسنتهم حتى يستقيموا له، ويستقيموا معه، ﴿ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ ص 28، ﴿ أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ الجاثية 21.

وإذا استقام هذا في وجدان إنسان ما، فإنه لا يستقيم في وجدان إنسان يشاهد هذا الكون من حوله وقد قام كل شيء فيه بالحق والميزان، وليس فيه ما يوحي باللعب أو العبث، لذلك وردت مثل هذه التساؤلات، ومثل هذه الاعتقادات مع التأكيد المستمر بأن السموات والأرض قد خلقت بالحق وأنهما لم يخلقا إلا بالحق، وأن الله خلقهما بالحق و لم يخلقهما إلا بالحق وأنه أنزل الكتاب بالحق، وأرسل رسله بالحق، وشرع شرائعه بالحق، وأن نهاي ة ذلك كله أن لا يظلم أحد، وأن يلقى كل جزاء عمله خيراً أو شراً، إحساناً أو ظلماً، إصلاحاً أو إفساداً، وأن الحق لا يتبع الهوى، وإلا فسدت السموات والأرض ومن فيهن، وأن الأمر إذا كان قاصراً على الحياة الدنيا، فليست الدنيا إلا متاع الغرور، وهي لا تستحق إن وضعت بمعزل عن الآخرة أن يلتفت إليها، على عكس ما يفعله كثير ممن لا يؤمنون بالآخرة حين ينغمسون في متاعها الزائل وغرورها الهزيل، وعلى عكس ما يفعله هؤلاء الذين سمعوا هداية الله عن الآخرة، فآثروا الحياة الدنيا واتباع الهوى والتمتع بزخرفها ولهوها وعبثها.

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ ﴾ آل عمـــــــران 14، ﴿ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَيَسْخَرُونَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ فَوْقَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ ﴾ البقـــــرة 212، ﴿ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾ ﴾ الرعـــــد 26، ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ النساء 77، ﴿ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾ ﴾ الأنعـــــام 32، ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾ إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ يـــــونس 23-42، ﴿ وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾ ﴾ ، ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْـَٔاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ ﴾ الـــــــروم 7،

﴿ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُم بِٱللَّهِ ٱلْغَرُورُ ﴿٣٣﴾ ﴾ لقمان 33، فاطر 5، ﴿ تُؤْثِرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿١٦﴾ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾ ﴾ الأعلى 61-17، ولا شك أن الذي يدل على الآخرة وضرورة وقوعها معرفة ما قد أصبح مؤكداً من أن الذي يدل على الآخرة وضرورة وقوعها معرفة ما قد أصبح مؤكداً من أن الخلق بالحق، وقد أكدته الآيات وبينته في مختلف الصور والظواهر الكونية، وأجمله القرآن الكريم في آيات كثيرة مثل قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ﴾ الأنعام 73، وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾ ﴾ يونس 5، وقوله تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ ٱلسَّاعَةَ لَءَاتِيَةٌ ۖ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ الحجر 85، وقوله تعالى: ﴿ يَعْلَمُونَ ظَٰهِرًا مِّنَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ ٱلْءَاخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِم ۗ مَّا خَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ بِلِقَآئِ رَبِّهِمْ لَكَٰفِرُونَ ﴿٨﴾ ﴾ الروم 7-8.

النهاية من ذلك كله، أن يجزي المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، وأن يتحمل كل فرد مسئولية عمله وحده، ودون أن يجد أحداً يحمل عنه يوم القيامة ثقلاً من أثقاله، أو أن يحمل هو عن أحد وزراً من أوزاره ولو كان والداً أو ولداً، يقول تعالى: ﴿ فَأَعْرِضْ عَن مَّن تَوَلَّىٰ عَن ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ إِلَّا ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٢٩﴾ ذَٰلِكَ مَبْلَغُهُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱهْتَدَىٰ ﴿٣٠﴾ وَلِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ لِيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَسَٰٓـُٔوا۟ بِمَا عَمِلُوا۟ وَيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ بِٱلْحُسْنَى ﴿٣١﴾ ﴾ النجم 29-31، وقوله سبحانه: ﴿ مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٤٦﴾ ﴾ فصلت 46، ويقول: ﴿ ﴾ ﴿ يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَٰدِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١١١﴾ ﴾ النحل 111، ويقول: ﴿ أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾ ﴾ النجم 36-41، ويقول: ﴿ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ وَإِن تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَىٰ حِمْلِهَا لَا يُحْمَلْ مِنْهُ شَىْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰٓ ﴾ فاطر

18، ويقول: ﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴿٢١﴾ ﴾ الطور 21، ويقول: ﴿ وَأَشْرَقَتِ ٱلْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ ٱلْكِتَٰبُ وَجِا۟ىٓءَ بِٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَقُضِىَ بَيْنَهُم بِٱلْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٧٠﴾ ﴾ الزمر 69، 70، وفي قصار السور يمكن أن تقرأ التكوير والانفطار وسورة الزلزلة والقارعة.

أما عن الإنسان كإنسان فإنه من أصل واحد ولا تمايز ولا اختلاف: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ ﴾ الحجرات 13.

ولقد اختص أهل الكتاب بمناقشات تتناسب مع تحريفهم لرسالات الله السابقة التي حملت لهم هداية الله صافية نقية، فكتموا الحق ولبسوا الحق بالباطل وصدوا عن سبيل الله ونسبوا إلى الله عهوداً ما أنزل لله بها من سلطان كما نسبوا علوا كبيراً وقد نسب بعضهم لله الولد، أو نسبوا الألوهية للبشرية، وأصبح يسيراً على المشركين أن ينسبوا إلى الله البنات وأن يجعلوا بينه وبين الجنة نسباً، سبحان الله عما يصفون.

وكما أسرف المشركون في اتخاذ الآلهة من دون الله، أفرط أهل الكتاب وغلوا في دينهم وزعموا على عيسى عليه السلام أنه إله أو أنه ابن إله أو أنه ثالث ثلاثة، وزعم اليهود أنهم أبناء الله وأحباؤه، وأن الله فقير من دونهم، وقتلوا أنبيائهم بغير حق وطعنوا في المسيح وأمه البتول عليهما السلام، وقد نادى الله أهل الكتاب ودعاهم إلى الحق، وبين لهم ما اختلفوا فيه، وصحح لهم ما حرفوه، وأظهر لهم كثيراً مما أخفوه، لعلهم يرجعون.

وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٧٠﴾ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تَلْبِسُونَ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ ﴾ آل عمران 70-71، ويقول تعالى: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا ۖ فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾ ﴾ آل عمران 187، ويقول تعالى: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ ۚ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا

ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ ﴾ النساء 171-172، وسورة المائدة تعرض علينا الكثير من أفعالهم وأقوالهم وتفضحهم في كل ما يخفون وما يعلنون، ثم تناديهم لعلهم يستجيبون: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾ ﴾ المائدة 19، ويقول: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٦٨﴾ ﴾ المائدة 68، ويقول: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ ﴾ المائدة 72-73، وقد دعا الجميع إلى كلمة سواء: ﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ ﴾ آل عمران 64.

وإذ قد استقام الأمر في باب العقيدة، ولم يعد لأحد عذر ولا شبهة لم يبق إلا أن يقف الإنسان أمام نفسه موقفاً شجاعاً يتبرأ فيه من الباطل ويستمسك فيه بالحق وحده، ولكن تبقى جراثيم اجتماعية ما تزال تفتك بعقول البشرية، من تسلط الرؤساء والكبراء وأصحاب الغنى والجاه والنفوذ، وتبقى عقابيل التقليد واتباع الآباء والأجداد والحرص على أوهام التراث وخرافات الماضي وتراكمات التاريخ وزيوف الأمجاد والعنصريات والعصبية الجاهلية.

وقد عالج القرآن الكريم ذلك كله حين صور موقف المتبوعين يوم القيامة وكيف يتبرأ بعضهم من بعض: ﴿ إِذْ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُوا۟ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ وَرَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ ﴿١٦٦﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوا۟ لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُمْ كَمَا تَبَرَّءُوا۟ مِنَّا ۗ كَذَٰلِكَ يُرِيهِمُ ٱللَّهُ أَعْمَٰلَهُمْ حَسَرَٰتٍ عَلَيْهِمْ ۖ وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿١٦٧﴾ ﴾ البقرة 166-167، وكما كان فرعون مقدماً في قومه في هذه الحياة الدنيا يستمعون لضلالته ويطيعون، كذلك ﴿ يَقْدُمُ قَوْمَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فَأَوْرَدَهُمُ ٱلنَّارَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْوِرْدُ ٱلْمَوْرُودُ ﴿٩٨﴾ ﴾ هود 99، عند ذلك يتحاجون في النار ويطلب الأتباع من

سادتهم أن يحملوا عنهم أو يخففوا شيئاً من عذابهم، فيعترف الجميع بأن الحكم لم يكن إلا لله وحده: ﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ ﴾ غافر 47-48، وعند ذلك يندم الأتباع ويطلبون من الله أن يضاعف العذاب لهؤلاء السادة المضلين، ويتمنون لو استطاعوا الانتقام منهم وإذلالهم لقاء ما تسببوا في ضلالهم وعذابهم، ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِى ٱلنَّارِ يَقُولُونَ يَٰلَيْتَنَآ أَطَعْنَا ٱللَّهَ وَأَطَعْنَا ٱلرَّسُولَا۠ ﴿٦٦﴾ وَقَالُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا ٱلسَّبِيلَا۠ ﴿٦٧﴾ رَبَّنَآ ءَاتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ ٱلْعَذَابِ وَٱلْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا ﴿٦٨﴾ ﴾ الأحـــــزاب 67-68، ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ رَبَّنَآ أَرِنَا ٱلَّذَيْنِ أَضَلَّانَا مِنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ ٱلْأَسْفَلِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ ف صلت 29، وآيات أخرى كثيرة تحث الإنسان على أن يفكر لنفسه، وأن لا يسلم قيادة لغيره، خاصة وقد تحددت الألوهية في إله واحد لا يصح الخضوع لغيره ولا الطاعة لسواه، ولا الخروج على أمره ونهيه لأي سلطان كان، أما التقاليد والمواريث وأمجاد التاريخ وأوهام الجاهليات والعنصريات وحرمات الآباء والأجداد فكلها موازين فاسدة ومقاييس باطلة، وكل أمر لابد أن يخضع لمقياس الحق الذي يهدي إليه العقل في نور الله وهدايته ومنهاجه الذي رسمه للفكر الصحيح والتأمل السليم، ولقد نعى على كل من يتمسك بالباطل ويرفض الحق تحت ذريعة إتباع الآباء واحترام التراث الشعبي والتراث القومي وغير ذلك من الترهات، وسخر من موقفهم الذي يتجافى مع الحق ويتجافى مع العقل: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ البقـــــرة 170، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُوا۟ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ المائـــــدة 104، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۚ أَوَلَوْ كَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿٢١﴾ ﴾ لقمان 21، ولقد بين القرآن أن ذلك كان داء الأمم جميعاً وهو داء يصيب المجتمعات بالجمود وعدم الحركة نحو ما هو أفضل، فما بالكم إذا كان جموداً على الباطل والفساد، يقول تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوٓا۟ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ

إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَٰلَ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ ءَابَآءَكُمْ ۖ قَالُوٓا۟ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ الزخرف 22-44.

بهذه العقيدة في إله واحد منزه عن الشريك والند والصاحب والصاحبة والولد، وفي كتبه ورسله واليوم الآخر، وفي انفراده بالتقدير والتدبير والحكم والقضاء والهداية، يمكن أن تتحرر الإنسانية، ويتحرر الإنسان، وبتحرير الإنسانية وتحرير الإنسان يمكن أن يعتنق عقيدة الحق والهدى والإيمان، ولقد عمل القرآن على ذ لك، فقدم العقيدة التي لا تصلح الإنسانية، وبتحرير الإنسانية وتحرير الإنسان يمكن أن يعتنق عقيدة الحق والهدى والإيمان، ولقد عمل القرآن على ذلك كله، فقدم العقيدة التي لا تصلح الإنسانية إليها، وساعد الإنسان على التحرر حتى يستطيع أن يستعمل هذا المنهج بمحض إرادته وفكره وذاتيته، لقد حقق القرآن الكريم هذه المقاصد كلها بأسلوب متماسك لا ينفصل فيه مقصد عن مقصد، فحرر الإنسان من الخرافات والأساطير لينصرف إلى الحقائق الصريحة الواضحة، وحرر عقله من التبعية والإهمال لينصرف إلى العمل والتأمل والتفكير، وحرر مناهج الفكر من التقليد والجمود، ليسلك السبل المستقيمة ويستعمل الوسائل السليمة، ثم حرر ضمير الإنسان ووجدانه من الخضوع لبشر مثله مهما كان سلطانه ونفوذه الدنيوي ليكون خضوع الإنسان للحق وحده في أي صورة من الصور، وبناء على ذلك تقدم الإسلام وتقدم القرآن بدستور إلهي ينظم حياة المجتمع وفقاً لقواعد الحق الذي قامت به السموات والأرض وما بينهما، ولقواعد العدل والإحسان، ومحو الظلم والبغي والعدوان وتحطيم العبودية الزائفة بكل مظاهر سواء أكانت لأوهام الأوثان أو لاستبداد الإنسان، عند ذلك يكون المجتمع الرباني، ويتحقق خلافة الإنسان على هذه الأرض، وصدق القرآن الكريم وهو يصف نفسه:

﴿ قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَٰبٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾ ﴾ .

د. عبد الفتاح عبد الله بركة

تاريخ القرآن

بين

تساهل المسلمين وشبهات المستشرقين

بقلم الدكتور

إسماعيل أحمد الطحان

رئيس قسم التفسير والحديث

كلية الشريعة – جامعة قطر

إذا كان للمسلمين تراث يعتزون به فليس هناك أعز عليهم من تاريخ القرآن، ذلك أن القرآن رسالة السماء إلى الأرض حملها المسلمون ليكونوا خلفاء في أرضه، وقادة هذا العالم، وبناة حضارته، وهداته الراشدين.

ومنذ تلقاء الرسول ﷺ، بدأت أولى خطواته في دنيا الناس ليأخذ مسيرته، وأخذ المسلمون إذ ذاك يرصدون حركته، ولقد كان لمعاصريه جلي السيرة واضح القسمات والمعالم، فقد شاهدوا كيف تلقاه النبي ﷺ وحيا منزلاً على مدى ثلاثة وعشرين عاماً، لا تغيب عنهم شاردة ولا واردة، حتى يقسم ابن مسعود رضي الله عنه – على أنه ما من آية نزلت من كتاب الله إلا وهو أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت. وسئل عكرمة عن آية من القرآن فقال: نزلت في سفح ذلك الجبل، وأشار إلى (سلع)[1].

وحشدوا جهدهم مع النبي ﷺ فتلقوه عنه حفظاً في الصدور وتسجيلاً في السطور، حتى غدت أعمالهم في العناية به والدفاع عنه جزءًا من هذا التاريخ.

وما كاد ينتهي جيل الصحابة رضوان الله عليهم ممن شاركوا في صنع هذا التاريخ – وقد صاغوا حقائقه – حتى تلقته يد آمنت به. وأخرى منكرة له. وماجت به الأحداث، واختلفت به الأحوال، فغامت تلك الحقائق في ضباب الفتن، وكلما تطاول عليها الزمان طمرها تحت ركام من ضلال الأهواء، ووهم الرواة، وعز على الباحث المدقق أن يستخلص الحقائق من ذلك الحشد المختلط من الروايات، وكان حسب الذين أعادوا صياغة هذا التاريخ أن يرووا كل هذه الروايات آخذين أنفسهم بأمانة النقل غير مبالين بما بينها من تناقض، أو مجافاة للعقل والمنطق، ولم يكن نقد المتن والسند – على الرغم من الالتزام به منهجاً في بحوث التشريع – ذا أثر واضح في عرض تاريخ القرآن، ومن ثم وجد خصوم الإسلام فرصتهم في تساهل المسلمين في عرض هذا التاريخ حيث ساقوه دون نقد الأخبار والرواة، فأثار المستشرقون – بمنهجهم الاستشراقي الذي يقوم على جمع الآراء والظنون والأوهام – شبهات حول القرآن، حاول أن تجتث أصوله، لتأتي على قواعد هذا الدين، وهم قد نصبوا أنفسهم للقضاء عليه.

وكم كان حرياً بالمسلمين أن يدركوا خطر هذا التاريخ، فليس تاريخ كتاب فحسب، بل وتاريخ دين، وليس تاريخ دين فحسب، بل وتاريخ حضارة استوعبت البشرية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

وإن من يوطد صلته بهذا التراث بحثاً ودرساً، وينقب في كتب الأقدمين والمحدثين – على حد سواء – ليجد شابهاً في كثير مما تناولته من جوانب هذا التاريخ، وسر هذا التشابه هو وحده المصادر التي استقوا منها تلك المعارف، وقد تناقلوها على علاتها دون جهد يذكر من نقد رواية أو تعليق عليها، وإن تسنى

---

[1] – قارن بما جاء في كتاب مباحث في علوم القرآن د. صبحي الصالح/132.

لبعضهم ذلك فهي لا تزيد عن نظرة عجلي لا تشفي غلة ولا تقيم الحقائق على وجه مقبول، وكثير ما كانوا يعفون أنفسهم عناء البحث بالإحالة على مصادر هذه النقول.

ولا يعز عليه أن يدرك بما لا يقبل الشك – أن طريقة عرض هذا التاريخ على هذا النحو من الروايات المختلطة والتساهل في نقدها أغرى المستشرقين بالصيد في هذه المنابع العكرة، ولم يتأب عليهم الصيد لقرب تناوله من أيديهم.

ولربما رأى الناس فيما قام به علماء المسلمين من التصدي لهذه الشبهات وتفنيدها عملاً مشكوراً – وإنه لكذلك – ولكنه لا يبرئ ساحة أولئك الذين شاركوا في صنعها بعرض هذا التاريخ وفتحوا أمام خصوم الإسلام أبواباً يلجون منها إلى ساحته، وما كان أغنانا عن كل هذا لو أحسنا عرض هذا التاريخ، وكان بحسبنا أن نتوفر على رد مطاعنهم المختلفة – وما أكثرها – بدل أن نجمع على أنفسنا سوء العرض وكيد الخصوم.

وبحسبي أن أقدم بعض هذه الروايات من مظانها وما أفرزته من شبهات ومطاعن في القرآن؛ لنرى إلى أي حد كان مبلغ إساءتنا وكم كوان صواباً أن نعدل عنها إلى غيرها أوثق منها، وأدنى أن نأتي بالحقيقة على وجهها .

روايات وشبهات تدوين القرآن

جاء في الصحاح من كتب السنة أن النبي ﷺ جمع القرآن في صدره حفظاً، ثم ظاهر الفظ وأكد بكتابة النص القرآني، فاتخذ كتاباً للوحي بلغت عدتهم – على ما جاءت به الروايات – ثلاثة وأربعين، ودلتنا الروايات أيضاً على أن أول من كتب له بمكة هو عبد الله بن أبي سرح، وكان من كتابه الخلفاء الأربعة، والزبير بن العوام، وخالد وأبان بنا سعيد بن العاص بن أمية وغيرهم، وأول من كتب له بالمدينة أبي بن كعب، ثم زيد بن ثابت، وكان زيد ألزم كتاب الوحي للنبي ﷺ [1]، فقد روى البخاري عن البراء قال: لما نزلت ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ ، قال النبي ﷺ: ادع لي زيداً، وليجيء باللوح والدواة والكتف أو الكتف والدواء، ثم قال: اكتب: ﴿ لَّا يَسْتَوِي ٱلْقَٰعِدُونَ ﴾ وخلف ظهر النبي ﷺ عمرو بن أم مكتوم الأعمى، قال: يا رسول الله فما تأمرني، فإني ر جل ضرير البصر؟ فنزلت مكانها ﴿ غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ ﴾ [2].

---

[1] – راجع تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني/42.

[2] – البخاري 183/5.

وفي كتب السنة كثير من الأحاديث تشير إلى أن الرسول ﷺ كان يملي القرآن على كتاب الوحي، ويقفهم على ترتيب الآيات ومكان كل آية من سورتها، وأختها، ففي جامع الترمذي: كان رسول الله ﷺ مما يأتي عليه الزمان وهو تنزل عليه السورة ذوات العدد، فكان إذا أنزل عليه شيء منه دعا بعض من كان يكتب فيقول: ضعوا هذه الآيات في السورة التي يذكر فيها كذا وكذا، وإذا نزلت عليه الآية فيقول: ضعوا هذه الآية في السورة التي يذكر فيها كذا، وكذا [1].

وفجأة تغيم هذه الحقائق في ضباب روايات هزيلة كتلك التي يذكرها السيوطي في (إتقانه) يقول: حدثنا إبراهيم بن بشار، حدثنا سفيان بن عيينة عن الزهيري عن عبيد عن زيد بن ثابت، قال: ((قبض رسول الله ﷺ ولم يكن القرآن قد جمع في شيء)).

وعلى الرغم من الفرق الواضح بين التدوين المجرد، والجمع المراد به ضم المتفرق – وهو ما يمكن أن تحمل عليه هذه الرواية كما قال الخطابي: أي لم يجمع في مصحف انتظاراً لبلوغ الوحي تمامه، وهو ما لم يدركه النبي ﷺ لقرب وفاته من ختام ما أوحي إليه، فلما انقضى نزوله بوفاته، ألهم الله خلفاءه الراشدين ذلك؛ وفاء بوعده الصادق بضمان حفظه على هذه الأمة [2].

وكذلك ما قيل في نقد هذه الرواية من أن (إبراهيم بن بشار) هذا ليس بالمتقن وله مناكير، وأن (عبيد) الذي روى عنه الزهري مجهول في كتب الرجال والطبقات [3].

على الرغم من كل هذا فإن هذه الرواية أرجح في نظر المستشرقين لمطابقتها ما روي من خوف عمر، وأبي بكر – رضي الله عنهما – لما استحر القتل بالقراء في موقعة اليمامة، فلو كان القرآن قد كتب وجمع لما كانت هناك علة لخوفهما [4].

وتتظاهر الروايات الهزيلة في هذا الاتجاه كتلك التي يوردها ابن أبي داود: حدثنا أبو الربيع قال أخبرنا ابن وهب قال أخبرني يونس، عن ابن شهاب قال: ((بلغنا أنه كان أنزل قرآن كثير فقتل علماؤنا يوم اليمامة الذين قد وعوه فلم يعلم بعدهم ولم يكتب)) [5].

وكلما عثر المستشرقون على تلك الروايات راحوا يؤكدون من خلالها فكرة عدم تدوين الوحي في حياة النبي ﷺ، حتى راح ((بلاشير)) يصدق خرافة (كازانوفا) في التأثيرات الألفية على عقل مُحَمَّد ﷺ –

---

[1] – الترمذي 225/11.

[2] – الإتقان 57/1.

[3] – دراسات في القرآن: د. السيد خليل/88.

[4] – آرثر جفري: كتاب المصاحف/5.

[5] – المصاحف/23.

ومؤداها – أن المسيح يحكم ألف سنة على الأرض قبل قيامة الموتى، وأن مُحَمَّداً ينتمي إلى طائفة مسيحية تعتقد بأن المسيح نفسه قد بشر بنبي اسمه (أحمد) وهذا الاسم صيغة أخرى لاسم (مُحَمَّد)، ولما كان القرآن قد أنذر بيوم القيامة القريب، ونهاية العالم وبأن النبي ﷺ قد يرى بنفسه عقاب الكافرين، فلم يكن هناك من داع إذاً لتدوين الوحي في حياة النبي ﷺ إما للاعتقاد بأن النبي ﷺ إما للاعتقاد بأن النبي ﷺ لن يموت قيام الساعة، وإما للاعتقاد بأن الساعة وشيكة الوقوع [1].

ولم تكن نيات المستشرقين بخافية من وراء هذا القول، فإن وراءه التشكيك في نص القرآن؛ لأن التسليم بعدم تدوين الوحي سيسلم أمره لذاكرة المسلمين، وهي مهما أوتيت من قوة لا تستطيع أن تمسك كل ما فيها لفترة طويلة، وعندئذ يكون شأن القرآن كشأن الشعر المروي عرضه للتغيير والتبديل [2].

وربما كان المستشرقون لا يجهلون علة خوف أبي بكر وعمر – رضي الله عنهما – من أن الوحي – على الرغم من تسجيله بمعرفة النبي ﷺ في حياته – لم يأخذ شكله النهائي في وحدة مرتبة الآيات والسور على هيئته المحفوظة في الصدور، وهؤلاء الصحابة هم الشهود على وثاقة النص المكتوب الذي لم ينته بعد إلى شكله المطلوب، فخشيا أن استحر بهم القتل في مواطن أخرى أن يعز جمع القرآن في لقاء وثيق بين المحفوظ والمكتوب [3].

وإذا استعصى عليهم اقتلاع فكرة هذا التدوين من خلال هذه الروايات لجأوا إلى روايات أخرى تعطي بمنطوقها أو مفهومها تعزيزاً لهذه الشكوك.

ومن تلك الروايات ما شاع في كتب المسلمين من أن الأدوات التي سجل عليها الوحي إبان عهد النبي ﷺ كانت من المواد الخشنة كالأحجار، والعظام، وجريد النخل، وقد جاء ذكر هذه الأدوات في روايات مختلفة عن زيد بن ثابت ﷺ عند جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ حين كلفه أن يجمعه فقال (فتتبعت القرآن أنسخه من الصحف، والعسب، واللخاف، وصدور الرجال).

وفي رواية أخرى (فتتبعت القرآن أجمعه من الرقاع، والعسب واللخاف، وصدور الرجال).

وفي رواية ثالثة (فجعلت أتتبع القرآن من صدور الرجال، ومن الرقاع، ومن الأضلاع).

وفي رواية رابعة (فجمعت القرآن من الأكتاف، والأقتاب، والعسب، وصدور الرجال).

---

[1] – القرآن: بلاشير رضا سعادة/29، 30.

[2] – راجع أثر القرآن في الدراسات النحوية: د. عبد العال سالم/4.

[3] – راجع من قضايا القرآن: د. إسماعيل الطحان/66.

وفي رواية خامسة (فقمت فاتبعت أجمع القرآن من الرقاع والأكتاف والأقتاب، والعسب، وصدور الرجال) [1].

وهذه الروايات تشير إلى أن هذه الأدوات كانت مما يكتب عليه الكاتبون من الصحابة لأنفسهم، أما ما كتب عليه الوحي في بيت النبي ﷺ فتشير إليه الروايات لزيد أيضاً يقول: (كنا عند رسول الله ﷺ فتشير إليه رواية أخرى لزيد أيضاً يقول: (كنا عند رسول الله ﷺ نؤلف القرآن من الرقاع) – وهي جمع رقعة، قد تكون من جلد أو ورق أو كاغد.

كما تشير رواية البخاري عن البراء إلى اللوح والكتف.

وكانت هذه الرواية مرتعاً خصباً أشبع المستشرقين في إثارة الشبهات حول القرآن؛ فقد رأوا في تلك الأدوات استحالة مادية على استيعاب النص القرآني كله، فإن نسخة كاملة منه تشغل حيزاً كبيراً من الفراغ، ومن ثم قال (بلاشير): إن فكرة تدوين مقاطع الوحي الهامة على تلك المواد الخشنة لم تنشأ إلا بعد إقامة مُحَمَّد ﷺ في المدينة، وعلى أي حال فإن هذا التدوين كان متخلفاً بسبب عدم ثبات المواد والطرائق المستعملة لذلك التدوين [2].

وهكذا يحاول (بلاشير) أن يهدم فكرة تدوين الوحي، فيعجل هذا التدوين – على أحسن الفروض – جزئياً لبعض مقاطع الوحي الهامة التي نزلت في المدينة فحسب، فضلاً عما يلحقها من محو أو تشويه بسبب رداءة المواد المستعملة في هذا التدوين، لينتهي إلى ما قرره المستشرقون سلفاً من أن حفظ القرآن ونقله موكول إلى ذاكرة حفاظه، وقد مات منهم كثير قبل جمعه.

وإني لأعجب من حرص السالفين والخالفين على تناقل هذه الروايات، وكأن هذه الأدوات المقررة في قضية تدوين القرآن فحسب، على أن الواقع كان على خلاف ذلك، إذ لا يعقل أن العرب لم يعرفوا وسيلة للتدوين إلا قطع الأحجار والعظام، وجريد النخل، وإذا كان فكم تحتاج آيات القرآن التي سجلت بمكة – وهي ما يقرب من ثلثي القرآن – من هذه الأدوات الخشنة، إنها تحتاج إلى حمل قافلة من العير.. ولم نعلم من أنباء الهجرة أن قافلة من العير قبل النبي ﷺ، أو معه وعليها ذلك الحمل الغريب من الأحجار [3].

---

[1] – كتاب المصاحف/ 8، 9، 20.

[2] – القرآن: بلاشير/29.

[3] – قارن بما جاء في كتاب (عن القرآن) لمحمد صبيح /86.

إن اقرب الأشياء إلى الواقع أن العرب كانوا يعرفون من وسائل الكتابة أدواتها اللينة، كالجلد والورق، و بخاصة إذا تصورنا أن مكة كانت تمثل بيئة تجارية في أرض الجزيرة، تقوم التجارة فيها على توثيق العقود، وتدوين الحسابات.

وإذا تذكرنا أمر الصحيفة التي كتبتها قريش وثيقة لمقاطعة بني هاشم، وقام نفر منهم لشق تلك الصحيفة الظالمة، فوجد أن الأرضة قد أكلتها إلا (باسمك اللهم)، وكان الشق وأكل الأرضة آكد دليل على أنها كانت من الأدوات اللينة. وكان من الصحف غيرها كثير بالمدينة كصحيفة صلح الحديبية، ورسائل النبي ﷺ إلى الملوك والحكام لدعوتهم إلى الإسلام، ورقاع الوحي التي زيد منها القرآن في بيت النبي ﷺ، وبعض مخطوطات الصحابة التي كتبوا فيها القرآن على عهد النبي ﷺ وأمر عثمان رضي الله عنه بإحراقها بعد نسخ مصاحفه.

وكيف لا يعرف المسلمون هذه الأدوات اللينة وقد جاوروا جاليات كبيرة من أهل الكتاب وفي أيديهم كتبهم يتدارسونها، وقد تكررت إشارات القرآن إلى هذه الكتب، كما خاطب العرب بأسماء هذه الأدوات اللينة كالصحف والقراطيس في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا لَفِي ٱلصُّحُفِ ٱلْأُولَىٰ ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ ﴿١٩﴾ ﴾ [1]. وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ ﴾ [2]. وفي قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ﴾ [3].

هذا. ولا ننفي ما ورد في تلك الروايات من هذه المواد الخشنة وأن بعض القرآن ربما قد كتب عليها، ولكن ننفي أن تكون هي الوسيلة الوحيدة أو الأكثر استعمالا في كتابة القرآن، فلعل استخدامها كان لضرورة كندرة الأدوات اللينة في ظرف ما، أو استخدامها بصورة مؤقتة؛ لعدم تيسير غيرها فور نزول الوحي، ريثما ينتقل إلى مكانه من سجلات القرآن وهي الرقاع المشار إليها في حديث زيد [4].

---

[1] - 18/87، 19.

[2] - 7/6.

[3] - 9/6.

[4] - قارن بكتاب (القرآن المجيد) مُحَمَّد عزة دروزة/77-79.

روايات وشبهات حول جمع القرآن

وإذا تجاوز التدوين وأدواته في عهد النبي ﷺ – بعد أن تظافرت الروايات على وقوع التدوين ويسر أدواته بعد تنقيتها مما يشوبها من شبهات – إلى جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ، طالعتنا روايات عدة في قضية من قضايا التسجيل في عهده تشير إلى أن زيداً ﷺ افتقد بعض آيات القرآن.

ومن تلك الروايات المنسوبة إلى زيد ﷺ قوله ((تتبعت القرآن أنسخه فافتقدت آية كنت أسمع الرسول ﷺ يقرأ بها ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ ﴾ [1]، فالتمستها فوجدتها مع خز يمة بن ثابت الأنصاري فأثبتها في سورتها.

وفي رواية أخرى قال زيد ﷺ: (فتتبعت القرآن أجمعه آخر سورة التوبة مع خزيمة بن ثابت).

وفي رواية ثالثة قال زيد ﷺ: (دعاني أبو بكر ﷺ أن أجمع القرآن.. فجعلت أتتبع القرآن.. ففقدت آية كنت أسمعها من رسول الله ﷺ، لم أجدها عند أحد، فوجدتها عند رجل من الأنصار وهي قوله تعالى: ﴿ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ [2]، فألحقتها في سورتها).

وفي رواية رابعة قال الزهري: حدثني خارجة بن زيد أن زيد بن ثابت قال: (فقدت آية من سورة الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها ﴿ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ ﴾ فالتمستها فوجدتها مع خزيمة بن ثابت، أو أبي خزيمة في سورتها..) وكان خزيمة يدعى ذا الشهادتين، أجاز الرسول ﷺ شهادته بشهادة رجلين.

وفي رواية خامسة عن يحي بن عبادة عن أبيه عباد بن عبد الله بن الزبير قال: أتى الحارث بن خزيمة [3] بآيتي آخر سورة التوبة إلى عمر بن الخطاب ﷺ، فقال عمر: من معك على هذا؟ قال: لا أدري. والله إني أشهد أني سمعتها من ر سول الله ﷺ ووعيتهما وحفظتهما، فقال عمر: وأنا أشهد، ثم قال عمر: لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على حدة، فانظروا سورة من القرآن فألحقوهما فيها، فألحقتهما في آخر براءة.

---

[1] – التوبة/128.

[2] – الأحزاب/23.

[3] – قيل الحارث بن خزيمة – راجع لطائف الإشارات للقسطلاني/65.

وفي رواية سادسة عن أبي العالية عن أبي بن كعب قال: لما انتهوا إلى قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱنصَرَفُوا۟ صَرَفَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿١٢٧﴾ ﴾ [1]، ظنوا أن السورة قد انتهت، فقال أبيّ: إن رسول الله ﷺ قد اقرأني بعدها آيتين بها ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ ... ﴾ وقال: هذا آخر ما نزل.

وفي رواية سابعة عن ابن وهب: جاء خزيمة بن ثابت فقال: إني رأيتكم تركتم آيتين لم تكتبوهما. قال عثمان: وما هما؟ قال: ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ ... ﴾ قال عثمان: وأنا أشهد أنهما من عند الله، فأين ترى أن نجعلهما؟ قال: أختم بهما آخر ما نزل من القرآن، فختمت بهما براءة.

هذا ما أثبته ابن أبي داود في كتاب المصاحف [2].

أما ما أثبته البخاري في صحيحه، ونقل القسطلاني في (لطائفه)، وآخرون في كتبهم: أن زيداً رضي الله عنه قال: (وجدت آخر سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، ولم أجدها مع أحد غيره [3].

وفي رواية الزركشي في (برهانه) وجدها مع أبي خزيمة الأنصاري الذي جعل الرسول ﷺ شهادته بشهادة رجلين [4]).

وذكر البخاري في باب فضائل القرآن، أن زيداً وجد عند خزيمة بن ثابت آية الأحزاب (من المؤمن رجال).

هذه صورة لعدة روايات مضطربة في قضية من قضايا التسجيل القرآني تختلف في المفقود من الآيات أهي آخر التوبة؟ أم آية من الأحزاب؟ أم كلتاهما؟

وفي الصحابي الذي وجدت عنده أيضاً: أهو خزيمة بن ثابت الأنصاري؟ أم أبو خزيمة الأنصاري؟ أم الحارث بن خزيمة؟ أم ابن خز يمة.

وفي أي عهد كان هذا الحدث أفي جمع أبي بكر؟ أم في نسخ عثمان؟

ويحار الباحث في الاهتداء إلى حقيقة هذا الحدث، وتشتد حيرته أمام تعليقات الأقدمين على تلك الروايات.

---

[1] – التوبة/127.

[2] – راجع كتاب المصاحف/7-31.

[3] – انظر لطائف الإشارات للقسطلاني/53.

[4] – انظر البرهان 234/1.

ففي (إرشاد الساري) [1] ينقل القسطلاني قول زيد ﷺ: (وجدت آيتي التوبة مع خزيمة الأنصاري) وهو ابن ثابت بن الفاكه الخطمي ذو الشهادتين.

وينقل القسطلاني عن ابن شهاب الزهري قول زيد: (وجدت آيتي التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري) وهو ابن أوس بن أحد بن ثعلبة بن غنم بن مالك بن النجار.

وفي رواية أخرى عن زيد أيضاً: لما نسخنا الصحف التي كانت عند حفصة بأمر عثمان ﷺ فقدت آية من الأحزاب كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرؤها لم أجدها مع أحد إلا مع خزيمة بن ثابت الأنصاري الذي جعل الرسول ﷺ شهادته بشهادة رجلين فأثبتها في سورتها.. ولا يقال: ثبوتها بخبر الواحد بل كانت متواترة عندهم، حتى قال عمر ﷺ: أشهد لقد سمعتها من رسول الله ﷺ، وكذا قال أبي بن كعب، وهلال بن أمية.

وفي (عمدة القاري) قال الليث: حدثني عبد الرحمن بن خالد عن ابن شهاب قال زيد: (وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري). قال أبو الفرج: قوله (أبو خزيمة) وهم [2].

وفيه أيضاً: واختلف أصحاب إبراهيم بن سعد فقال بعضهم: مع أبي خزيمة، وقال بعضهم: مع خزيمة.

وعن موسى بن إسماعل: آية التوبة مع أبي خزيمة، وآية الأحزاب مع خزيمة.

وفيه أيضاً: حدثنا أبو اليمان أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني خارجة عن زيد بن ثابت: لما نسخنا المصاحف بأمر عثمان فقدت آية من الأحزاب لم أجدها إلا مع خزيمة الأنصاري الذي جعل الرسول ﷺ شهادته بشهادة رجلين.

فإن قيل: إن الآية المفقودة التي وجدت عند خزيمة هي آخر التوبة، أجيب بأن لا دليل على الحصر، ولا محذور في كون كلتيهما مكتوبتين عنده دون غيره [3].

هذا ما حملته إلينا الروايات والتعليقات، ولربما أمكن من خلال هذه التعليقات استيضاح بعض الحقيقة، ولكن مما لا شك فيه أن هذا الخلط قد ترك آثاراً سلبية على عملية جمع القرآن في عهد أبي

---

[1] – راجع إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري لشهاب الدين القسطلاني 163/7.

[2] – راجع عمدة القارئ شرح صحيح البخاري للعيني 282/18.

[3] – المرجع السابق 116/19 المجلد العاشر.

بكر ﷺ، حتى قال بعض الباحثين: إن افتقاد آيات من القرآن على هذا النحو قصة مشكوك في روايتها، أو أن عملية الجمع على الصورة المتداولة في كتب الأقدمين أقرب إلى الوهم منها إلى الحقيقة [1].

ولعل مرجع الشك لديه أن حادثة كهذه في أخطر قضية واجهت المسلمين بعد وفاة النبي ﷺ – وهي جمع القرآن – تأتي على هذا النحو من الغموض والاضطراب، فلا يتعين المفقود من الآيات، ولا يعرف الصحابي الذي وجدت عنده، ولا الزمن الذي حدثت فيه على التحديد!!

إن الغموض الذي أحاط بالآيات وبالصحابي ليس أخطر ما في هذه القضية، بل إن أخطر ما فيها أن يكون بعض هذا الحدث وقع عند نسخ عثمان ﷺ للمصاحف – على ما تشير إليه بعض الروايات – لأن هذا يهدم كثيراً من الحقائق المقررة في تاريخ جمع القرآن في عهد أبي بكر ﷺ، ويعزز شكوك المستشرقين في أن أبا بكر حين واجه حركة الارتداد التي أودت بحياة كثير من حفظة القرآن استولى الاضطراب عليه بشأن القرآن، وأخذ يفكر في تكوين مصحف يضم المجموعات الفردية لدى الصحابة، ولكن النص الذي جمع وفقاً لمبادرته بقي ذا طابع شخصي، ولا يبدو أنه فاق بنفوذه أيا من النصوص التي حققها غيره من صحابة النبي ﷺ .. وقد تمت خطوة حاسمة بعد عشرين عاماً إذ أقبلوا في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان على جمع نص جديد يكون أوسع أساساً، وأشمل حصراً، وكان المنطلق مصحف أبي بكر فضموا إليه مقطوعات ظلت مبعثرة أو محفوظة غيباً فقط [2].

ونحن أمام هذا الاضطراب على فرضين: إما نقبل ما نشير إليه الروايات من وقوع هذا الحدث لدى نسخ عثمان ﷺ للمصاحف وهذا الفرض يقتضي أن يكون جمع في عهد أبي بكر ﷺ غير دقيق لخلو مصحفه من هذه الآيات، وأن دعوى الكمال وتوثيق النص القرآني مما أحكم الخيال نسجه، أو مما أشاعته العقلية الإسلامية حول مقدساتها، حتى صارت لدى المؤرخين المسلمين من الحقائق المسلمة المتوارثة.

كما يقتضي هذا الفرض أيضاً أن يكون عمل عثمان ﷺ في المصاحف جمعاً جديداً استدرك فيه على أبي بكر ﷺ ما فاته، ومن ثم ظل النص القرآني منذ وفاة الرسول ﷺ إلى عهد عثمان ﷺ موضع تزويد واضطراب مما لا يمكن من الثقة به.

وإما أن نرفض تماماً كل ما تشير إليه الروايات من وقوع بعض هذا الحدث في عهد عثمان ﷺ لما فيها من اضطراب يقعد بها عن مواجهة روايات يكاد الاتفاق عليها يبلغ بها حد الإجماع التي تؤكد أن القرآن في عهد أبي بكر قد تم جمعه كاملاً على منهج دقيق من الضبط والإتقان يبعث على الثقة بكماله

---

[1] – مُحَمَّد صبيح (عن القرآن) /217.

[2] – القرآن (بلاشير) 30، 31.

وتمامه، وأن عمل عثمان من بعده لا يزيد عن كونه نسخ المصحف المجمع عليه في عهد أبي بكر في عدد من المصاحف وزعت على الأمصار.

وخلاصة تلك الروايات أن أبا بكر ﷺ اتخذ الصحف المودعة في بيت النبي ﷺ ركيزة جمعه، وطلب القرآن ممن عندهم محفوظاً أو مكتوباً؛ ليعارض المتفرق بالمجتمع، وليشترك في علم ما جمع، فلا يغيب عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء، ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف، ولا يشده في أنه جمع عن ملأ منهم [1]. وأن يشهد شاهدان من حفظ أو كتابة على ما يجيء مخالفاً لتلك الصحف أو مفقوداً منها.

ونادى عمر ﷺ في الناس فجاءوا بما عندهم من القرآن.

وكانت هذه المرحلة من الجمع مظنة الاختلاف في النص القرآني أو فقد شيء من صحفه، لما انتهج فيها – لأول مرة – من عملية مراجعة النص المكتوب بإملاء النبي ﷺ وبين يديه على المحفوظ في صدور الناس أو المكتوب لديهم.

وليس بمستبعد أن تفقد بعض رقاع الوحي المودعة في بيت الرسول ﷺ، وأن تكون عند بعض الناس مكتوبة، محفوظة عند الجميع، فلا غرابة في أن يفتقد زيد ﷺ آخر التوبة مكتوبة، فيطلب رقعتها ممن عنده إذا علمت أن هاتين الآيتين نزلتا بمكة وموضوعهما من الترتيب بعد آيات من سورة مدنية لم تتكامل إلا في السنة التاسعة من الهجرة.

وربما كانت آية الأحزاب قد اعتراها الفقد كذلك لسبب أو لآخر.

ولما كان اشتراط شاهدين مسوغ قبولهما – واختلف العلماء في تحديد طبيعة هذين الشاهدين. أهما شاهدان من حفظ على المحفوظ؟ وشاهدان من كتابة على المكتوب؟ أم يكفي شاهد من حفظ وشاهد من كتابه على النص المفقود أو المختلف فيه؟

ومن ثم كان على القائلين بشاهدين من كتابة على المكتوب أن يلتمسا رجلاً يصلح لذلك، فكان خزيمة بن ثابت الأنصاري ذو الشهادتين أصلح من تلصق به هذه الواقعة ليصدقوا ما توهموه!!

ولا بأس عند الآخرين أن يكون (أبو خزيمة الأنصاري) فهو شاهد من كتابة، ومعه شهود من حفظ كثيرون.

ولا أحسب الاضطراب في هذه القضية إلا من هذا الباب، وليس أدل على ذلك من نقل هذه الصفة إلى (أبي خزيمة) على ما جاءت به بعض الروايات[2]. وإلا فأي مصادفة بين رجلين أحدهما (

---

[1] – راجع البرهان 238/1 وقارن بكتابنا من قضايا من قضايا القرآن/67.

[2] – انظر البرهان 234/1.

أبو خزيمة) والآخر (خزيمة) لا يفترقان إلا في الكنية ليكون أحدهما، أو كلاهما بطل العثور على المفقود، حتى الرجل الثالث – على ضعف روايته – (خزيمي) أيضاً باسم الحارث بن خزيمة.

وسواء أكان هذا أو ذاك، أو كلاهما، وسواء أكان المفقود آخر التوبة، أم آية من الأحزاب، أو كلتيهما؛ فإن هذه الواقعة لا تصدق إلا في جمع أبي بكر ﷺ بحكم طبيعة هذا الجمع ومنهجه.

أما عمل عثمان ﷺ فهو – على ما أشرنا إليه من قبل – ليس سوى نسخ مصحف أبي بكر المجمع عليه، في عدد من المصاحف لينشر النص القرآني المجموع في عهد أبي بكر المأخوذ مما كتب بين يدي النبي ﷺ بإملائه، حين دعت الضرورة إلى نص مكتوب يكون للناس إماماً ليحسم الخلاف حول ما اعترى القرآن على ألسنتهم من تحريف بالزيادة والنقص واستبدال لفظ بلفظ، وليمتاز به التنزيل عما اختلط به التأويل في المخطوطات المتداولة، وما جرى على ألسنة العامة توهماً أنه من الوحي المنزل وليكون مرجع الناس في الأخذ بالمستيقن المعلوم من نصوص الوحي المنزل، وكل نص خالف عنه ترفض قرآنيته، بل وكل مصحف عداه ليست له شرعية البقاء معه، ومن ثم وجب إحراقه وقاية من كل خلاف، وحماية من أي اختلاط [1].

ولا جديد في عمل عثمان ﷺ سوى أنه جرد مصاحفه من الإعجام (النقط) ليختصر إثبات التنزلات المتعددة المتعددة للنص القرآني في لفظ واحد كلفظ (تتلو)، و (تبلو) إذا تصورت الرسم بدون نقط، وما لم يحتمله رسم واحد فرقة على المصاحف فأثبت في بعضها على صورة، وفي بعضها الآخر على صورة أخرى مثل قوله تعالى: ﴿ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ ﴾ [2]. بإثبات (من) في المصحف المكي، وبحذف (من) في المصحف الكوفي الذي بأيدينا[3].

وكذلك كتبه على رسم قريش؛ فقد قال عثمان ﷺ للرهط القرشيين الثلاثة: عبد الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام – إذا اختلفتم أنتم وزيد في شيء من القرآن (في الرسم) فاكتبوه بلسان قريش (أي بطريقتهم) فإنه إنما نزل بلسانهم ففعلوا، وهكذا احتفظت كلمة (التابوت) التي تكتب (التابوه) في المدينة، بشكلها المكي بتاء مبسوطة [4].

---

[1] – التفصيل في كتابنا من القرآن/77-79.

[2] – التوبة/100.

[3] – كتاب المصاحف/19.

[4] – كتاب المصاحف/19.

وقد تضافرت الروايات على أن عثمان ﷺ أرسل إلى حفصة زوج النبي ﷺ، أمينة المصحف المجموع في عهد أبي بكر والمودع لديها منذ وفاة أبيها عمر بن الخطاب، يطلب إليها أن ترسل به إليه، وطلب إلى زيد بن ثابت والثلاثة القرشيين أن ينسخوه في عدد من المصاحف.

ولا التفات إلى رواية أحادية جاء فيها أن عثمان ﷺ جمع مصحفاً ثم عرضه على الصحف التي كانت عند حفصة ﷺ؛ إذ لا يسوغ في منطق العقل أن يعيد عثمان عملاً فرغت الأمة منه فضلاً عن أنه لن يظفر بإجماع الصاحبة الذين ظفر بهم مصحف أبي بكر لقلة عددهم إذ ذاك بعد أن استشهد منهم من استشهد.

ولعل مستند هذه الرواية، رواية أخرى أو هي منها سنداً جاء فيها أن حفصة ﷺ حين أرسل إليها عثمان ﷺ يطلب الصحف أبت أن تدفعها إليه، حتى عاهدها ليردنها إليها فبعثت بها أخيراً[1].

وتصيد المستشرقون رواية الامتناع هذه، ليعللوا سبب المنع بأن حفصة قد ورثت هذه الصحف عن أبيها ذمة مالية شخصية إذ أن المصحف الذي بدأه أبو بكر في حياته لم ينته إلا في عهد عمر لقصر حياة أبي بكر في الخلافة، ومن ثم رجحت لدويهم رواية أن عمر هو أول من جمع القرآن على حد ما زعمه ابن سعد في (الطبقات).. وأن دوافع هذا الجمع لدى أبي بكر بمشورة عمر كانت الرغبة في تملك نسخة من القرآن حتى لا يكون رئيس الجماعة في وضع أقل من بعض الصحابة الذين يملكون نسخاً منه، فكلفا أحد كتاب الوحي ممن سبق أن استخدمهم مُحَمَّدا ﷺ في هذه الوظيفة بأن يهيئه لهما.. ولم يكن في ذهن أبي بكر وعمر أمر فرض مصحف إمام على جماعة المؤمنين [2].

وهكذا أراد المستشرقون أن يضفوا طابع الشخصية على هذا العمل ليجردوا هذا المصحف من كل ما تميز به من صفة التواتر وقطيعة الثبوت، ليستوي مع غيره من مخطوطات الصحابة، وبالتالي فليس هو أولى منها بالالتزام والمتبعة [3]. حتى إذا جاء عثمان ليفرض مصاحفه التي حوت ما كان في مصحف أبي بكر وعمر، مع ما ضمه إليها من مقطوعات ظلت مبعثرة أو محفوظة غيباً — لم يستطع ذلك دون مقاومة؛ فإن الصحابة الذين بذلوا أنفسهم في خدمة مُحَمَّد ﷺ حتى التضحية بالنفس مثل ابن مسعود قد شعروا بالجور إذ تبينوا أن نصوصهم لم تعتمد أساساً للمصحف الرسمي [4].

---

[1] – راجع المدخل إلى القرآن: بلاشير/33-36، وقارن بالقرآن لبلاشير/30.

[2] – انظر المدخل إلى القرآن: بلاشير/33-36، وقارن بالقرآن لبلاشير/30.

[3] – تاريخ القرآن د. عبد الصبور شاهين/110.

[4] – القرآن (بلاشير) /34، 35.

وكان وراء هذه المزاعم روايات أوردها ابن أبي داود تشير إلى أن ابن مسعود ﷺ عارض أمر عثمان ﷺ، وأمر الناس في الكوفة أن يتمسكوا بمصحفه وقال: كيف تأمروني أن أقرأ زيد بن ثابت، وقد قرأت من (في) رسول الله ﷺ بضعاً وسبعين سورة، وإن زيد بن ثابت ليأتي مع الغلمان له ذؤابتان [1].

وعلى الرغم من توهين العلماء لهذه الروايات التي صورت معارضة ابن مسعود – فإن أقصى ما تشير إليه أنه عارض هذا العمل لظنه أن المصحف عمل جديد، انفرد به زيد، وكيف يعزل هو عنه؟ وهو أولى به منه لسبقه في الإسلام وقدمه في الأخذ عن فم رسول الله ﷺ، حتى إذا أيقن أن هذا المصحف نسخة مما جمعه أبو بكر ﷺ، ولم ينفرد زيد بنسخه بل ففيه آخرون طابت نفسه وأعلن رضاه وموافقته [2].

ولا يعني المستشرقين إن وافق ابن مسعود، أو ظل على معارضته، فإن الروايات أمكنتهم أن يديروا حديثهم على نحو ما سبق وأن ينكروا على عثمان عمله واعتبروه (عتكا للقدسيات بإتلاف المصاحف التي سجل عليها الأتقياء التي جمعت عن لسان مُحَمَّد نفسه وفي حياته)[3].

روايات وشبهات حول القراءات

زعم المستشرقون أن ما فعله عثمان بمصاحف الصحابة لم ينه مشكلة الاختلاف حول النص القرآني، فإن ما نجا من هذه المصاحف مدوناً أو محفوظاً ظل يعارض بوجوهه المختلفة نصوص مصحفه ويقفنا على مدى الحرية التي منحها مُحَمَّد لأصحابه في قراءة نصوص بمقتضى نزوله على سبعة أحرف، فلم يكن نص القرآن بحرفه المهم، وإنما المهم هو روحه، وأن القراءة التي تقوم على الترادف المحض أمر لا باس به.

ومن هنا وجدت نظرية (القراءة بالمعنى) لديهم ما يسوغها في هذه الأحرف السبعة، وكانت ولا شك أخطر النظريات في تاريخ القرآن، إ ذ كانت تكل تحديد النص إلى هوى كل إنسان [4].

وكلما اندمجت في كيان المجتمع الإسلامي عناصر غير عربية كانت الوجوه المختلفة تتكاثر حتى نشأت طائفة منها على أساس المصحف العثماني لخلوه من النقط والشكل، إذ كان القارئ ينقط ويشكل النص على ما يختار من حروف (الهجاء) والشكل حسب ما يتراءى له من معنى الآيات.

---

[1] – المصاحف/16.

[2] – المرجع السابق/18.

[3] – القرآن، بلاشير/31.

[4] – انظر المدخل إلى القرآن. بلاشير/69، 70، وانظر مقدمة كتاب المصاحف آرثر جفري/7.

هكذا صور المستشرقون (قضية القراءات) على أنها اختيار محض، وتصرف غير مسئول في ألفاظ القرآن ومعناه، وأثاروا من خلال هذا التصور شكوكاً حول النص القرآني المسجل في صحة معناه، وسلامة ألفاظه من التحريف والتبديل.

وأيدوا هذه المزاعم بروايات تصيدوها من هنا وهناك، كتلك التي رووها عن عمر ﷺ من قول النبي ﷺ (القرآن كله صواب ما لم تجعل مغفرة عذاباً، أو عذاباً مغفرة). وعن أبي هريرة ﷺ من قول النبي ﷺ (اقرءوا ولا حرج ولكن لا تختموا ذكر رحمة بعذاب، ولا ذكر عذاب برحمة) [1].

كما رووا عن أبي شامة قوله: أنزل القرآن أولاً بلسان قريش ومن جاورهم من العرب الفصحاء، ثم ابيح للعرب الآخرين أن يقرءوه بلغاتهم على اختلافهم في الألفاظ والإعراب [2].

وساقوا لتعزيز هذه المزاعم نصوصاً كتلك التي نسبوها إلى أنس ﷺ فيما حكاه الأعمش، قال: سمعت أنس بن مالك يقرأ (لولوا إليه يجمزون) فقيل له: وما (يجمزون) إنما هي (لولوا إليه يجمحون)، فقال: يجمحون، ويجمزون، ويشتدون واحد [3].

وما حكاه الأعمش كذلك عن أنس أيضاً قال: قرأ أنس (وأصوب قيلاً) له يا أبا حمزة إنما هي (وأقوم قيلا) ، فقال: إن أقوم وأصوب وأهيأ واحد [4].

وكتلك التي نسبت إلى مالك ﷺ فيما حكاه ابن وهب قال: قيل لمالك: أن يقرأ بمثل ما قرأ به عمر بن الخطاب ﷺ (فامضوا إلى ذكر الله)، قال: ذلك جائز، فإن الرسول ﷺ قال: أنزل القرآن على سبعة أحرف، فاقرءوا ما تيسر منه [5].

وما نسب إلى ابن مسعود ﷺ فيما رواه أبو عبيد من طريق عون ابن عبد الله أن ابن مسعود أقرأ رجلاً (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) فقال الرجل (طعام اليتيم) فرددها فلم يستقم بها لسانه فقال: أتستطيع أن تقول (طعام الفاجر)؟ قال: نعم، قال: فافعل [6].

كذلك ما نسب إلى ابن مسعود قراءة، أنه قرأ قوله تعالى:

(اهدنا الصراط المستقيم) [أرشدنا] [1].

---

[1] راجع هذه الروايات في مقدمة الطبري – تحقيق شاكر.

[2] – المرشد الوجيز: لأبي شامة/95.

[3] – الآية/57 من التوبة. انظر المحتسب لابن جني/72.

[4] – الآية/6 من المزمل. انظر المحتسب/162.

[5] – النص المتواتر (فاسعوا إلى ذكر الله) الجمعة /9، انظر المرشد /105.

[6] – الآيتان/43، 44 من الدخان. انظر الإتقان للسيوطي 135/1.

(ادع لنا ربك) [سل لنا ربك] [2].

(فولوا وجوهكم شطره) [وجوهكم قبله] [3].

(وجلت قلوبهم) [فرقت قلبوهم] [4].

* وكذلك ما نسب إلى أبي بن كعب قراءة، أنه قرأ قوله تعالى:

(كلما أضاء لهم مشوا فيه) [مروا فيه، مضوا فيه] [5].

(للذين يؤلون من نسائهم) [للذين يقسمون من نسائهم] [6].

(وجلت قلوبهم) [فرغت قلوبهم] [7].

* وكذلك ما نسب إلى ابن عباس ﷺ قراءة، أنه قرأ قوله تعالى:

(وإن عزموا الطلاق) [وإن عزموا السراح] [8].

(لمن أراد أن يتم الرضاعة) [أن يكمل الرضاعة] [9].

* كذلك ما نسب إلى علي ﷺ أنه قرأ قوله تعالى:

(لمن أ راد أن يتم الرضاعة) [أن يكمل الرضاعة] [10].

(فمن خاف من موص جنفاً) [من موص حيفاً] [10].

(قد شغفها حباً) [قد شعفها حباً] [11].

---

[1] – الآية/6 من الفاتحة. انظر كتاب الشواذ لابن خالويه/25.

[2] – الآية /68 من البقرة. انظر البحر المحيط لأبي حيان 251/1.

[3] – الآية/44 من البقرة. انظر البحر 429/1.

[4] – الآية/2 من الأنفال. انظر البحر 457/4.

[5] – الآية/20 من البقرة. انظر البحر 90/1.

[6] – الآية 226 من البقرة. انظر البحر 180/2.

[7] – البحر 457/4.

[8] – الآية 227/ من البقرة، انظر البحر 183/2.

[9] – الآية /203 من البقرة، انظر البحر 213/2.

[10] – الآية/182 من البقرة، انظر البحر 24/2.

[11] – الآية/30 من يوسف، انظر البحر 301/5.

وكما أباح لهم الرسول ﷺ أن يقرءوا اللفظ بمرادفه في المعنى فقد استباحوا لأنفسهم أيضاً – في نطاق هذه الحرية – أن يزيدوا في النص القرآني ما يجعله كثر وضوحاً أو ينقصوه ليصححوا منه ما كانوا يعتقدون أنه غير صحيح، واستدلوا لذلك بما أورده أبي داود في (كتاب المصاحف) من قوله: في مصحف أبي وقراءته (إن الصفا والمروة من شعائر الله، فمن حج البيت، أو اعتمر فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما) بزيادة (لا) [1].

وفي مصحف ابن مسعود، وابن عباس، وقراءتهما (لا جناح عليكم أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج) بزيادة (في مواسم الحج) [2].

وفي مصحف ابن عباس وقراءته (إنما ذلكم الشيطان يخوفكم أولياءه) بزيادة الضمير في (يخوفكم) [3].

وفي مصحف ابن عباس أيضاً وقراءته (وشاورهم في بعض الأمر) بزيادة (بعض) [4].

وفي مصحف ابن عبسا أيضاً وقراءته (ولا جناح عليكم فيما استمتعتم به منهن إلى أجل مسمى) بزيادة (إلى أجل مسمى) [5].

وفي مصحف عبد الله بن الزبير وقراءته (فيصبح الفساق على ما أسروا في أنفسهم نادمين) بزيادة (الفساق) [6].

وفي مصحف عائشة، وحفصة وأم سلمة رضي الله عنهن، وقراءتهن (حافظوا على الصلوات، والصلاة الوسطي وصلاة العصر) بزيادة (وصلاة العصر) وفي الرواية (صلاة العصر) بدون عطف. وتأتي هذه الرواية مشفوعة بما ي نسب إلى أبي، أو زيد بن ثابت – شك من الراوي – من قوله: هو (كذلك) أو ليس أشغل ما نكون عند صلاة الظهر في عملنا ونواضحنا [7].

وروى ابن أبي داود قال: عن ابن أبي جرة قال: كان ابن عباس رضي الله عنه يقرأ (فإن آمنوا بالذي آمنتم به فقد اهتدوا).

---

[1] – الآية 158/ من البقرة، انظر كتاب المصاحف/853.

[2] – الآية /198 من البقرة، انظر كتاب المصاحف/54، 74.

[3] – الآية/175 من آل عمران، انظر كتاب المصاحف /74.

[4] – الآية/159 من آل عمران، انظر كتاب المصاحف/75.

[5] – الآية /24 من النساء، انظر كتاب المصاحف /81.

[6] – الآية/52 من المائدة، انظر كتاب المصاحف/82.

[7] – الآية/238 من البقرة، انظر كتاب المصاحف/83-87.

وعن شعبة عن ابن أبي جمرة قال: سمعت ابن عباس يقول: لا تقولوا (بمثل) فإن الله ليس له (مثل)و، قولوا: (فإن آمنوا بالذي آمنتم به) [1].

ولا بأس عليهم كذلك أن يخالفوا نظم النص وترتيب كلمة ما دام لا يخل بالمعنى، واستدلوا لذلك أيضاً بما رواه ابن أبي داود من قوله: عن شعبة عن أبي نوفل بن أبي عقرب قال: سمعت ابن عباس رضي الله عنه يقرأ في صلاة المغرب (إذا جاء فتح الله والنصر) [2].

وفي قراءة عبد الله بن مسعود (كذلك يطبع الله على قلب كل متكبر جبار) [3].

وفي البرهان: قرأ أبو بكر ﷺ (وجاءت سكرة الحق بالموت) [4].

وبهذا انتهى المستشرقون إلى ما أرادوا من التشكيك في سلامة النص وقراءاته، ولئن شهد القرآن على غيره من الكتب السابقة بالتحريف؛ فإن ما أصابه لم يكن اقل منها في ذلك.

وكان هذا الحصاد المر بعض غراسنا في منابت الغفلة حينا والتساهل حينا، ولو أن الذين تناولوا قضية الأحرف السبعة والقراءات تحروا فيها أصح الروايات، واحتكموا فيما أشكل عليهم من أمرها إلى منطق سديد، لبلغنا من أمرنا هذا رشداً.

ولكن بعض الذين فسروا الأحرف السبعة حطبوا فيها بليل، فبلغت أقوالهم فيها قرابة أربعين قولاً جمعها السيوطي في (إتقانه) وكان هذا (السيلان) الفكري بعض المشكلة بعض الآخرة فيما نقرره دفعاً لما أثارته من شبهات.

ولئن أعجلنا البحث عن أن نعرض لهذه الأقوال بالتفصيل فلا مناص من أن نلم بطرف منها لنقف على مدى الوهم الذي لف هذه القضية فيما يتصل بنظرية (القراءة بالمعنى).

جاء في تفسير الأحرف السبعة أنها سبعة وجوه من الخلاف عد منها (ابن قتيبة).

* لاختلاف في الكلمة بما يغير صورتها في الكتابة ولا يغير معناها كقوله تعالى: (إن كانت إلا صيحة) (إن كانت إلا زقية).

* الاختلاف بالتقديم والتأخير كقوله تعالى: (وجاءت سكرة الموت بالحق) (سكرة الحق بالموت).

* الاختلاف بالزيادة والنقصان كقوله تعالى: (إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة أنثى) [1].

---

[1] – النص (فإن آمنوا بمثل ما آمنتم به) /137 من البقر، انظر كتاب المصاحف/ 76.

[2] – الآية (إذا جاء نصر الله والفتح) من النصر، انظر المصاحف/81.

[3] – الآية (على كل قلب)/35 من سورة غافر، انظر المصاحف/70.

[4] – الآية (سكرة الموت بالحق) 19 من سور (ق)، انظر البرهان 235/1.

وعد منها (أبو الفضل الرازي):

* الإبدال مقوله تعالى: (فاسعوا إلى ذكر الله) (فامضوا إلى ذكر الله).

وعد منها (ابن الجزري):

* الاختلاف في المعنى والصورة كقوله تعالى: (وامضوا حيث تؤمرون) (واسعوا حيث تؤمرون).

وعد منها (أبو بكر بن الطيب):

* ما تتغير صورته ويبقى معناه كقوله تعالى: (كالعهن المنفوش) (كالصوف المنفوش).

وعد منها (الدكتور صبحي الصالح):

* الاختلاف بإبدال كلمة بكلمة كقوله تعالى: (كالعهن المنفوش) (كالصوف المنفوش)[2].

وهم بهذا التصنيف والتمثيل يعدون هذه الوجوه المتقابلة كلها من الوحي المنزل بمقتضى الحديث (نزل القرآن على سبعة أخرف) وبعضها كما ترى من الترادف.

وينسى ابن الجوزي – وهو أحد من صنفوا هذه الوجوه – أنه قرر في (نشره) أن من يقول إن بعض الصحابة كابن مسعود كان يجيز القراءة بالمعنى فقد كذب عليه .. نعم كانوا ربما يدخلون التفسير في القراءة إيضاحاً وبياناً، لأنهم محققون لما تلقوه عن النبي ﷺ قرآناً، فهم آمنون من الالتباس، وربما كان بعضهم يكتب معه [3].

ونعزز ما كان من أمر هذه الإضافات التفسيرية بما رواه الشهاب الخفاجي عن مصحف ابن عباس (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وهو أب لهم). فمر عمر ﷺ على غلام يقرءها هكذا، فقال للغلام: حكها من صحيفتك، حيث ضل الغلام فلم يميز بين التنزيل والتفسير [4].

ولقد رفض كثير من العلماء عد هذه المترادفات من الوحي المنزل، وتردد في قبولها آخرون، وتسامحوا في عدها من الآحاد – على فرض صحتها – لكنها في مواجهة المتواتر تعد باطلة.

وقد أضاف السيوطي إيضاحاً لهذه القضية حين قسم رواية القرآن إلى متواتر، ومشهور، وآحاد، وشاذ، وموضوع، ثم قال: وقد ظهر لي سادس يشبه من أنواع الحديث (المدرج)، وهو ما زيد على

---

[1] – راجع تأويل مشكل القرآن: ابن قتيبة/37، 38 تحقيق السيد صقر.

[2] – راجع مباحث في علوم القرآن د. الصالح/110.

[3] – النشر 32/1.

[4] – راجع: نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض 303/1.

النص على وجه التفسير، ومثل له بقراءة سعد بن ابي وقاص (وله أخ أو أخت من أم)، وقراءة ابن عباس (ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج).

وأخرج عن الحسن أنه كان يقرأ (وإن منكم إلا واردها – الورد الدخول).

قال الأنباري: قوله: الورود – الدخول تفسير من الحسن لمعنى الورود، وغلط الرواة فأدخله في القرآن [1].

ومن ثم كان عجبنا من صنيع هؤلاء العلماء في عد هذه وأمثالها من وجوه الأحرف السبعة.. وما هي منها في شيء.

ويزداد عجبا ممن يحاول الدفاع عن تلك الروايات فيقول: (ونحن على يقين من أن هذه الأوجه كانت مجازة من النبي ﷺ قراءة ولكنها انتهت بجمع عثمان ﷺ، فلم يعد من حق أحد أن يقرأ بها، وإنما تذكر من باب التفسير دون التلاوة، وذلك هو الشأن في كل ما ورد في مصاحف الصحابة من تغيير بالزيادة) [2].

فأي يقين هذا بعدما تقرر من بطلان قرآنيتها؟

ثم إن الذين فسروا الأحرف السبعة بسبعة وجوه من الاختلاف اختلفوا فيما بينهم في تصنيف هذه الوجوه، وكأن اللاحق منهم رأى في استقراء من سبقه نقصاً حمله على أن يسلك في طريقه استقرائه لها سبيلاً مخالفاً له.

والمتتبع لهذه التصانيف عند الرازي، وابن قتيبة، وابن الجزري وابن الطيب، والدكتور الصالح يجد اتفاقاً في بعض الوجوه واختلافاً في بعضها الآخر مما يدل على أن يمكن الزيادة على سبعة أوجه، بمعنى أننا إذا أضفنا مجموع ما اتفقوا عليه إلى مجموع ما اختلفوا فيه بلغت عدة الوجوه أكثر من سبعة، وليس واحد من هذه التصانيف أولى بالقبول من غيره؛ إذ أن كل واحد منها جاء عن استقراء ناقص في نظر مخالفه [3].

هذا – وقد جاء أيضاً في تفسير الأحرف السبعة أنها سبع لغات من لغات العرب، واختلف القائلون بهذا الرأي في تحديد هذه اللغات السبع، وفي كيفية وقوعها في النص القرآني. فقال ابن جرير الطبري: هن سبع لغات في حرف واحد وكلمة واحدة باختلاف الألفاظ واتفاق المعاني كقول القائل:

---

[1] – الإتقان 77/1.

[2] – راجع: تاريخ القرآن د. شاهين/89.

[3] – راجع: كتابنا من قضايا القرآن/ 26-31.

هلم، وتعال، وإليّ، وقصدي، ونحوي، وقربي، ونحو ذلك مما تختلف فيه الألفاظ بضروب من النطق، وتتفق فيه المعاني وإن اختلفت بالبيان به الألسن، كالذي روينا عن رسول الله ﷺ من حديث ابن أبي بكرة نفيع بن الحارث الثقفي عن أبيه قال: قال جبريل: اقرءوا القرآن على حرف، فقال ميكائيل: استزده، فقال: على حرفين حتى بلغ ستة أو سبعة أحرف، فقال: كلها شاف كاف، ما لم تختم آية عذاب برحمة، أو آية رحمة بعذاب، كقولك هلم وتعال) [1].

وظاهر هذا القول أنه يفيد جواز القراءة بالمعنى، وكذا ما تعقب به هذا القول من أن ما جاء في هذا الحديث ليس من قبيل حصر الأحرف السبعة فيها وفي نوعها حتى يصح الاستدلال بها على هذا المذهب، بل هي كما قال ابن عبد البر – من قبيل ضرب المثل للحروف التي نزل عليها القرآن من أنها معانٍ مت فق مفهومها، مختلف مسموعها لا يكون في شيء منها معنى وضده، ولا وجه يخالف معنى وجه خلافاً ينافيه ويضاده كالرحمة التي هي خلاف العذاب وضده [2].

وراح المستشرقون يؤكدون من خلال هذه النصوص نظريتهم في (القراءة بالمعنى).

وبقدر ما أسعدت هذه الروايات جماعات المستشرقين، فقد أساءت إلى كثير من الباحثين حتى عدها بعضهم أساطير يجب أن تزول من تاريخ القرآن احتراماً لإعجاز اللفظ القرآني وبلاغة معناه في سياقه.

وإن شيئاً من الفطنة والذوق السليم يدلان على أن لفظ (هلم) لا يتفق في مدلوله مع ما ساقه ابن جرير م ألفاظ زعم أنها مرادفة له من مثل (أقبل، وتعال، وإليّ، وقصدي، ونحوي، وقربي) فضلاً عما بين هذه الألفاظ من تفاوت في المعنى، فأين لفظ (قربي) الذي يدعو أن شيئاً أو شخصاً بقرب آخر، من لفظ (إليّ) الذي يعني النداء مع شيء من اللهفة؟، وأين لفظ (تعال) من لفظ (نحوي)؟ ألسنا نقول: (تعال نحوي) فنفيد الذي يفيده لفظ (تعال) وحده [3].

فأي إعجاز يبقى للقرآن مع ألفاظ يأتي بها بشر ما لا يحكم معناها، ولا تستقيم في سياقها؛ كأن يضع كلمة (فاجر) مكان (أثيم) في قوله تعالى: (إن شجرة الزقوم طعام الأثيم) على نحو ما نسب إلى ابن مسعود من أنه أجاز لأعرابي يعلمه أن يفعل ذلك، ولنا مع هذه الرواية وقفة أخرى.

---

[1] – راجع: مقدمة تفسير الطبري 57/1 وما بعدها.

[2] – راجع: البرهان 221/1، الإتقان 168/1.

[3] – راجع: (عن القرآن): صبيح /124.

وهل الأحرف السبعة شيء من هذا العبث والاستخفاف اللذين سوغا لأعرابي أن يقرأ (إنا بعثنا نوحاً إلى قومه) فقيل له إنما هو (إنا أرسلنا نوحاً إلى قومه) [1]. فقال: ما بينهما إلا لجاجك..؟

وأين منه إنكار النبي ﷺ على البراء بن عازب حين علمه دعاء، جاء فيه (ونبيك الذي أرسلت) فقال البراء (ورسولك الذي أرسلت) فقال الرسول ﷺ: لا، ولكن (نبيك) وأنكر عليه أن يستبدل لفظ الرسول بلفظ النبي مع كليهما حق لا يحيل معنى، إلا أن يكون لكلمة (نبي) موقع في هذا السياق ليس لكلمة (رسول) حمل النبي ﷺ على منع هذا الاستبدال [2].

الحق أن الأحرف السبعة ليست شيئاً من هذا التبديل والتغيير، ولا هي بالتالي مستمسكاً صالحاً لما روجه المستشرقون من نظرية القراءة بالمعنى.

ولعل الذي رأيناه في تفسيرها يؤكد هذه الحقيقة ويستقيم بها على وجه مقبول يسيغه المنطق ولا تنكره الآثار.

إن تفسير هذه الأحرف لا يتأتى إلا في ظل معطيات نصوصها، وملابسات أحداثها، وإن من أوضح تلك النصوص فيها حديث أبي بن كعب من رواية أبي كريب (لقي النبي ﷺ جبريل عند أحجار المراء فقال: إني بعثت إلى أمة أميين منهم الغلام والخادم، والشيخ العاني، والعجوز، فقال جبريل: فليقرءوا على سبعة أحرف) [3].

فهذا الحديث بمنطوقه يشير إلى أن الرسول ﷺ بعث إلى أمة أمية من أفرادها من يعجز عن أداء النص القرآني على النحو المنزل وانه يسأل الله أن ييسر عليهم أداءه فأجيب إلى طلبه على أوسع ما يكون التيسير.

وأن هذا الحدث وقع بالمدينة؛ فأحجار المراء موقع بقباء خارج المدينة [4].

أما ملابساته فإن المجتمع المدني مجتمع غير متجانس بحكم تكوينه، وبسبب كثرة الوافدين إليه من الراغبين في الإسلام من أنحاء الجزيرة وخارجها [5]. وأن هذا الحديث كان – بداهة – بداية الترخيص بهذا التيسير، وقد عقب النبي ﷺ عل كل خلاف رفع إليه في قراءة القرآن – وإن كانت الروايات لم تبين لنا طبيعة هذا الخلاف، حتى يمكن الاستدلال منها على تفسير هذه الأحرف –كما ذكر به في

---

[1] – الآية /1 نوح.

[2] – راجع: مناهل العرفان للزرقاني 182/1.

[3] – لفظ الحديث لأبي أسامة وإسناده حسن صحيح. الطبري 35/1.

[4] – المرجع السابق.

[5] – تاريخ القرآن. د شاهين/42.

كل مناسبة اقتضت ذلك حتى تستفيض شهرة هذا التيسير ليقضي به على كل مماراة أو جدل حول القرآن.

وإذا أضفنا إلى ذلك بعض الحقائق اللغوية كتلك التي تتعلق باللغة التي نزل بها القرآن؛ أدركنا سر العجز عند هؤلاء العاجزين عن أداء النص القرآني. لقد توحدت لغة العرب في لغة (مثالية) اصطفتها قريش من لغات قبائل شتى، واصطنعها خاصتهم على اختلاف قبائلهم – لا عامتهم أداة التعبير في محافلهم وأسواقهم، ينشدون بها شعرهم، ويرسلون بها خطبهم. وتوافق الإسلام حين ظهوره مع تلك اللغة المصطفاة فنزل بها قرآن، فقوى من وحدتها، وزاد من شمولها، غير أن هذه الوحدة اللغوية لم تقض على ظاهرة تعدد اللهجات قبل الإسلام ولا بقائها بعده بل ظلت هذه اللهجات تؤدي دورها في القبائل أداة للتخاطب لمن لم يسعفه لسانه أن يتكلم بتلك اللغة المثالية.

وبإزاء ظاهرة تعدد اللهجات التي لا يمكن دفعها – وقد عجز العامة من الناس عن اصطناع للغة القرآن في تلاوة آياته لجأ النبي ﷺ إلى ربه يسأله التخفيف عنهم، فكانت الرخصة أن يقرءوه على ما تيسر لهم، ولم يكلفهم تلاوته بغير اللهجة التي جرت بها ألسنتهم [1].

وهذا ما لحظه جميع العلماء – على اختلاف اتجاهاتهم في تفسير الأحرف السبعة – سبباً في سن هذه الرخصة. قال أبو شامة لقد أبيح أن يقرأ القرآن بغير لغة قريش توسعة على العرب فلا ينبغي أن يوسع على قوم دون قوم، ولا يكلف أحد قدر استطاعته؛ فمن كانت لغته الإمالة، أو تخفيف الهمز أو الإدغام، أو ضم ميم الجمع، أو صلة هاء الكناية، أو نحو ذلك فكيف يكلف غيره؟.. وكذا من كان من لغته أن ينطق بالشين التي كالجيم في نحو (أدق) والصاد التي كالزاي في نحو (مصدر) ونحو ذلك بمنزلة الألثغ والأرت، لا يكلف ما ليس في وسعه، وعليه أن يتعلم ويجتهد [2].

وهذا الذي قاله أبو شامة، فقد سبقه إليه ابن قتيبة فقال: كان من تيسير (الله) أن أمر (النبي) بأن يقرئ كل قوم بلغتهم وما جرت عليه عادتهم، فالهذلي يقرأ (عتى حين) يريد (حتى حين) والأسدي يقرأ (تِعلمون) بكسر التاء المضارعة، والتميمي يهمز، والقرشي لا يهمز.. ولو أن كل فريق من هؤلاء أمر أن يزول عن لغته وما جرى عليه اعتياده طفلاً وناشئاً وكهلاً لاشتد ذلك عليه، وعظمت المحنة فيه.. فأراد برحمته ولطفه أن يجعل لهم متسعاً في اللغات ومتصرفاً في الحركات كتيسيره عليهم في الدين [3].

---

[1] – راجع: فقه اللغة د. صبحي الصالح/ 50، وفي اللهجات العربية: د إبراهيم أنيس/43.

[2] – المرشد الوجيز/97.

[3] – تأويل مشكل القرآن/ 39، 40.

غير أن العلماء حين يقرون ذلك لم يستخدموا المصطلحات اللغوية في حقيقتها، فنراهم يعبرون (باللغات) عن (اللهجات) – وهو إن كان جائزاً على سبيل المجاز – إلا أنه تعبير مضلل في هذا المقام، لأنه يخلط ببين مفهومين لغويين هما (اللغة واللهجة) والأمر يقتضي أن يكون التعبير بلفظ (اللهجة) لا (اللغة) ، ذلك أن الرخصة تيسير المشقة وهي مرتبطة باللهجات لا اللغات، إذ أن اللهجة: صفات صوتية تتعلق بطريقة أداء اللفظ وهي تختلف من قبيلة إلى قبيلة أخرى، كميل بعض القبائل إلى جهر الأصوات أو همسها، وشدتها أو رخاوتها، وفكها أو إدغامها، وتحقيق الهمزة أو تسهيلها، واختلاف الحركات سواء في بنية الكلمة أو إعرابها، وتلك الصفات هي التي يشق الانتقال منها إلى غيرها [1]. على حين تعني (اللغة: اختلاف الألفاظ ودلالتها) وتلك لا موجب لمراعاتها؛ لأن القرآن قد اصطفى ما شاء منها بعد أن استوعبته اللغة (المثالية) التي تمثلت فيها لغات العرب قاطبة، لا لغات قبائل معينة ينتصر لها بعض العلماء بلا دليل [2].

ومن هنا كان المقبول في تفسير الأحرف السبعة أن يراد بها (طرق الأداء التي تختلف بها لهجات العرب) على معنى أن القرآن أنزل على الترخيص للقارئ أن يقرأه على ما تيسر له من طريقته في الأداء دفعاً للمشقة عليه.

وإن لفظ (السبعة) لا يقف حائلاً دون التوسعة المطلقة، لأن الله جعل السبعة رمزاً إلى ما ألفوه من معنى الكمال في هذا العدد [3].

وقد نسب السيوطي إلى القاضي عياض بن عمرو اليحصبي أن لفظ (السبعة) ليس مراد به حقيقة العدد، وإنما يراد به الكثرة في الآحاد ككثرة السبعين في العشرات، والسبعمائة في المئين [4].

ويؤنسنا في أن لفظ (السبعة) يعني السعة المطلقة ما جاء عن ابن عباس ﷺ أن النبي ﷺ كان يقرئ الناس بلغة واحدة فاشتد عليهم ذلك، فنزل جبريل فقال: يا مُحَمَّد أقرئ كل قوم بلغتهم[5].

ويذهب بعض العلماء إلى أبعد منذ لك من أن الحروف السبعة ليست مقصورة على اللهجات العربية، بل لهجات المسلمين في جميع بقاع العالم إلى يومنا هذا؛ فالمسلم أيا كانت لهجته وأيا كانت بيئته

---

[1] – اللهجات: أنيس /16-19.

[2] – علوم القرآن: الصالح /113-115.

[3] – انظر إعجاز القرآن للرافعي/68.

[4] – الإتقان 131/1.

[5] – المرشد الوجيز/96، 97.

يستطيع أن يقرأ القرآن بالقدر الذي تعودته عضلات صوته في نطقه بلهجته دون نكير عليه أو استهزاء به [1].

ولا أحسب ذلك إلا أن يكون في نطاق اللغة العربية، ومن فحوى روح الإسلام في التيسير عل العاجزين، ولا برخصة الأحرف في القراءات المسنونة.

ولا تعني هذه السعة حرية التصرف في الأداء بمقتضى اللهجات دون توقيف من النبي ﷺ، فقد راقب النبي ﷺ هذه اللهجات فأجاز منها أفصحها، ورد مما يهبط بالنص القرآني عن مستوى فصاحته كالكشكشة القيسية – التي تجعل كاف المؤنث شيناً – مثل: جعل ربش تحتش سريا، في قوله تعالى: (جعل ربك تحتك سريا) والعنعنة التميمية – التي تجعل همزة (أن) عيناً مثل: عسى الله عن يأتي بالفتح، في قوله تعالى: (عسى الله أن يأتي بالفتح) [2].

وكان ما أقرأ به الرسول ﷺ، وما أجازه للقراء من الصحابة أن يقرئوا به من اللهجات يستوي هـ وما ينزل عليه النص القرآني من لغته المثالية في التلاوة بأي منهما، وكلاهما سنة متبعة.

أما ما كان وراء هذه اللهجات، من عجز ذاتي فكانت رخصته إقراراً من الرسول ﷺ، لا إقراءً، وهي رخصة مؤقتة تزول بزوال مقتضياتها، متى قدر أ صحابها على الأداء الأمثل بالمران والتعلم [3].

وقد ضبط الرسول ﷺ مدى التيسير بما لم يبلغ به العجز – ذاتياً أو لهجياً – إلى اختلاف المعنى المنزل.

ولعل هذا المعيار هو ما جعل ابن مسعود ﷺ يرد قراءة الرجل الذي استحال لفظ (الأثيم) على لسانه إلى لفظ (اليتيم) فقد أبدل الهمزة ياء، على حد قول الراجز حكيم بن معية الربعي.

لو قلت ما في قومها لم تيثم بفضلها في حسب وميسم

أراد (لم تأثم) مع ملاحظة أن (أثيم) على صيغة (فعيل) وهي من الصيغ التي تكسر أوائلها في لهجات بعض العرب.

كما أبدل الثاء تاء على قول السموأل أحد يهود بني خيبر

ينفع الطيب القليل من الرز ق، ولا ينفع الكثير الخبيث

---

[1] – د. إبراهيم أنيس – اللهجات/57.

[2] – راجع المرشد /101، 131.

[3] – علوم القرآن د. الصالح/108.

وقد سأل الخليل الأصمعي عن (الخبيت) في هذا، فقال: أراد الخبيث، وهي لغة خيبر [1].

فأحال الرجل باصطناع تلك اللهجات المعنى المنزل من الإثم إلى اليتم. وأراه مسعود مبلغ اختلال فقال له: وأين اليتيم من الفاجر؟

وهذا ما يمكن أن تحمل عليه هذه الرواية، لا على أنه أمره أن يضع كلمة (الفاجر) مكان (الأثيم). ومن قال غير ذلك فقد كذب على ابن مسعود، وأساء فهم الرخصة في الأحرف السبعة.

وقد نلتقي مع أحد الباحثين في أن رخصة الأحرف كانت مباحة في المشافهة لا في التسجيل، فلم يسجل الرسول ﷺ سوى النص القرآني بلغته المثالية التي نزل بها؛ لاستحالة ضم اللهجات في رمز خطي [2]، فضلاً عن أن التسجيل في مكة سابق على رخصة الأحرف إذا لحظنا أن الرخصة بها شرعت في المدينة بعد الهجرة.

وينبغي في هذا المقام – إيضاحاً لهذه القضية – أن نؤكد الفرق بين القرآن، والقراءات في ضوء الأقدمون من أن القرآن والقراءات حقيقتان متغايرتان؛ فالقرآن هو الوحي المنزل على النبي ﷺ للهداية والإعجاز، والقراءات هي اختلاف كيفية الأداء لألفاظ الوحي المنزل [3]. وبالنسبة للمصدر فالقرآن من الوحي، والقراءات من السنة. وعلى هذا، إذا تجاوز الاختلاف في النص القرآني كيفية الأداء إلى الحذف والإثبات كقوله تعالى: (تجري من تحتها الأنهار) و (وتجري من تحتها الأنهار) [4]. بزيادة (من)، أو اختلاف الحروف كقوله تعالى: (إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا) و (فتثبتوا) [5]، وثبت بالتواتر فهو من القرآن، لا من القراءات، ويحمل على أنه نزل بالأمرين جميعاً، سجله النبي ﷺ على الصورتين ليقرأ أحدهما على البدل من صاحبه [6]. ومن ثم كانت تسمية مثل هذه النصوص بالقراءات غير دقيق.

ومن ثم كان ما أشير إليه من وجوه الخلاف التي صنفوها تفسيراً للأحرف السبعة إما أن تنتظمه اللهجات كاختلاف الحركات في بنية الكلمة أو بعض الإعراب، وإما أن يكون قرآنا ثبت بالتواتر فهو من الوحي المنزل ابتداء غير مرتبط بحديث الأحرف السبعة، وإما أنه لم يثبت تواتره، فلا يكون من القرآن ولا من قراءاته.

---

[1] – راجع في هذا الإبدال لسان العرب مادة (أثم، وخبث) المجلد الأول/22، 781 إعداد يوسف خياط.

[2] – تاريخ القرآن د. شاهين/54، 55.

[3] – راجع: البرهان 218/1.

[4] – التوبة /100.

[5] – الحجرات /6.

[6] – المرشد الوجيز /138.

وفي ضوء هذه الحقائق تكون رخصة الأحرف السبعة مقصورة على طرق الأداء، وهذا الأداء ليس إلى غايته من الحرية، بل هو موقوف على إقراء النبي ﷺ، أو إقراره، ومشروط بألا يحيل معنى منزلاً.

وأن هذه الرخصة لا علاقة لها بالنص القرآني على نحو ما ذهب إليه المستشرقون من حرية التصرف فيه بإبدال اللفظ بمرادفه، أو زيادة في النص أو نقص منه، أو مخالفة في نظمه وترتيبه مما أطلقوا عليه نظرية (القراءات بالمعنى). وأن نسبة هذه المرويات إلى القراءات وهم روج له المستشرقون لينالوا من القراءات، وما هي من القراءات في شيء لأنها ليست اختلافاً في الأداء، ولا هي أيضاً من القرآن لأنها ليست بمتواترة القرآنية.

وإذا انتفت عن هذه المرويات قرآنيتها، فلا موضع لها إذاً في الدرس القرآني إلا على أنها وجوه من التفسير – إن صحت روايتها – زادها أصحاب هذه المخطوطات من الصحابة رضوان الله عليهم بجانب النص القرآني لبيان مجمل، أو تقدير محذوف، أو تفسير لفظ بمقتضى فهمهم لأسباب النزول ومقاصد التشريع.

غير أن هذا العمل – على نبل مقصده – قد ترك آثاراً سلبية على النص القرآني حين توهم ورثة هذه المخطوطات، أو الآخذون عنها أن كل ما فيها هو من ألفاظ الوحي المنزل.

وكم كان مسيئاً إلى تاريخ القرآن أن تشيع نسبة هذه الإضافات إلى الوحي في كتب الأقدمين على أنها من الأحرف السبعة، ويتناقلها المحدثون دون تمحيص [1].

بقي أن نشير إلى وجوه الأداء الناشئة عن رسم المصحف بسبب خلوه من (النقط والشكل) على حد ما زعمه المستشرقون لنضعها في موضعها الصحيح من الدرس القرآني. ولا يتأتى لنا ذلك إلا إذ عرفنا ابتداء أن الخلو من النقط كان لاختصار إثبات التنزلات المتعددة للنص القرآني في لفظ واحد إذا احتملتها رسم واحد مثل (تبلو، وتتلو) إذا تصورت الرسم بدون نقط، أما ما لم يحتمله رسم واحد فقد فرق على المصاحف فأثبت في بعضها على صورة، وفي بعضها الآخر على صورة أخرى [2].

وكان خلوه من (الشكل) وهو ضبط الكلمة سواء في بنيتها التصريفية، أو حركتها الإعرابية؛ ليتسع لوجوه الأداء المختلفة باختلاف اللهجات. وهو ما قصرنا عليه فهم الأحرف السبعة – حتى لا يضيق على الناس ما وسع الله به عليهم من رخصة التيسير في الأداء باختلاف اللهجات وصار فينا سنة متبعة

---

[1] – راجع كتابنا من قضايا القرآن/76.

[2] – راجع كتاب المصاحف/ 40-49.

يسعنا كما وسع السابقين وذلك مثل قوله تعالى: (أو جذوة من النار) بفتح الجيم لأهل الحجاز وبها قرأ عاصم، وبالضم لبني تميم وبها قرأ حمزة، وبالكسر لأسد وبها قرأ باقي السبعة [1].

ولم يترك عثمان ﷺ النص القرآني ولا قراءته لهوى الناس، بل أرسل مع كل مصحف مقرئاً له فكان زيد بن ثابت مقرئاً (للمدني)، وعبد الله بن السائب مقرئاً (للمكي)، والمغيرة بن شهاب مقرئاً (للشامي)، وأبو عبد الرحمن السلمي مقرئاً (للكوفي)، وعامر بن عبد القيس مقرئاً (للبصري) [2].

---

[1] – البحر المحيط 322/6.

[2] – راجع مناهل العرفان 396/1.

وكان ذلك ضرورياً لأمرين:

الأمر الأول: مخافة أن ينشئ الرسم وجوهاً من الأداء ليست مرادة بسبب ما بين الرموز والأداء من تفاوت في بعض الألفاظ، مثل (والأميين) فقد رسمت (والأمين) بياء واحدة [1].

ومثل (النبيين) فقد رسمت (النبين) بياء واحدة [2].

ومثل (لأذبحنه) فقد رسمت (لااذبحنه) بزيادة ألف [3].

ومثل (والسماء بنيناها بأيد) فقد رسمت (بايد) بيائين [4].

وتبلغ عدة هذه الألفاظ قرابة (مائتين وأربعين) لفظاً [5].

الأمر الثاني: حمل أهل كل مصر على أن يقرءوا مصحفهم الذي وجه إليهم على ما كانوا يقرءون قبل وصول المصحف إليهم مما يوافق خط المصحف، وأن يتركوا من قراءتهم التي كانوا عليها ما يخالف خط المصحف. فترك الناس من القراءات ما يبدو عند الأداء مخالفاً لرسمه بحكم ما كان يقضي به قانون اللهجات العربية من إيثار بعض الأصوات على بعض، كإيثار اليدوي للأصوات الواضحة في السمع على ما دونها، فإذا قرأ الحضري:

(من بقلها وقثائها وفومها) بالفاء.

قرأ البدوي (من بقلها وقثائها وثومها) بالثاء.

والأولى لغة أهل الحجاز، والثانية لغة بني تميم [6].

وهكذا ترك الناس قراءات كثيرة صحيحة لا يحتملها الرسم العثماني إيثاراً للعافية، ووحدة الكلمة، وتقريباً بين اللهجات [7].

ووسمت هذه القراءات بالشذوذ في اصطلاح القراء لمخافتها رسم المصحف – على الرغم من صحتها في ذاتها سنداً –؛ وبذلك صار المصحف حكماً على القراءات لا منشئاً لها كما يدعي المستشرقون.

---

[1] - 20/3.

[2] - 21/3.

[3] - 21/27.

[4] - 47/51.

[5] - راجع كتاب المصاحف /105-116.

[6] - القرطبي 331/1، لهجات: أنيس /112.

[7] - مقدمة حجة قراءات أبي زرعة/10، الإبانة/10، المرشد/53، 54.

وظل الناس يقرءون في تلك المصاحف ويأخذون عنها قرابة أربعين سنة وذلك من زمان عثمان ﷺ إلى أيام عبد الملك بن مروان فكثر التصحيف على ألسنتهم باعتمادهم على المصحف دون الرجوع إلى الثقات من القراء؛ فظهرت وجوه من الأداء (مصحفة) قرأ بها أهل الأهواء والبدع من الرافضة كقراءة بعضهم (وما كنت متخذ المضلين عضداً) (المضلين) بالتثنية: يريد أبا بكر وعمر – وقرأ العابثون من أهل الجهالة وجوهاً واضحة العبث كقول بعضهم:

* فغررنا بثالث، مكان (فعززنا بثالث).
* جعل السقاية في رجل أخيه، مكان (رحل أخيه).
* ذلك الكتاب لا زيت فيه، مكان (ذلك الكتاب لا ريب فيه).

كما قرءوا وجوهاً تشتبه بالمروي من القراءات، كقراءة بعضهم:

* فاليوم ننحيك ببدنك، مكان (ننجيك ببدنك) بالجيم من النجاة.
* تقية الله خير لكم، مكان (بقية الله خير لكم) بالباء الموحدة [1].

وبقيت هذه الوجوه – على الرغم من شيوعها على بعض الألسنة – غير معترف بها في الدرس القرآني؛ إما لوضوح العبث فيها، وإما لافتقارها إلى الرواية الصحيحة.

فكيف يتأتى لأي مستشرق – يحترم عقله – أن يتصور هذا العبث بعض قراءات القرآن؟

وكيف لهم جميعاً أن يتغافلوا عن منهج القراء في ضبط مسيرة القراءات وتاريخها، وتمييز صحيحها من فاسدها؟، وهو منهج بلغ من دقته ألا يقبلوا من القراءات – ون وافقت الرسم – إلا ما أيدها سند صحيح، ولا يكفي السند حتى توافق العربية.

وقد تضامنت هذه المقاييس الثلاثة وهي (موافقة الرسم، وصحة السند، وموافقة العربية) وتمكنت على يد كبار القراء مع بداية حركة الاختيار في القراءات فشكلت ضابطا صحيحاً في تمييز القراءات يعول عليه في قبولها أو ردها.

أفبعد هذا وذاك تبقى شبهة لدى منصف حول ما عرضنا له من تاريخ القرآن، والقراءات؟
لا أحسب ذلك إلا عند مكابر، وحسبه أن يبوء بإثمه.

---

[1] – تاريخ القرآن د. شاهين 214 نقلاً عن مصدره: كتاب التنبيه على حدوث التصحيف لحمزة الأصفهاني.

المراجع الأساسية

مرتبة حسب ورودها بالبحث

1	مباحث في علوم القرآن	د. صبحي الصالح
2	تاريخ القرآن	أبو عبد الله الزنجاني
3	الإتقان في علوم القرآن	للسيوطي
4	دراسات في القرآن	د. السيد خليل
5	كتاب المصاحف	لابن أبي داود – آرثر جفري
6	القرآن	بلاشير – ترجمة رضا سعادة
7	أثر القرآن في الدراسات النحوية	د. عبد العال سالم مكرم
8	من قضايا القرآن	د. إسماعيل الضمان
9	عن القرآن	مُحَمَّد صبيح
10	القرآن المجيد	مُحَمَّد عزة دروزة
11	لطائف الإشارات لفنون القراءات	شهاب الدين القسطلاني
12	البرهان في علوم القرآن	للزركشي
13	إرشاد الساري لشرح البخاري	لشهاب الدين القسطلاني
14	عمدة القاري شرح البخاري	للعيني
15	المدخل إلى القرآن	بلاشير
16	تاريخ القرآن	د. عبد الصبور شاهين
17	تفسير الطبري	تحقيق محمود مُحَمَّد شاكر
18	المرشد الوجيز	لأبي شامة
19	المحتسب	لابن جني
20	تفسير البحر المحيط	لأبي حيان

21	تفسير القرطبي	للقرطبي
22	تأويل مشكل القرآن	لابن قتيبة
23	فقه اللغة	د. صبحي الصالح
24	في اللهجات العربية	د. إبراهيم أنيس
25	إعجاز القرآن	مصطفى صادق الرافعي
26	لسان العرب	ابن منظور
27	حجة القراءات	لأبي زرعه

القراءات وأئمتها

بقلم الدكتور

إسماعيل أحمد الطحان

رئيس قسم التفسير والحديث

كلية الشريعة – جامعة قطر

مفهوم القراءات عند الأقدمين

درج القدماء من العلماء، وتابعهم كثير من المحدثين، على أن مفهوم (القراءة يعني في الاصطلاح): مذهباً يذهب إليه إمام من أئمة القراءات مخالفاً به غيره في النطق بالقرآن الكريم مع اتفاق الروايات والطرق عنه سواء كانت هذه المخالفة في نطق الحروف أم في نطق هيئاتها.

وفرقوا بين (القراءة) و (الرواية) و (الطريق) و (الوجه) على النحو التالي:

1 - القراءة: ما تنسب إلى إمام من أئمة القراءات اجتمعت عليه الروايات والطرق.

2 - الرواية: ما تنسب إلى الأخذ عن هذا الإمام ولو بواسطة.

3 - الطريق: ما ينسب إلى الآخذ عن الراوي ولو سفل.

4 - الوجه: ما ينسب إلى تخير القارئ من قراءات يثبت عليها وتؤخذ عنه.

ولكل إمام صاحب قراءة رواة كثيرون رووا عنه، ولكل راو طرق متعددة وفي منجد القارئين لابن الجزري تعريف آخر نصه: القراءة علم بكيفيات أداء كلمات القرآن الكريم واختلافها يعزي لناقله.

وهذا التعريف على إجماله نوع الإختلاف، والتعريف السابق على تفصيله المخالفة (إما في نطق الحروف، أو في نطق هيئاتها). لا يمنعان اعتبار ما أشرنا إليه من التنزلات المتعددة المسجلة في المصحف.

وما تركه التسجيل العثماني من إضافات الصحابة في مخطوطاتهم لا يمنعان اعتبارهما من القراءات، وإن وسم أولهما بالقراءة المتواترة، ووسم ثانيهما بالقراءة الشاذة – على ما سيجيء – وإدخال مثل هذا في مصطلح (القراءات) – وجهة نظرنا – غير دقيق لما أخذنا به من تغاير القرآن والقراءات في حقيقتها.

ومن ثم كان لزاماً علينا – في ضوء هذا التغاير بين القرآن والقراءات – أن نحد منهجنا في فهم القراءات قبل المضي في الحديث عن قضية القراءات بالتفصيل.

مفهوم القراءات عندنا:

تعني (القراءات) من وجهة نظرنا وفي ضوء فهمنا للتغاير بينها وبين القرآن الكريم:

اختلاف كيفية الأداء لألفاظ الوحي المنزل:

وكيفية الأداء هذه إما أن تكون خضوعاً لقانون اللهجات، وإما أن تكون تمثلاً لطبائع اللسان العربي العام في إخراج الأصوات وإعطائها ما تستحق من الأداء وإن كان الأخير قد تميز لدى القراء باسم (التجويد).

ويمثل للأول: بقراءة حمزة والكسائي: (لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها) بضم الكاف وقراءة باقي السبعة (كرها) بفتح الكاف.

وهي كما قال الأخفش من اختلاف اللغات مثل (الضعف) بضم الضاد وفتحها، و (الفقر) بضم الفاء وفتحها.

ويمثل للثاني: بقراءة نافع وابن كثير وأبي عمرو: (بما أنزل إليك) لا يمدون حرفاً لحرف وهي أن تكون المدة من كلمة والهمزة مرة أخر، وحجتهم في ذلك أنهم أرادوا الفرق بين ما المدة فيه لازمة لا تزول بحال، وبين ما هي فيه عارضة قد تزول في بعض الأحوال نحو: (بما أنزل) فإنها تزول عند الوقف – على الكلمة الأولى – والتي لا تزول نحو: (دعاء) و (نداء) و (سماء) فجعلوا ذلك فرقاً بينهما.

وقراءة حمزة وعاصم بالمد المفرط وحجتهم في ذلك أن المد إنما وجب عند استقبال الهمزة سواء أكانت الهمزة في نفس الكلمة، أو من الأخرى إذا التقينا، لأنه لا فرق في اللفظ بينهما.

وقراءة ابن عامر والكسائي بالمد والوسط.

وبهذا المفهوم نكون قد خالفنا القدماء فيما ذهبوا إليه من التوسع في مفهوم القراءات وما أدى إليه من الخلط بين القراءات والقرآن على ما بينهما من تغاير، وبالتالي نستطيع أن نحدد دور المصحف في قضية القراءات على ما ذهبنا إليه.

دور المصحف في قضية القراءات:

اقتضى ظهور المصحف في خط مرسوم التقيد برسمه سواء في هيكل الألفاظ أو في كيفية أدائها بحيث لا يغير الأداء من هيكلها شيئاً.

وكان هذا يعني عدم قبول القراءات التي تبدو عند الأداء مخالفة لرسمه بحكم ما يقضي به قانون اللهجات العربية من إيثار بعض الأصوات على بعض – مما كان مرخصاً فيه – كإيثار البدوي للأصوات في السمع على ما دونها، فإذ قرأ الحضري:

قوله تعالى: (من بقلها وقثائها وفومها) بالفاء.

قرأ البدوي: (من بقلها وقثائها وثومها) بالثاء.

والفاء والثاء – وإن كانا صوتين مهموسين – إلا أن الثاء أوضح في السمع من الفاء، والفوم والثوم بمعنى واحد، والأولى لغة أهل الحجاز، والثانية لغة بني تميم.

وإذا قرأ الحضري:

قوله تعالى: (جبريل وميكال) باللام

قرأ البدوي: (جبرين وميكال) بالنون.

واللام والنون – وإن كانا صوتين مجهورين – إلا أن النون أوضح في السماع من اللام، والنون لغة بني تميم وأسد.

وبهذا ترك الناس قراءات كثيرة صحيحة لا يحتملها الرسم العثماني إيثار للعافية ووحدة الكلمة، وتقريباً بين اللهجات.

وعلى الرغم من صحة هذه القراءات، فقد وسمت بالشذوذ في اصطلاح القراء، وإن كان لم يعرف هذا المصطلح آنذاك، إلا أن معنى الشذوذ لغة منطبق عليه. فالشذوذ ضد الاطراد، وإذا كان الاطراد يعني التتابع والاستمرار فإن الشذوذ يعني التفرق والانفراد، وقد جعل أهل علم العرب ما استمر من الكلام في الإعراب وغيره من مواضع الصناعة (مطرداً)، وجلوا ما فارق ما عليه بابه وانفراداً عن ذلك إلى غيره (شاذًّا).

وبهذا لا يعني الشذوذ في قضيتنا سوى مخالفة رسم المصحف والتفرد عنه، أما ما بقي من القراءات – وإن وافق رسم المصحف – فليس صحيحاً كله، لسبب آخر ذلك أن هناك من وجوه الأداء ما أقره النبي ﷺ للعاجزين عن الأداء الأمثل لنصوص القرآن مؤقتا يزول بزوال مقتضياته متى قدروا على ألأداء الأمثل بالتعلم والمران، وقد اختلط ذلك بالصحيح الذي أقرأ به الرسول ﷺ من وجوه ليكون سنة متبعة، ولم يميز الناس بينهما فشاع على ألسنتهم هذا وذاك، وتناقلوها روايات مختلطة لا يعلم صحيحها من فاسدها.

ولم يكن في مقدور الرسم أن يقضي على هذا الاضطراب أو يفصل في هذا الخلط بل كان تجريد الرسم من النقط والشك مضيفاً لمن اعتمد عليه دون الرجوع إلى الثقات وجوهاً أخرى من التصحيف لا تحل القراءة بها.

وقد حفلت كتب الأخبار والمؤلفات المتخصصة في التصحيف بالكثير من تلك الوجوه التي كان الرسم أساس نشوئها، من ذلك ما ذكره حمزة الأصفهاني في كتابه (التنبيه على حدوث التصحيف):

1 -قرأ رجل (والعاديات ضبحا) – والغاديات صبحا.

2 -قرأ رجل (وفرش مرفوعة) – وفرش مرقوعة.

3 -قرأ رجل (فعززنا بثالث) – فغررنا بثالث.

4 -قرأ رجل (فجعل السقاية في رحل أخيه) السقاية في رجل أخيه.

وأصبحت الحاجة ملحة أمام هذا الخلط في الروايات بين القراءة الصحيحة والمصحفة إلى مقياس ضابط فكان البحث في الإسناد.

وتعود بداية ظهور هذا (المقياس) إلى منتصف القرن الثاني الهجري، حيث كثرت الروايات عن الصحابة والتابعين مما يوافق خط المصحف، وقد ارجع علي بن أبي طالب ﷺ سبب كثرة الروايات وإختلافها إلى أن الصحابة رضوان الله عليهم حين خرجوا إلى الأمصار المفتوحة يعلمون الناس القرآن والدين، فعلم كل واحد منهم أهل مصره على ما تلقى عن الرسول ﷺ، فاختلفت قراءة أهل الأمصار على نحو ما اختلفت فيه قراءة الذين علموهم، فلما كتب عثمان ﷺ المصاحف ووجهها إلى الأمصار حملهم على ما فيها، وأمرهم بترك ما خالفها، فقرأ أهل كل مصر مصحفهم الذي وجه إليهم على ما كانوا يقرءون قبل وصول المصحف إليهم مما يوافق المصحف، وتركوا من قراءاتهم التي كانوا عليها مما يخالف خط المصحف، فاختلفت قراءة أهل الأمصار لذلك بما لا يخالف الخط وسقط من قراءتهم كلهم ما يخالف الخط.

ثم نقل ذلك الآخر عن الأول في كل مصر، فاختلف النقل لذلك؛ حتى وصل القرآن إلى أ ئمة القراءات على ذلك، فاختلفوا فيما نقلوا على حسب اختلاف أهل الأمصار، ولم يخرج واحد منهم عن خط المصحف فيما نقل، كما لم يخرج واحد من أهل الأمصار عن خط المصحف الذي وجه إليهم، فلهذه العلة اختلفت رواية القراء فيما نقلوا واختلفت أيضاً قراءة من نقلوا عنه لذلك، واحتاج كل واحد من هؤلاء القراء أن يأخذ مما قرأ ويترك، فقد قال ﷺ (ت169هـ): قرأت على سبعين من التابعين فما اجتمع عليه اثنان أخذته وما شذ فيه واحد تركته، حتى اتبعت هذه القراءة.. اهـ.

وهنا أدخل نافع مقياساً آخر – بجانب مقياس الرسم – هو صحة الرواية فأخذ بما اجتمع عليه اثنان من أئمته، وترك رواية الآحاد.

واتسع منذ ذلك الحين مفهوم (الشذوذ) فبعد أن كان يعني ما شذ عن خط المصحف أصبح يعني بجانب ذلك ما كان من رواية الآحاد، واعتبر هذا أساساً لضبط مقياس (السند)، وإن كان قد اتسع مفهومه فيما بعد مع اتساع حركة الإقراء، فصار في بعض مراحله: ما اجتمعت العامة عليه، والعامة عندهم ما اتفق عليه أهل المدينة والكوفة، وربما جعلوا العامة أهل الحرمين (مكة والمدينة)، وربما كان هذان المقياسان كافيين في تشكيل ضابط دقيق في تمييز القراءات، فإن صحة السند هي الركن الأقوم في

قبول القراءة أو رفضها وافقت المصحف أم خالفته، إلا أن إجماع الأمة على الإلتزام بخط المصحف قرآنا وقراءة جعل النظر في السند للوجوه التي تسمح بها مغطيات رسم المصحف، ولا اعتبار للوجوه- وإن صحت سنداً – ما دامت خارجة عن حدود رسمه، غير أن هذه الوجوه لصحتها في ذاتها بقيت تؤدي دورها في دراسة اللغة (نحواً وصرفاً) وتؤرخ لحركة التطور في أصواتها ولهجاتها، وقد اهتم بشأنها كثير من علماء اللغات فأفردوها بمؤلفات خاصة، نذكر من أشهرها كتاب: (المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها) لأبي الفتح عثمان بن جني (ت 392هـ) الذي وقف جهده لبيان وجوهها، كما أدت تلك الوجوه دوراً آخر بالتعاون مع وجوه أخرى مقبوله لدى القراء في تفسير القرآن واستنباط الأحكام منه، وهو كثير لا يخفى على أرباب هذه الصناعة، وبهذين المقياسين التزم القراء في الصدر الأول، وكان أكثرهم من علماء اللغة فلم يحتاجوا فوقهما إلى شيء آخر، وكانوا في أمر اللغة يقفون مع صحة الإسناد في قبول القراءة، إلى أن تفجر الصراع بين القراء والنحاة، وانبرى النحاة يخطئون القراء فيما رووا من وجوه صحيحة الإسناد، لمخالفتها ما سنوه من قواعد، ونسي النحاة أن القراء شركاؤهم في نقل اللغة ووظيفتهم الدقة في الضبط والأداء، وفيهم أئمة القراء كأبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ) الذي قيل فيه: (أعلم بالقرآن والعربية مع الصدق والزهد).

ولعل ما نعرضه من صورة ذلك الصراع بين النحاة يبين لك مدى إنكار النحاة لروايات صحيحة الإسناد.

قرأ أبو عمرو بن العلاء (فتوبوا إلى بارئكم) بإسكان الهمزة فيما رواه اليزيدي عنه كقراءته بسكون ما قبل الكاف في: (ينصركم، يشعركم، يجمعكم، يأمركم، أسلحتكم) كراهية توالي الحركات.

وقال القرطبي: اختلف النحاة في ذلك فمنهم من أجازه نثراً وشعراً ومنهم من منعه كالمبرد فقد اعتبر قراءة أبي عمرو بن العلاء في هذا لحناً، ورد أبو حيان منع التسكين في حركة الإعراب، وزعمه أن قراءة أبي عمرو لحن، بإنه جاء في اللغة، وأن أبا عمرو لم يقرأ إلا بما أثر عن النبي ﷺ واستدل على صحة قراءة أبي عمرو بما حكاه أبو زيد من قوله تعالى: (ورسلنا لديهم يكتبون) بسكون اللام، وقراءة مسلمة بن محارب (وبعولتهن) بسكون التاء، وذكر أبو عمرو أن لغة بني تميم تسكين المرفوع من (يعلمه) ونحوه.

وقرأ نافع بن أبي نعيم (ولكم فيها معائش) بالهمز، فقال أبو عثمان المازني إنها خطأ، وقد أخذت عن نافع ولم يكن يدري ما العربية، وله أحرف يقرؤها لحناً نحواً من هذا. ولم ينفرد المازني بهذا الرأي بل شاركه كثير من النحاة وقد أحس القراء بأن تخطئة نافع غير مقبولة وعلل هذا بأن العرب فعلت ذلك وخرجت عن المقاييس في كثير من المسائل، والأولى قبول هذه الرواية، ويتخذ أبو حيان من قول القراء سنداً في الدفاع عن هذه القراءة فضلاً عن مجيء الثقات بها كابن عامر وهو عربي صريح، والأعرج وهو

من كبار قراء التابعين، وزيد بن علي وهو من العلم والفصاحة بالمكان الذي لا يطاول، والأعمش وهو حجة في الضبط والإتقان، ونافع وهو من الثقة بالمحل الذي لا يجهل، فقبولها أولى من رفضها ولا مبالاة بمخالفة نحاة البصرة في مثل هذا فلسنا متعبدين بأقوالهم.

وكان على القراء أمام هذا الصراع، وإزاء هذه المعارضة من جانب النحاة أن يأخذوا في اعتبارهم عند اختيار القراءة (موافقة العربية) ويكفي في هذا الشأن أن تجري على سنن لغة من لغات العرب دون التقيد بالأفصح منها، فهم لا يعولون على الأفشى من اللغة بعد صحة السند.

وقد تضامنت هذه المقاييس – على مكث – وهي (موافقة الرسم، وصحة السند، وموافقة العربية) وتمكنت على يد كبار القراء مع بداية حركة التأليف في مطلع القرن الثالث الهجري، فشكلت ضابطاً صحيحاً في تمييز القراءات، يعول عليه في اختيارهم.

والآن – وبعد أن وفقنا على حركة تطور القراءات وكيفية اختلافها، وظهور المقاييس الضابطة لتمييزها، يأتي الحديث عن حركة الإقراء، والتأليف في المختار من القراءات، وظهور القراءات السبع وما فوقها والتعريف بأئمتها..

حركة الإقراء واختيار القراءات:

تبدأ حركة الإقراء منذ نزل الوحي الكريم على رسول الله ﷺ، ولقنه أصحابه رضوان الله عليهم، وقد تجرد جماعة منهم للأخذ عنه، وإقراء غ يرهم بإذن النبي ﷺ وهم على ما جاءت به الروايات سبعة:

1 -عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية (ت 35هـ).

2 -علي بن أبي طالب بن عبد المطلب (ت 40هـ)

3 -زيد بن ثابت بن الضحاك بن زيد (ت 45هـ).

4 -عبد الله بن مسعود بن غافل بن حبيب الهذلي (ت 32 هـ) على خلاف.

5 -أبو الدرداء عويمر بن زيد (ت 32هـ).

6 -أبو موسى الأشعري عبيد الله بن قيس اليماني (ت 44 هـ) على خلاف.

7 -أبي بن كعب بن قيس الأنصاري (ت 20 هـ).

وقرأ الناس بقراءتهم في مختلف الأمصار، فأهل الشام على قراءة أبّي، وأهل الكوفة على قراءة ابن مسعود، وأهل البصرة على قراءة أبي موسى الأشعري.

ثم اتسعت حركة الإقراء فقام بها المشاهير في (المدينة).

سعيد بن المسيب، وعروة بن الزبير وسالم بن عبد الله بن عمر، وعمر بن عبد العزيز، وسليمان وعطاء ابنا يسار، ومعاذ بن الحارث (المعروف بمعاذ القارئ)، وعبد الرحمن بن هرمز الأعرج، ومُحَمَّد بن مسلم بن شهاب الزهري، ومسلم بن جندب، وزيد بن أسلم.

وفي (مكة):

عبيد بن عمير الليثي، وعطاء بن أبي رباح، وطاووس بن كيسان، ومجاهد بن جبر، وعكرمة بن خالد بن العاص، وعبد الله بن عبيد الله بن أبي مليكة.

وفي (الكوفة):

علقمة بن قيس، والأسود بن يزيد، ومسروق بن الأجدع، وعمر بن شرحبيل، والحارث بن قيس، والربيع بن خيثم، وعمرو بن ميمون، وأبو عبد الرحمن السملي، وزر بن حبيش، وأبو زرعة بن عمرو بن جرير، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النخعي، والشعبي (عامر بن شراحيل).

وفي (البصرة):

عامر بن عبد القيس، , وأبو العالية الرباحي، وأبو رجاء العطاردي، ونصر بن عاصم، ويحي بن يعمر، وجابر بن زيد، والحسن البصري، ومُحَمَّد بن سيرين، وقتادة السدوسي.

وفي (الشام):

المغيرة بن شهاب المخزومي، وخليفة بن سعد (صاحب أبي الدرداء)، ويحي بن الحارث الزماري، وعطية بن قيس الكلابي، وإسماعيل بن عبد الله بن المهاجر.

وانتهت الإمامة في الأمصار إلى كل من:

أبي جعفر يزيد بن القعقاع، ثم شيبة بن نصاح، ثم نافع بن أبي نعيم (بالمدينة)، وعبد الله بن كثير، وحميد بن قيس الأعرج، ومُحَمَّد بن محيصن (بمكة)، ويحي بن وثاب، وعاصم بن أبي النجود، وسليمان الأعمش، ثم حمزة، ثم الكسائي (بالكوفة).

وعبد الله بن أبي إسحاق، وعيسى بن عمر، وأبو عمرو بن العلاء، وعاصم الجحدري ثم يعقوب الحضرمي (بالبصرة).

وعبد الله بن عامر، وشريح بن يزيد الحضرمي (بالشام).

ثم سايرت حركة الإقراء هذه حرك التسجيل والاختيار للقراءات صوناً للوجوه الأداء من الخلط والتحريف فقيض الله تعالى لكتابه العزيز من دون وجوه قراءاته وضبط طرق رواياته فكان أول سابق إلى جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام (ت 224هـ) وجعلهم خمسة وعشرين قارئاً، ثم تابعه أحمد بن جبير الكوفي فجمع كتاباً في قراءات الأمصار الخمسة، اختار فيه من كل مصر واحداً، ثم القاضي إسماعيل بن إسحاق المالكي صاحب قالون (ت 282هـ) فألف كتاباً جمع فيه قراءة عشرين إماماً، ثم الإمام أبو جعفر مُحَمَّد بن جرير الطبري (ت 310هـ) فألف كتابه (الجامع) جمع فيه نيفاً وعشرين قراءة، ثم أبو بكر مُحَمَّد الداجوني (ت 324هـ) فألف كتاباً في الأحد عشر وأدخل معهم أبا جعفر..، وفي أثره ألف الإمام أبو بكر بن مجاهد كتاب (القراءات للسبعة) المشهورة.

ظهور القراءات السبع:

لقد كانت اختيارات المؤلفين السابقين خاضعة لاعتبارات مختلفة لكنها في حدود المقاييس التي بدأت تحكم حركة القراءات، حتى إذا انتهت رئاسة علم القراءات إلى ابن مجاهد (أحمد بن موسى بن العباس أبو بكر بن مجاهد (ت 324هـ) في تلك الفترة شرع في اختيار قراءات نظر فيها إلى كل إمام اشتهرت قراءته، وفاق عصره ضبطاً وإتقاناً، وطالت ممارسته للقراءة والإقراء، وشهد له أهل مصره بالأمانة في النقل وصحة الدين وكمال العلم، واتباع خط المصحف المنسوب إلى مصره، فأفرد من كل مصر إماماً هذه صنعته وقراءته على مصحف مصره، فكان أبو عمرو من أهل البصرة، وحمزة وعاصم من أهل الكوفة وسوادها، والكسائي من أهل العراق، وابن كثير من أهل مكة، وابن عامر من أهل الشام، ونافع من أهل المدينة، وكلهم ممن اشتهرت أمانته وطال عمره في الإقراء وارتحل الناس إليه من البلدان.

وقد علل مكي بن أبي طالب (ت 437هـ) سر اختيارهم سبعة فقال: ليكونوا على وفق مصاحف الأمصار السبعة، وتيمناً بأحرف القرآن السبعة، ثم قال على أنه لو جعل عددهم أكثر أو أقل

لم يمنع ذلك إذ عدد القراء الموثوق بهم أكثر من أن يحصى لكن كان ابن مجاهد بوقوفه عند (السبعة) موضع نقد، فقد لامه أبو العباس بن عمار وقسا عليه في نقده فقال: لقد فعل مسبع هذه السبعة ما لا ينبغي له إذ أشكل الأمر على العامة بإيهامه كل من قل نظره أن هذه القراءات هي المذكورة في (حديث الأحرف السبعة) وليته إذ اقتصر نقص عن السبعة أو زاد ليزيل الشبهة.

ولم يكن ابن مجاهد قد أشكل وأوهم فحسب، بل جر على نفسه تهمة القول بأن هذه السبعة هي المعنية بالأحرف السبعة.

ولم يعدم ابن مجاهد من عنه هذا الاتهام، فقد روى أبو شامة عن أبي طاهر بن أبي عبد الله بن أبي هاشم دفاعاً قال فيه: رام هذا الغافل مطعناً في شيخنا أبي بكر بن مجاهد يجده، فحمله ذلك على أن قوله قولاً لم يقله ليجد مساغاً إلى ثلبه.. لكنه يحظ من أكذوبته بطائل، فقد كان أبو بكر رحمه الله أيقظ من أن يتقلد مذهباً لم يقل به أحد.

وقد أدى ظهور هذه القراءات السبع وما حظيت به من الشهرة ونباهة الشأن والاطمئنان على صحتها إلى ا لاعتقاد بأن القراءة الصحيحة هي قراءات السبعة فحسب وما عداها فهو (الشاذ)، وكان هذا المفهوم للشذوذ إجحافاً بكثير من القراءات نصب ابن جني (ت 392هـ) نفسه للدفاع عنه، فقال في مقدمة كتابه (المحتسب): والقراءة في زمنه على ضربين، ضرب أجمع عليه أكثر قراء الأمصار، وهو ما أودعه ابن مجاهد كتابه الموسوم (بقراءات السبعة)، وضرب تعدى ذلك فسماه أهل زماننا (شاذاً) أي خارجاً عن قراءة السبعة المقدم ذكرها إلا أنه مع خروجه عنه نازع بالثقة إلى قرائه محفوف بالروايات من أمامه ووراءه، ولعله أو كثيراً منه مساو في الفصاحة للمجتمع عليه، وليس ذلك القول تسويغاً للعدول عما أقرته الثقات، ولكن غرضنا أن نرى فيه قوة ما يسمى الآن شاذاً، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرائه، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه، لئلا يرى مري أن العدول عنه غض منه أو تهمة له..

وكان هذا الوهم (بصحة السبع وشذوذ ما عداها) هو ما حدا بكثير من علماء القراءات أن يذكروا بالضابط المعول عليه في الصحة والشذوذ، فقال مكي: وإنما الأصل الذي يعتمد عليه في هذا: أن ما صح سنده، واستقام في العربية وجهه، ووافق خط المصحف لفظه فهو (الصحيح).. فهذا هو الأصل الذي بني عليه قبول القراءات عن سبعة أو سبعة آلاف، فاعرفه وابن عليه.

وقال أبو شامة رحمة الله: فلا ينبغي أن يغتر بكل قراءة تعزى إلى واحد من هؤلاء السبعة ويطلق عليها لفظ الصحة،.. إلا إذا دخلت في ذلك الضابط وحينئذ لا ينفرد بنقلها مصحف مصنف عن غيره ولا يختص ذلك بنقلها عنهم بل إن نقلت عن غيرهم من القراء فذلك لا يخرجها عن الصحة، فإن

الاعتماد على استجماع تلك الأوصاف لا عمن تنسب إليه. وظل هذا الضابط مرعياً في التمييز بين الصحيح والشاذ على امتداد تاريخ القراءات حتى إن ابن الجرزي (ت 833هـ) يحتكم إليه ويرد وهم الناس حول صحة القراءات السبع فحسب فيقول بعد أن ذكر (الضابط): كل ما يوافقه فهو من القراءات الصحيحة التي لا يجوز رده سواء أكانت عن السبعة أم عن غيرهم ومتى اختل ركن فيها فهي ضعيفة، أو شاذه أو باطله سواء أكانت عن السبعة أو عمن هو أكبر منهم، وهذا هو الصحيح عند التحقيق من السلف والخلف، وهو مذهب السلف الذي لا يعرف عن أحد منهم خلافه، وعلى الرغم مما قيل عن القراءات السبع فإن ابن مجاهد يمتدح ما تميزت به سواها فهو في مقدمة مؤلفه (كتاب السبعة).

أما القراءة التي عليها الناس بالمدينة ومكة والكوفة والبصرة والشام فهي القراءة التي تلقوها عن أوليهم تلقياً، وقام بها في كل مصر من هذه الأمصار رجل ممن أخذ عن التابعين اجتمعت الخاصة والعامة على قراءته وسلكوا فيها طريقه، وتمسكوا بمذاهبه على ما روى من القراءة سنة الثاني عن الأول.

أضواء على الأئمة السبعة:

ولعل من المفيد هنا أن نلقي الضوء على أئمة هذه القراءات ونركز بوجه خاص على تلقيهم والتلقي عنهم لنرى مقدار ما امتازوا به عن غيرهم ومدى صدق ابن مجاهد في تفضليهم على من سواهم.

1- نافع إمام أهل المدينة:

هو نافع بن عبد الرحمن بن أبي نعيم أبو رويم الليثي بالولاء (70-169 هـ) أحد الأئمة الأعلام، ثقة، صالح، عالم بوجوه القراءات متبعاً لآثار السالفين، زاهداً، جواداً، أصبهاني الأصل.

* قرأ على سبعين من التابعين منهم: أبو جعفر القارئ، وعبد الرحمن ابن هرمز الأعرج، ومسلم بن جندب، وعبد الرحمن بن القاسم بن مُحَمَّد بن أبي بكر الصديق، وابن شهاب الزهري.

* وقرأ الأعرج على عبد الله بن عباس، وأبي هريرة.

وقرأ ابن عباس وأبو هريرة على أبي بن كعب.

* وقرأ أبي بن كعب على رسول الله ﷺ.

انتهت إليه رياسة القراء بالمدينة وأجمع الناس عليه بعد التابعين أكثر من سبعين سنة.

* روى القراءة عنه عرضاً وسماعاً جماعة منهم: الإمام مالك بن أنس (صاحب المذهب) وقالون من أهل المدينة.

* والأصمعي وأبو عمرو بن العلاء من أهل البصرة.

* وورش والليث بن سعد من أهل مصر.

* وكردم المغربي، والغازي بن قيس الأندلسي. وغيرهم من مختلف الأمصار.

رواياه: قالون، وورش.

قالون: أبو موسى، عيسى بن مينا الزرقي مولى بني زهرة (120-220هـ) قارئ المدينة، ونحويها، قيل: ربيب نافع، وقد اختص به كثيراً، لقب (بقالون) ومعناها بالرومية (جيد) – لجودة قراءته.

قرأ على نافع مرات لا تحصى عدداً على مدى خمسين سنة، وقد قرأ الناس عليه في حياة نافع.

ورش: عثمان بن سعيد المصري مولى قريش (100-197هـ) شيخ القراء بمصر رحل إلى نافع فعرض عليه القرآن عدة ختمات في سنة 155هـ وله اختيارات خالف فيها (نافعاً) وكان ثقة حجة جيد القراءة حسن الصوت أشقر اللون يلبس قصاراً فشبهه نافع (بالورشان) الطائر المعروف ثم خفف فقيل (ورش).

2- ابن كثير إمام أهل مكة:

هو عبد الله أبو معبد بن كثير بن عمر بن زادان، الفارسي الأصل (45-120هـ) فصيح بليغ، مهيب عليه السكينة والوقار، لقي من الصحابة ابن الزبير، وأبا أيوب، وأنس بن مالك.

* قرأ على درباس مولى ابن عباس، ومجاهد بن جبر، وعبد الله بن السائب المخزومي.

* وقرأ عبد الله بن السائب على أبي بن كعب، وعمر بن الخطاب.

* وقرأ أبي بن كعب وعمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ.

* وروي القراءة عنه جماعة منهم حماد بن زيد، وحماد بن سلمة، والخليل بن أحمد، وعيسى بن عمر الثقفي، وأبو عمرو بن العلاء، وسفيان بن عيينه وغيرهم. راوياه: البزي، وقنبل.

البزي: هو أحمد بن عبد الله القاسم أبو الحسن البزي (170-250هـ) مقرئ مكة ومؤذن المسجد الحرام فارسي الأصل محقق ضابط متقن.

* قرأ على عكرمة بن سليمان ووهب بن واضح.

* وقرأ عكرمة على شبل بن عباد، وإسماعيل بن عبد الله.

* وقرأ شبل على ابن كثير.

* وروى عنه القراءة قنبل المخزومي.

قنبل: هو مُحَمَّد بن عبد الرحمن بن مُحَمَّد المخزومي أبو عمر المكي الملقب (بقنبل) لشدته (195-291هـ) شيخ القراء بالحجاز، وإليه رحل من مختلف الأقطار، ولي شرطة مكة، لفضله وصلاحه، وصوابه فيما يأتيه من الحدود والأحكام.

* أخذ القراءة عرضاً عن أحمد بن مُحَمَّد النبال، وخلفه بالقيام بها بمكة.

* وقرأ على أبي الحسن أحمد القواس، وقرأ القواس على أبي الأخريط، وقرأ أبو الأخريط على القسط وأخبره أنه على شبل وقرأ شبل على ابن كثير.

* وروى القراءة عن البزي.

وروى القراءة عنه جماعة كثيرة منهم أبو ربيعة مُحَمَّد بن إسحاق، وابن مجاهد (صاحب السبعة) وابن شنبوذ وغيرهم.

3- أبو عمرو بن العلاء إمام أهل البصرة.

هو زبان بن العلاء بن عمار المازني البصري (68-154هـ) إمام العربية والإقراء مع الصدق والزهد والثقة حتى قال فيه يونس بن جبيب: والله لو رآه رسول الله ﷺ لسره ما هو عليه. وليس في السبعة أكثر شيوخاً منه، توجه مع أبيه لما هرب من الحجاج فقرأ بمكة والمدينة، كما قرأ بالبصرة والكوفة، سمع أنس بن مالك وغيره.

* قرأ على الحسن البصري، وأبي العالية، وسعيد بن جبير، وعاصم بن أبي النجود، وعبد الله بن إسحاق الخضرمي، وابن كثير المكي، وعكرمة مولى ابن عباس، وابن محيصن، ونصر بن عاصم، ويزيد بن القعقاع المدني، ويحي بن يعمر.

* وقرأ الحسن البصري على حطان وأبي العالية.

* وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب، وأبي بن كعب وكلاهما عن النبي ﷺ وروى القراءة عنه جماعة كثيرة من أشهرهم: أبو زيد الأنصاري، والأصمعي، وعيسى بن عمر، ويحي اليزيد، وسيبويه.

رواياه: الدوري، والسوسي:

الدوري: أبو عمر حفص بن عبد العزيز الأزدي البغدادي النحوي الضرير، ونسبته (إلى الدور) موضع ببغداد بالجانب الشرقي (ت 246 هـ) إمام القراءة في زمانه، أول من جمع القراءات، وقرأ بالسبعة، وبالشواذ.

قرأ على الكسائي، وأخذ قراءة نافع عن إسماعيل بن جعفر، وقراءة يزيد بن القعقاع عن ابن جماز، وقراءة حمزة عن مُحَمَّد بن سعدان، وقراءة أبي عمرو يحي اليزيدي.

وأخذ عنه القراءة جمع كبير، منهم أحمد بن حنبل فكان يكتب عن أبي عمر الدوري.

السوسيي: هو صالح بن زياد أبو شعيب السوي القري، نسب إلى (سوس) موضع بالأهواز (ت 261هـ). مقرئ ضابط، محرر ثقة، أخذ قراءة أبي عمرو عرضاً وسماعاً عن أبي محمد اليزيدي، وعن حفص قراءة عاصم.

وأخذ عنه القراءة جماعة، مات وقد قارب السبعين، وقيل التسعين.

4- ابن عامر إمام أهل الشام:

هو عبد الله أبو عمران عامر اليحصبي نسبه إلى (يحصب) فخذ من حمير، ويكنى أبا نعيم أهل الشام وإليه انتهت إمام الإقراء فيها (8-118هـ) لقي واثلة بن الأسقع، والنعمان بن بشير.

* أخذ القراءة عرضاً عن الصحابي الجليل أبي الدرداء مقرئ أهلل الشام، وقرأ على المغيرة بن أبي شهاب المخزومي.

* وقرأ ابن شهاب المخزومي على عثمان بن عفان ﷺ وقرأ عثمان على رسول الله ﷺ.

* وقيل قرأ ابن عامر على عثمان مباشرة.

* أخذ القراءة عنه خلق كثير من أهل الشام والجزيرة، تولى قضاء دمشق وإمامة الجامع وائتم به عمر بن عبد العزيز وهو أمير المؤمنين.

* وقد روى القراءة عنه جماعة منهم يحي بن الحارث الذماري وهو الذي خلفه في القيام بالقراءة، وأخوه عبد الرحمن بن عامر، وخلاد بن زيد وغيرهم.

راوياه: هشام، وابن ذكوان:

هشام: هو أبو عمار بن نصير السلمي، ويكنى أبا الوليد (153-245هـ) إمام أهل الشام وخطيبهم ومحدثهم، ومقرئهم، ومفتيهم.

أخذ قراءة ابن عامر عرضاً عن عراك بن خالد المزي، عن يحي بن الحارث الذماري عن ابن عامر.

وقرأ على أيوب بن تميم، وسويد بن عبد العزيز وغيرهم. وروى القراءة عنه أبو عبيد القاسم بن سلام قبل وفاته بنحو أربعين سنة وأحمد بن يزيد الحلواني.

ابن ذكوان: هو عبد الله بن أحمد بن بشير بن ذكوان القرشي الدمشقي ويكنى أبا عمر (173-242هـ) شيخ الإقراء بالشام بعد أيوب بن تميم وإمام جامع دمشق.

أخذ قراءة ابن عامر عن أيوب بن تميم عن يحي بن الحارث الذماري.

وقرأ على الكسائي لما قدم الشام.

وروى عنه خلق كثير ومن تلاميذه أبو زرعه الدمشقي، وقد قال عنه:

لم يكن بالعراق ولا بالحجاز ولا بمصر، ولا بخرسان في زمان ابن ذكوان أقرأ منه.

5- عاصم بن أبي النجود إمام أهل الكوفة:

هو أبو بكر عاصم بن أبي النحود بن بهدلة الحناط مولى بني أسد (ت 127هـ) شيخ الإقراء بالكوفة جمع بين الفصاحة والإتقان والتحرير والتجويد، أحسن الناس صوتاً بالقرآن، صالح ثقة.

* أخذ القراءة عن أبي عبد الرحمن السلمي، وزر بن جيش، وأبي عمرو الشيباني.

* وقرأ أبو عبد الرحمن السلمي على الإمام علي أبي طالب ﷺ عن رسول الله ﷺ.

* وقرأ زر بن حبيش على ابن مسعود عن رسول الله ﷺ.

روى القراءة عنه أبان بن تغلب، وحفص بن سليمان، وحماد بن زيد وأبو بكر بن عياس.

* وروى عنه حروفاً من القرآن أبو عمرو بن العاص والخليل بن أحمد، وحمزة الزيات.

راوياه: شعبة، وحفص

شعبة: هو أبو بكر بن عياش بن سالم الأسدي النهشلي – الكوفي، وفي اسمه خلاف: شعبة، مُحَمَّد، مطرق (95-193 هـ) الإمام العلم.

وقرأ على عاصم وعرض عليه القرآن ثلاث مرات، وقرأ على عطاء بن السائب، وأسلم المنقري.

أخذ عنه جماعة، وأخذ آخرون منهم الكسائي وخلاد الصيرفي.

حفص: هو أبو عمر حفص بن سليمان بن المغيرة البزار (90-180هـ) ربيب عاصم تلقى القرآن خمساً خمساً كما يتعلمه الصبي من المعلم، فكان أصحاب عاصم بقراءته، يقرأ بروايته أهل المشرق اليوم، وقد قرأ ببغداد، ومكة، والكوفة.

6- حمزة إمام أهل الكوفة:

هو أبو عمارة حمزة بن حبيب الزيات الكوفي التيمي بالولاء مولى عكرمة بن ربيع التيمي (80-156هـ) حبر القرآن، إمام الناس بعد عاصم والأعمش، قيم بالعربية والفرائض.

* أخذ القراءة عرضاً على سليمان الأعمش، وحمران بن أعين، وأبي إسحاق السبيعي، وجعفر بن مُحَمَّد الصادق.

* وقرأ الأعمش على ابن وثاب.

* وقرأ ابن وثاب على أبي شبل علقمة بن قيس.

* وقرأ علقمة بن قيس على عبد الله بن مسعود عن رسول الله ﷺ.

* كما قرأ ابن وثاب على زر بن حبيش على عثمان، وعلي بن أبي طالب، وابن مسعود رضوان الله عليهم.

* روى عنه القراءة كثيرون منهم: إبراهيم بن أدهم، والحسين الجعفي وسليم بن عيسى أضبط أصحابه، والكسائي أجل أصحابه، ويحي بن زياد الفراء، ويحي بن المبارك اليزيدي وغيرهم.

رواياه: خلف وخلاد:

خلف: هو أبو مُحَمَّد خلف بن هشام بن طالب البزاز البغدادي (150-229هـ) الإمام العلم أحد القراء العشرة وأحد الرواة عن سليم عن حمزة، ثقة كبير زاهد عالم عابد.

أخذ القرآن عرضاً عن سليم بن عيسى، وعبد الرحمن بن أبي حماد عن حمزة، وأبي زيد الأنصاري، عن المفضل الضبي.

سمع من الكسائي ولم يقرأ عليه القرآن.

روى القراءة عنه عرضاً وسماعاً وراقه أحمد بن إبراهيم، وحمد بن يزيد الحلواني..

خلاد: هو أبو عيسى خلاد بن خالد الأحول الصيرفي الشيباني بالولاء (ت 220هـ) إمام في القراءة عارف محقق.

أخذ القراءة عن سليم وهو من أضبط أصحابه، عن حمزة. ورواها عن حسين بن علي الجعفي عن أبي بكر، وعن أبي بكر نفسه عن عاصم.

روى القراءة عنه عرضاً أحمد بن يزيد الحلواني، والقاسم الوزان وآخرون.

7- الكسائي إمام أهل الكوفة:

هو أبو الحسن علي بن حمزة الكسائي، فارسي الأصل، أسدي الولاء (119-189هـ). انتهت إليه رياسة الإقراء بالكوفة بعد حمزة الزيات أعلم الناس بالنحو، وأوحدهم بالغريب، وأوحدهم بالقرآن، قال عنه ابن معين: ما رأيت بعيني هاتين أصدق لهجة من الكسائي. وقيل سمي (الكسائي) لأنه أحرم في كساء.

* أخذ القراءة عرضاً عن حمزة الزيات أربع مرات، وعن مُحَمَّد بن أبي ليلى وعيسى بن عمر الهمداني، وقرأ عيسى على عاصم.

* وروى الحروف عن أبي بكر بن عياش، وعن إسماعيل ويعقوب ابني جعفر قراءة ناف، وعن المفضل الضبي، ورحل إلى البصرة فأخذ اللغة عن الخليل بن أحمد.

* أخذ القراءة عنه عرضاً وسماعاً جمع منهم إبراهيم بن زادان، وحفص الدوري، وأبو عبيد القاسم بن سلام، وخلف بن هشام، والفراء..

رواياه: أبو الحارث – والدوري:

أبو الحارث: هو أبو الحارث الليث بن خالد المروزي البغدادي (ت 240هـ) من أجلاء أصحاب الكسائي، ثقة قيم في القراءة ضابط لها.

عرض القراءة على الكسائي، وروى الحرف عن حمزة بن القاسم الأحول، وعن اليزيدي.

روى القراءة عنه عرضاً وسماعاً سلمة بن عاصم صاحب الفراء وغيره.

الدوري: وهو راوي أبي عمرو – وقدمنا من سيرته ما يغني عن إعادته.

القراءة العشرة والأربعة عشر

ودون هؤلاء الأئمة السبعة، سبعة آخرون هم:

8 -أبو جعفر يزيد بن القعقاع (ت 130هـ) إمام أهل المدينة في القراءة فسمى (القارئ) وراوياه: عيسى بن وردان (ت 160هـ) وابن جماز سليمان بن مسلم (ت 170هـ).

9 -أبو مُحَمَّد يعقوب بن غسحاق بن زيد بن عبد الله بن أبي إسحاق (117 – 205هـ) إمام أهل البصرة ومقرئها، انتهت إليه رياستها بعد أبي عمرو..

وراوياه (رويس) مُحَمَّد بن المتوكل أبو عبد الله اللؤلؤي (ت 238هـ) و (روح) ابن عبد المؤمن (ت 234هـ).

10 - خلف بن هشام البزاز (راوية حمزة) وراوياه: إسحاق (ت 286 هـ) وبهم يتم القراء العشرة.

11 - أبو عبد الله مُحَمَّد بن محيص المكي مقرئ أهل مكة مع ابن كثير (ت 123هـ) وراوياه: (البزي) شنبوذ مُحَمَّد أحمد بن أيوب البغدادي (ت 328هـ).

12 - أبو مُحَمَّد يحي بن المبارك اليزيدي البصري (128- 202هـ) وراوياه: سليمان أبو أيوب بن الحكم الخياط البغدادي (ت 235هـ)، وأحمد بن فرح أبو جعفر الضرير (ت 303هـ).

13 - الإمام أبو سعيد الحسن بن يسار بن أبي الحسن البصري (21 – 110هـ) ورواياه شجاع بن أبي نصر البلخي البغدادي (120 – 190 هـ)، و (الدوري) أحد راويي أبي عمرو بن العلاء.

14 - أبو مُحَمَّد سليمان بن مهران الأعمش الكوفي (60-148هـ). وراوياه: الحسن بن سعيد المطوعي (ت 371هـ).

وأبو الفرح مُحَمَّد بن إبراهيم الشنبوذي (300- 388هـ).

وبهم يتم القراء الأربعة عشر.

هذا ما تيسر لنا من سيرة هؤلاء الأئمة، وقد استبان لنا من خلال هذا العرض اتصال أسانيد بالنبي ﷺ، واتصال الرواية بهم.

وفي كتاب (التيسير) لأبي عمرو الداني مزيد من توثيق أسانيدهم، وصحة الرواية عنهم وثبوت تلقيهم بالمشافهة والسماع عمن فوقهم حتى يتصل الإسناد بالصحابي الذي أخذ عن الرسول ﷺ.

وكان هذا التسلسل في الأسانيد مسوغاً للعلماء أن يصفوا القراءات بأنها (توفيقية) وليست اختيارية – وأنكروا على الزمخشري ومن ذهب مذهبه في أن القراءات اختيارية تدور مع اختيار الفصحاء واجتهاد البلغاء, ومن ثم أباحوا لأنفسهم رد بعض قراءات هؤلاء السبعة كقراءة حمزة (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) بخفض الأرحام، وقراءته (وما أنتم بمصرخي) بكسر الياء المشددة، وقراءة

أبي عمر (يغفلكم) في (يغفر لكم) بإدغام الراء في اللام، وعدها الزجاج خطأ فاحشاً لأن الراء حرف مكرر، ولا يدغم الزائد في الناقص للإخلال به، أما العكس فيجوز وقال: وهذا إجماع النحاة.

وعد القراء هذا تحاملاً عليهم، وقد انعقد الإجماع على صحة قراءة هؤلاء السبعة وأنها (توفيقية) ولا مجال لردها أو الاجتهاد فيها.

ولكن أي (توقيف) يعنيه القراء أهو توقيف تواتر، أم توقيف آحاد؟ لقد اتفقوا على (التوقيف) ولكنهم اختلفوا في كيفيته. واتسعت شقة الخلاف من هنا في قضية (تواتر القراءات) السبع على وجه الخصوص.

الآراء حول تواتر القراءات

ربما كان مفيداً قبل عرض الآراء في هذه القضية- أن نعرض للمفهوم التواتر والآحاد حتى نستبين مضمون الخلاف ومغزاه.

التواتر: هو نقل جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب، عن مثلهم إلى منتهاه.

الآحاد: هو نقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة قادحة.

وعلى هذا المفهوم جاءت الآراء في القراءات السبع على النحو الآتي:

1 -قال القاضي جلال الدين البلقيني: القراءات السبع متواترة وهو مذهب الجمهور.

2 -وقال الإمام بدر الدين الزركشي: التحقيق أنها متواترة عن الأئمة السبعة، أم تواترها عن النبي ﷺ ففيه نظر، فإن إسناد الأئمة السبعة بهذه القراءات السبع موجود في كتب القراءات، وهي نقل الواحد عن الواحد، لم تكمل شروط التواتر في استواء الطرفين والواسطة، وهذا شيء موجود في كتبهم.

3 -وقال الإمام شهاب الدين المعروف بأبي شامة: لقد شاع على ألسنة جماعة من المقرئين المتأخرين وغيرهم من المقلدين أن القراءات السبع كلها متواترة. أي كل فرد مما روى عن هؤلاء السبعة.. ثم قال: ونحن نقول بهذا فيما اجتمعت على نقله عنهم الطرق، واتفقت عليه الفرق

من غير نكير له.. فإن المروي عنهم منقسم إلى ما أجمع عليه عنهم لم تختلف فيه الطرق، وإلى ما اختلفت فيه، بمعنى أنه نفيت نسبته إليهم في بعض الطرق.

4 -وقال ابن الحاجب (عثمان بن عمر بن أبي بكر) شيخ المالكية: القراءات السبع متواترة باستثناء ما كان من قبيل الأداء كالمد والإمالة وتحقيق الهمزة. وقال غيره: اصل المد والإمالة متواتر، ولكن التقدير غير متواتر للاختلاف في كيفيته، وأما أنواع تحقيق الهمزة فكلها متواترة.

وخلاصة الاختلاف كما صورته الأقوال السالفة هي:

(أ) أن التواتر منتف – عند الزركشي – لأن ما ذكر من أسانيد الأئمة في كتبهم نقل واحد عن واحد.

(ب) التواتر منتف – عند أبي شامة – فيما اختلف فيه السبعة.

(جـ) التواتر منتف – عند ابن الحاجب – فيما كان من قبيل الأداء في القراءات.

أما رأي ابن الحاجب فقد رده من العلماء على أن مراده ما كان من قبيل التقدير، أما الأصل فمجمع على تواتره، وإلا فقد أخطأ إن أراد غير ذلك.

أما رأي الزركشي وأبي شامة فقد تكفل بهما ابن السبكي في رد ذكي مقنع، حسن به الخلاف حول تواتر القراءات السبع.

قال ابن السبكي في كتابه (جمع الجوامع): القراءات السبع متواترة تواتراً تاماً أي نقلها عن النبي ﷺ جمع يمتنع عادة تواطؤهم على الكذب لمثلهم وهلم جرا. ولا يضر أسانيد القراء آحاداً إذ تخصيصها بجماعة لا يمنع مجيء القراءات عن غيرهم، بل هو الواقع، فقد تلقاها من أهل كل بلد بقراءة إمامهم الجمع الغفير عن مثلهم وهلم جرا. وإنما أسندت إلى الأئمة المذكورين ورواتهم المذكورين في أسانيدهم، لتصديهم لضبط حروفها وحفظ شيوخهم الكمل فيها.

وإن قيل بأنها لو تواترت جميعاً ما اختلف القراء في شيء منها، لكنهم اختلفوا في أشياء منها، فإذاً لا يسلم أن تكون كلها متواترة.

فيجاب عن هذا بأن الخلاف لا ينفي التواتر، بل الكل متواتر وهم فيه مختلفون، فإن كل (قراءة) بلغها الرسول ﷺ إلى جماعة يؤمن تواطؤهم على الكذب، وهم بلغوها إلى أمثالهم وهكذا. ولا شك أن (القراءات) يخالف بعضها بعضاً، فلا جرم تواتر كل (قراءة) عند من أخذ بها وإن كان الآخر لم يعرفها ولم يأخذ بها. وهنا يجتمع التخالف والتواتر، وهنا يستقيم القول بتواتر القراءات السبع.

ولعل ما يعزز – عندنا – قول ابن السبكي ما حكاه مُحَمَّد بن صالح ووضحه ابن الجزري قال: سمعت رجلاً يقول لأبي عمرو: كيف تقرأ: (لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) فقال أبو عمرو: (لا يعذب) بالكسر، فقال له الرجل: كيف؟ وقد جاء عن النبي ﷺ: (لا يعذّب) بالكسر، فقال له أبو عمرو: لو سمعت الرجل الذي قال سمعت النبي ﷺ ما أخذته عنه، أو تدري لماذا؟ لأني أتهم الواحد الشاذ إذا كان على خلاف ما جاءت به العامة.

قال: الشيخ أبو الحسن السخاوي: وقراءة الفتح أيضاً ثابتة بالتواتر، قال ابن الجزري: صدق لأنها قراءة الكسائي، قال السخاوي: وقد تواتر الخبر عند قوم دون قوم، وإنما أنكرها أبو عمرو لأنها لم تبلغه على وجه التواتر، وإن كانت قد لغت غيره على وجه التواتر.

الآراء حول العشر والأربع الزائدة عليها

هذا ما كان من شأن الخلاف حول تواتر القراءات السبع، فماذا عن القراءات العشر والأربع الزائدة على العشر؟

قال ابن الجزري – وهو لسان كثير من علماء القراءات في هذا الرأي أما القراءات العشر فهي من القراءات المتواترة التي تلقتها الأمة بالقبول وأخذها الخلف عن السلف حتى وصلت إلينا، ولا توجد اليوم قراءة متواترة وراء العشر.

أما القراءات الأربع الزائدة على العشر فهي صحيحة الإسناد، ولكنها آحادية فليست متواترة، وقيل بتواتر بعضها، وقيل بصحتها، وقيل بشذوذها. وأيما كان الأمر في الحكم على هذه القراءات سبعاً أو عشراً أو زائدة عن العشر، فلا ينبغي أن ينظر فيه إلى أعداد القراءات وأئمتها، بل الأمر راجع قبل كل شيء إلى تحقيق أركان الضابط المشهور، وبه يمكن الحكم على القراءة بالقبول أو الرفض.

دور ابن الجرزي في ضابط القراءات وتطبيقه

جمع ابن الجرزي (أبو الخير شمس الدين ت 833هـ) بحكم تأخره آراء المتقدمين، ووقف على مقاييس القراءة التي احتكموا إليها في صحة القراءة وشذوها، وأعاد صياغتها بإضافة يسيره نص عليها – وإن كانت مفهومة لدى السابقين أيضاً – ثم طبقها ما انتهى إليه في عصره من قراءات، وسجل حكمه عليها. واقترن الضابط باسمه منذ ذلك الحين، واعتمد علماء القراءات من بعده على نتائج تطبيقه في تقسيم القراءات والحكم عليها.

صياغة الضابط وتطبيقه:

1 – موافقة أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالاً.

2 – موافقة العربية ولو بوجه.

3 – صحة السند.

ولا جديد فيه سوى ما أضافه بعد (لو) في المقياسين الأولين، أما الأسس فهي كما ترى أمر سابق عليه.

ثم أخذ يوضح ما يعنيه (بإضافته) فقال:

1 - نعني بموافقة أحد المصاحف العثمانية ما كان ثابتاً في بعضها دون بعض لاختلاف ما بينها كقراءة ابن عامر (قالوا اتخذ الله ولدا) في البقرة بغير (واو)، و (بالزبر وبالكتاب) بإثبات (الباء) فيهما فإن ذلك ثابت في المصحف الشامي، وكقراءة ابن كثير (تجري من تحتها الأنهار) في آخر براءة بزيادة (من) فإنه ثابت في المصحف المكي. وقولنا (ولو احتمالاً) نعني به ما وافقه ولو تقديراً مثل (ملك يوم الدين) فإنه كتب في الجميع بلا (ألف) فقراءة الحذف توافقه تحقيقاً، وقراءة (الألف مالك) توافقه تقديراً لحذفها في الخط اختصاراً كما كتب (ملك الملك) بدون ألف.

2 - ونعني بقولنا في الثاني (ولو بوجه) – أي نريد به وجهاً من وجوه النحو سواء كان أفصح أم فصيحاً، مجمعاً عليه، أم مختلفاً فيه اختلافاً لا يضر مثله، إذا كانت القراءة مما شاع وذاع، وتلقاه الأئمة بالإسناد الصحيح، إذ هو الأصل الأعظم، والركن الأقوم، وكم من قراءة أنكرها بعض أهل النحو أو كثير منهم، ولم يعتبر إنكارهم ثم ساق للداني – تعزيزاً لرأيه – قوله: أئمة القراء لا تعمل في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية، بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل.

3 - ونعني بقولنا (صحة السند) أن يروي تلك القراءة العدل الضابط عن مثله وهكذا حتى ينتهي، وتكون مع ذلك مشهورة عند أئمة هذا الشأن غير معدودة عندهم من الغلط أو مما شذ بها بعضهم.

ثم قال: وقد شرط بعض المتأخرين (التواتر) في هذا الركن، ولم يكتف بصحة السند وزعم أن القرآن لا يثبت إلا بالتواتر، وأن ما جاء مجيء الآحاد لا يثبت به القرآن وفند هذا الزعم فقال: إن التواتر إذا ثبت لا يحتاج فيه إلى الركنين الآخرين من الرسم والعربية، إذ ما ثبتت من أحرف الخلاف متواتراً عن النبي ﷺ وجب قبوله وقطع بكونه قرآناً سواء وافق الرسم أم لا..

ثم مضى ابن الجزري في تقسيم القراءة إلى أنواع فيي ضوء لهذا الضابط فقال في كتابه (النشر) على وجه الإجمال:

كل قراءة تحققت فيها الأركان الثلاثة فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها، ولا يحل إنكارها، ووجب على الناس قبولها سواء أكانت عن الأئمة السبعة أم عن غيرهم..

ومتى اختل ركن من الأركان الثلاثة عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم..

ثم قسم القراءة الصحيحة إلى نوعين بحسب السند بعد توفر الركنين الأولين إلى:

1 - المتواترة: وهي رواها جمع عن جمع لا يمكن تواطؤهم على الكذب.

ومثاله: ما اتفقت الطرق على نقله عن السبعة وهذا هو الغالب في القراءات.

2 - المشهورة: وهي ما صح سنده بأن رواه العدل الضابط عن مثله وأشتهرت عند القراء فلم يعده من الغلط ولا من الشذوذ إلا أنه لم يبلغ درجة التواتر (عند الجميع) ومثاله ما اختلفت الطرق في نقله عن السبعة.

وهذان النوعان هما اللذان يقرأ بهما ويجب اعتقاده ويجب اعتقادهما ولا يجوز شيء منهما.

ثم قسم ما وراء ذلك إلى:

3 - الشاذة: حين يجتمع الأخيران دون الرسم لشذوذها عن رسم المصحف وتلك لا يجوز القراءة بها لا في الصلاة ولا في غيرها، و'ن كان إسنادها صحيحاً.

4 - الضعيفة: وبديهي أنها ما اجتمع فيها الأولان دون صحة السند وقد يطلق عليها (شاذة) من باب التوسع.

5 - الباطلة: وهي ما عدمت النقل أصلاً وهي عندهم (المكذوبة) يكفر متعمدها سواء توفر لها الرسم والعربية أو أحدهما فقط.

وقد أخذ هذا التقسم عناوين أخرى في بعض كتبه:

1 - المتواتر: وهو على شروطه السابقة.

2 - المشهور: وهو على شروطه السابقة.

3 - الآحاد: وهو ما صح سنده وخالف الرسم أو العربية أو لم يشتهر الاشتهار المطلوب.

4 - الشاذ: وهو ما لم يصح سنده.

5 - الموضوع: وهو ما نسب إلى قائله من غير أصل.

6 - ما يشبه المدرج من الأحاديث وهو ما زيد في القراءة على وجه التفسير.

وخلص من ذلك إلى أن القراءات السبع وما زيد عليها حتى العشر فكلها متواترة، وما زيد على العشر حتى الأربع عشرة فهي عنده أحادية ليست بمتواترة، ومن ثم فلا يقرأ بها في صلاة ولا في غيرها، ومنع ما وراء ذلك من باب أولى..

ملاحظتان على التقسيم والتمثيل:

1 - اعبر ابن الجزري أن الاختلاف الواقع بين المصاحف العثمانية في تسجيل بعض النصوص هو من القراءات، وقد سبق أن بينا أن ذلك من ألفاظ الوحي، ولا علاقة له بالقراءات لما بين القرآن والقراءات من تغاير، وبالرغم من تقرير لهذه الحقيقة فهم لا يحسنون تطبيقها.

وكان يكفي لمثال الموافقة والمفارقة لرسم المصحف ما جاء من القراءات التي يتفق بعضها مع الرسم – هو كثير – ويختلف بعضها عن رسمه وقد سبق بيان ذلك.

2 - مثل ابن الجزري (بإضافات ابن عباس: وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة صالحة). لما صح نقله عن الآحاد وضح وجهة في العربية وخالف لفظ المصحف، على حين عد ذلك من المدرج – وهو ما زيد على النص للتفسير – والتناقض في ذلك لا يخفي.

حركة الاحتجاج للقراءات

كان أمراً تقتضيه طبائع الأشياء أن يحتج القراء لقراءتهم المختارة، وأن يبينوا وجه الحق فيما آثروه. وتمثل هذا أولاً فيما كان من احتجاجات فردية لبعض القراءات ظهرت في أقوال القراء الأوائل كابن عباس (ت 68هـ) وعاصم الجحدري (ت 128هـ) وعيسى بن عمر (ت 149هـ) وأبي عمرو ابن العلاء (ت 154هـ) وقد نهجوا نهجاً لغوياً أو أعربيًا في الاحتجاج أو حمل قراءة على أخرى لمشابهة بينهما، حتى جاء سيبويه (ت 180هـ) فمهد الطريق للمحتجين قراء كانوا أو نحويين بما سجل في كتابه من المفاضلة والاحتجاج للقراءات التي قرنت بها شواهده من القرآن، مستهدفاً إخضاع القراءات لمقاييس العربية ممثلاً لنزعة البصريين في رد بعض القراءات وتخطي القارئ إذا ما اختلف شيء من ذلك مع ما انتهوا إليه من رأي أو قياس.

ويأتي من بعده أبو زكريا الفراء (ت 207هـ) فيحتج لبعض القراءات في ثنايا كتابه (معاني القرآن) الموضوع لغير ذلك، غير أنه يكشف عن مذهب القراء من الكوفيين في الاحتجاج وموقف نحاتهم من القراءات في اتخاذها مصدراً للتقعيد تشتق منها المقاييس وتستمد الأصول.

ومن بعدها يأتي أبو جعفر الطبري الكوفي (ت 310هـ) فتتصل به المعالم الكبرى في تطور الاحتجاج بما صنع في كتابه (جامع البيان في تفسير القرآن) من رواية القراءات المختلفة مسندة إلى

قرائها، واستجازته بعضها وإفساده أخرى معتمداً في ذلك على صحة السند ورسم المصحف ومظاهرة لغة العرب.

وإذا كانت الخطوة الأولى في الاحتجاج تمثلت في التخريجات الفردية، والآراء المتناثرة هنا وهناك في كتب النحو والتفسير، فإن الخطوة الثانية في بروز الاحتجاجات للقراءات علماً شامخاً في الدراسات القرآنية بدأت مع ابن مجاهد باختيار القراءات السبع سنة (300هـ) فقد احتشد جهد العلماء – بعد حركة التسجيل والاختيار – في الاحتجاج للقراءات صحيحها وشاذها، وكانت أول محاولة في الاحتجاج متخصصة في القراءات السبع ما ابتدأه أبو بكر مُحَمَّد بن السري بن السراج (ت 316هـ) أحد الأشياخ الذين أخذ عنهم أبو علي الفارسي، واقتفى أثره في إتمام تلك المحاولة التي لم ينجز منها ابن السراج سوى (فاتحة الكتاب وآيتين من سورة البقرة) كما يطالعنا صد كتاب (الحجة في علل القراءات السبع) لأبي علي الفارسي (ت 377هـ) الذي انقطع في الجلال نظيره وامتد في الآفاق أثره وخلد في الآثار ذكره.

وإن كان قد سبق أبو علي الفارسي بمن صنف في هذا الفن أو عاصره كأبي مُحَمَّد بن الحسن الأنصاري (ت 351هـ) وأبي بكر مُحَمَّد بن مقسم (ت 365 هـ) وأبي عبد الله الحسين بن خالويه (ت 370هـ) فإنهم لم يبلغوا مبلغ أبي علي في تحليله وتعليله وقياسه وتنظيره، وبسط الجدل، ونزعه الاستطراد حتى أجهد وأرهق، فأمكن (ابن خالويه) من فضل الإبانة في اقتصار من غير إطالة ولا إكثار وبدا لأبي علي الفارسي أن يحتج للقراءات الشاذة – بعد أن فرغ من احتجاجه للسبع – وهم أن يضع يده فيه ويبدأ به، فاعترضت خوالج هذا الدهر دونه، فتجرد ابن جني (ت 392هـ) للقراءات الشاذة ينوب عن شيخه في الاحتجاج لها منفذاً عزم أستاذه في كتابه (المحتسب) مساوقاً في غزارة علمه، وتوقد قريحته، ونفاذ بصيرته ودقة ملاحظته، وبراعة قياسه، وصحة استنباطه متحامياً ما عيب على أبي علي في حجته من الإطالة أو الإغماض.

(وبحجة) أبي علي، (ومحتسب) ابن جني انتصبت معالم الاحتجاج شامخة الذرا، مسفرة الضياء، مهتدى للسالكين ومقتفى للخالفين.

وتتابعت حلقات الاحتجاج وتواصلت حركة التأليف في الصحاح والشواذ مشرقة ومغربة فيطالعنا القرن الخامس الهجري (بالتبصرة والكشف) لأبي مُحَمَّد مكي بن أبي طالب بن حموش القيسي القيرواني (ت 437هـ) و (التيسير) و (جامع البيان) و (الموضح) و (المحتوى) لأبي عمر عثمان بن سعيد الداني (ت 444هـ). و (الموضح والإقناع وجامع المشهور والشاذ) لأبي علي الحسن الأهوازي المصري (ت 446هـ)، و (اللوامح) لأبي الفضل الرازي (ت 454هـ) و (الكامل في القراءات)

لأبي القاسم بن جبارة الهذلي (ت 465هـ) و (الكامل في القراءات) لأبي القاسم بن جبارة الهذلي (ت 465هـ) و (شوق العروس) في الشواذ لأبي معشر عبد الكريم الطبري (ت 487هـ).

وفي القرن السادس يطالعنا كتاب (المبهج) لأبي مُحَمَّد عبد الله المعروف بسبط الخياط البغدادي (ت 541هـ).

وفي القرن السابع يؤلف أبو البقاء العكبري (ت 616هـ) كتابه (إملاء ما من به الرحمن) ويؤلف رضي الدين أبو عبد الله مُحَمَّد بن نصر الكرماني – أواخر القرن السابع كتابه (شواذ القراءات واختلاف المصاحف).

وغير هؤلاء كثير أتى ذكرهم في كتب التفسير، واشتدت بهم عناية القرطبي (ت 671هـ) في تفسيره (البحر المحيط) وحفلت كتب الاحتجاج والتفسير بكثير من الآراء وعديد من التخريجات مختلفة النزعة متباينة الوجهة، يؤثر بعضها القياس والنظر، ويقف الآخر عند النقل والأثر، وأفضى هذا التخالف إلى تدافع الآراء واصطراع الأفكار مخلفاً وراءه تراثاً قيماً يشهد بما لأسلافنا القدماء من فضل لا ينكر ولا يدرك وجهد لا يجحد..

وللقد نظرت في هذا التراث القرآني فجمعت من وجوه القراءات المختلفة ما يربو على ثلاثة آلاف قراءة تمثل الواقع اللغوي إبان نزول القرآن وتصور خصائص اللسان العربي قبيل ظهور الإسلام وأقمت عليه دراستي في رسالة (الدكتوراه) دراسة مقارنة لتوجيهات القراءات عند اللغويين.

مفهوم الاحتجاج ودوافعه

لقد كان مفهوم الاحتجاج ودوافعه واضحين في توجيه القراءات الشاذة وهما كما عبر عنهما ابن جني في صدر كتابه (المحتسب): وكان غرضنا أن نرى وجه قوة ما يسمى الآن شاذاً، وأنه ضارب في صحة الرواية بجرانه، آخذ من سمت العربية مهلة ميدانه، لئلا يرى مري أن العدول عنه غض منه أو تهمة له.

أما الاحتجاج للقراءات الصحيحة المتواترة فأمر أنكره كثير من العلماء على اعتبار أن يقال القراءتين إذا صحتا، وثبت تواترهما عن النبي ﷺ، فلا يجوز أن يقال إحداهما أجود، لأنهما جميعاً عن النبي ﷺ، فيأثم من قال ذلك. ويذهب أبو جعفر النحاس إلى ذلك، لأن الصحابة كانوا ينكرون مثل هذا.

ولكن إذا أدركنا مفهوم (الاحتجاج) في القراءات الصحيحة المتواترة على أنه احتجاج لوجه اختيار القارئ لنفسه قراءة من بين القراءات الصحيحة المتواترة التي أتقنها، لا على أنه استدلال على صحة

قراءة وجودتها – وتفصيل إحداهما على الأخرى لذاتهما – أسغنا هذا العمل وحمدنا لهؤلاء العلماء في إثراء الدراسات اللغوية نحوية أو صرفية بما ذهبوا إليه في تعليل اختياراتهم تعليلاً نحوياً أو صرفياً أو شرعياً مستأنسين بالقرآن الكريم والأحاديث على قوة ما ذهبوا إليه في الاختيار.

وهذا ما تطالعنا به كتب الاحتجاج للسبع (كحجة أبي علي الفارسي) و (حجة ابن خالويه)، و (حجة أبي زرعة) عبد الرحمن بن مُحَمَّد بن زنجلة (من علماء القرن الخامس الهجري)....

من قضايا القرآن واللغة

الإدغام

بين النحاة والقراء

بقلم الدكتور

إسماعيل أحمد الطحان

رئيس قسم التفسير والحديث

كلية الشريعة – جامعة قطر

بسم الله الرحمن الرحيم

((الإدغام كلام العرب الذي يجري على ألسنتها، ولا يحسنون غيره))

أبو عمرو بن العلاء

اشتغل علماء العربية بظاهرة الإدغام، فشرعوا قواعدها، وسنوا طرائقها، وفصلوا أنواعها، وأحكموا تعليلها؛ غير أنهم لم يجاوزا بها هذا المنحى، على حين نحا بها القراء منحى الأداء والتطبيق، فجاءت وفق ما قعده النحاة حيناً، وعلى خلافه حيناً آخر، واشتجر الخلاف بين النحاة وما شرعوا، والقراء وما رتلوا..

ولم تكن هذه الظاهرة فحسب معترك الفريقين، بل كانت مسائل الخلاف بينهما أكثر من أن تحصى، ومعاركهما أجلّ من أن تستقصى.

وما منع الباحثين أوارُ هذه المعارك من أن يخوضوا حلبة هذا الصراع. وقد انحاز معظمهم إلى القراء، وأنحوا باللائمة على النحاة، حتى قال قائلهم: ((إن القرآن أولى بالدفاع من النحو والنحاة.. وهب أن هناك مجالاً للتعصب والتحيز فأي الأمرين أولى بالتعصب النحو أم القرآن؟))[1].

وربما أملى عليهم هذا الموقف ما تيقنوه من أن القراءة سنة متبعة.. ونحن لا نماري في ذلك، ولا نستهدف من بحثنا أن يكون صدى لأصوات هؤلاء الباحثين، وإنما أن نتعرف على (الإدغام) باعتباره ظاهرة صوتية تمثل لهجة من لهجات العرب؛ لنرى أي الفريقين أعدل بها مسلكاً، وأصوب قيلاً.

ولعل منهجية البحث تقتضي أن نبدأ بحديث النحاة عن تلك الظاهرة؛ فهو حديث تقعيد، ثم نثني القراء لتتضح المقارنة بين تقعيد النحاة، وأداء القراء.

تعريف الإدغام:

دار حديث النحاة من متقدمين ومتأخرين حول تعريف الإدغام على أنه لغة: الإدخال. واصطلاحاً: الإتيان بحرفين ساكن فمتحرك من مخرج واحد بلا فصل بينهما، بحيث ينطق بهما المتكلم دفعة واحدة [2].

---

[1] – راجع كتاب الدفاع ضد النحويين والمستشرقين: د. أحمد مكي الأنصاري المقدمة/ح.

[2] – انظر الإيضاح العضدي لأبي علي الفارسي 273/2، المقتضب للمبرد 197/4، حاشية الخضري/210، شذا العرف للحملاوي/163.

وفي كيفية ذلك يقول ابن يعيش: أن يضعوا ألسنتهم على مخرج الحرف المكرر وضعة واحدة، ويرفعوه بالحرفين رفعة واحدة، لئلا ينطقوا بالحرف ثم يعودوا إليه[1].

وهو يجري في جميع الحروف متماثلة، أو متقاربة، في كلمة واحدة، أو في كلمتين، ما عدا (الألف) فلا يصلح فيها إدغام مثلها؛ لأنها لا تكون إلا ساكنة، ولا يلتقي ساكنان[2].

أضرب التقاء المثلين:

والتقاء المثلين على ثلاثة أضرب:

الضرب الأول: تجاور مثلين أولهما ساكن، وثانيهما متحرك

(أ) من كلمتين مثل: قد دخلوا

وهذا إدغامه واجب بثلاثة شروط:

أولهما – ألا يكون أول المثلين (هاء السكت)؛ لأن الوقف عليها منوي، ولذا ضعف من جهة القياس إدغام ورش في قوله تعالى: (ما أغن عّني ماليه هلك عني سلطانيه) 28، 69/29.

ثانيها – ألا يكون أول المثلين همزة منفصلة عن الفاء نحو أكلأ أحمد، لثقل الهمزتين، وإدغامهما رديء.

ثالثها – ألا يكون أول المثلين مدة في آخر، نحو: يعطي ياسر، يغزو واقد؛ لئلا يذهب المد بالإدغام.

(ب) في كلمة واحدة: وله حالتان:

الحالة الأولى: تجاورا طرفاً، وهذا يجب إدغامه مطلقاً، نحو الشدّ مغزوّ، وأصلها (مغزوو) بوزن مفعول باعتبار (واو المد) مثلاً ساكناً تقدم على مثله المتحرك؛ واغتفر ذهاب المد في هذه لقوة الإدغام فيه.

الحالة الثانية: تجاورا وسطاً، وهذا يجب إدغامه أيضاً مثل: سلاّم، سآل، قطّع.

---

[1] – المفضل لابن يعيش 121/10.

[2] – المقتضب 198/4 تحقيق الشيخ عضيمة.

ويستثنى من ذلك (قوول) مبني للمجهول من (قاول)؛ لأن أول المثلين حرف مد وقع وسطاً، وذهاب المد بالإدغام يوقع في لبس (بفُعَّل)..

الضرب الثاني: تجاور مثلين أولهما متحرك، وثانيهما ساكن وهذا يمتنع إدغامه سواء وقع في كلمة أو من كلمتين، ومثاله في كلمة: شدَدْتُ، ظلْلتُ، ومثاله من كلمتين ألبنك رسوُل الحسن؛ لأن شر الإدغام تحرك المدغم فيه بحركة أصلية لا عارضة.

ويستثنى من ذلك المضارع المجزوم، والأمر المبني على السكون كقوله تعالى: (ومن يرتددْ منكم عن دينه) 2/217، (واغضض من صوتك) 31/19. فيجوز الفك والإدغام لوقوع المثلين طرفاً وعروض السكون بعامل الجزم، وحُمِلَ عليه شبهه وهو الأمر المبني عليه.

الضرب الثالث: تجاور مثلين متحركين

(أ) من كلمتين مثل: جعل لك، قال له صاحبه، وهذا يجوز إدغامه بشرطين:

أولهما- ألا يكونا همزتين مثل: قرأ آية، لثقل إدغام الهمزتين ورداءته إن وقع.

ثانيهما – ألا يكون أول المثلين مسبوقاً بساكن صحيح مثل: شهر رمضان، الشمس سراج، لما يترتب على الإدغام من التقاء ساكنين على غير حده وصلاً.

(ب) في كلمة واحدة، وهذا يجب إدغامه ومثاله من الأفعال: ردّ الفتى، وأصله (ردَدَ) بوزن فعل. شم ريحه، وأصله (شمم) بوزن فَعِل، لبّ الرجل، وأصله (لُبب) بوزن فعل، ومثاله من الأسماء: ما وازن الأخيرين كأن تصوغ من (الردّ) مثل كتف، أو عضُد فتقول: ردٌّ، بالإدغام لا غير. وما بقي من أوزان الأسماء مخالفاً أوزان الفعل كمثل: صُفَف بوزن (فُعل)، وذُلُل بوزن (فعل)، وكلل بوزن (فِعَل)، أو كان على وزن (فِعِل)، أو كان على وزن (فِعِل) بكسرتين، أو (فِعُل) بكسر فضم، أو (فَعَل) بفتحتين مثل جلل؛ فهو بالفك لا غير؛ لمخالفة الخمسة ألأول لوزن الفعل، وأما السادس فلخفة الفتح في الأسماء دون الأفعال.

أما ما كان على وزن (فُعِل) بضم فكسر، كأن تصوغ من (الردّ) على وزن (دُئل) فيدمغه من اعتبره من النحاة أصلاً في الفعل – وهو مذهب الجمهور – وخالف ابن كيسان فقال بالفك في جميع أوزان الاسم، سواء ما وازن الأفعال أو خالفها.

شروط الإدغام في هذا الضرب:

ويشترط لإدغام المثلين في هذا الضرب:

1 - ألا يتصدرا مثل (ددن) – وهو اللهو – لتعذر الابتداء بساكن.

2 - ألا يتصل أولهما بمدغم مثل: جُسَّس جمع جاسّ.

3 - ألا تكون حركة ثانيهما عارضة مثل: أكفف الشر.

4 - ألا يكون ما هما فيه ملحقاً بغيره مثل: قردد، ومهدد ملحقين (بجعفر)، وهيلل ملحقة (بدحرج) واقعنسس ملحقة (باحرنجم).

5 - ألا يكون اللفظ مما فكته العرب شذوذاً مثل: ألل السقاء – تغير ريحه–، ولححت عينه – إذا التصقت بالرمص وهو الوسخ المتجمد في الموق – فهذا لا يدغم، كما لا يفك غيره قياساً عليه. وما ورد من ذلك في الشعر عُدَّ من الضرورات، كقول أبي النجم العجلي (الفضل بن قدامة):

الحمد لله العلي الأجلل: الواسع الفضل الوهوب المجزل.

وأجاز النحاة الفك والإدغام في أربعة مواضع من هذا الضرب:

1 - ما كان عينه ولامه ياءين لازم تحريكهما نحو: حيي، وعيي وقد أخرجه من وجوب الإدغام كونه مختصاً بالماضي دون المضارع والأمر، فعدّ كالعارض الذي لا يعتد به، ولو كانت حركة الياء الثانية عارضة نحو: لن يحي، ورأيت محييا، وجب الفك.

2 - ما كان ماضياً مفتتحاً بتاءين نحو: تتبع، وتتابع ، وأخرجه من وجوب الفك ماضياً إلى جواز الإدغام إمكان اجتلاب همزة الوصل في أوله فتقول: اتبع، واتابع.

3 - ما كان مضارعاً بتاءين في أوله نحو: تتذكر بشرط اتصاله بما قبله مثل: لعلك تذكر، وعليه قراءة البزي: (ولا تيمموا) 2/267، (تكاد تميز) 67/8.

4 - ما كان على (افتعل) بتاءين نحو: استتر، وأخرجه من وجوب الفك إلى جواز الإدغام إمكان نقل أول المثلين إلى الساكن قبله فنقول/ ستر، بطرح همزة الوصل لتحرك الساكن بحركة النقل.

مواضع حسن الإدغام:

ثم يأتي سيبويه ليضيف إلى ما سبق عللاً يحسن بها الإدغام فيقول:

1 - إذا توالت الحركات أكثر، كان الإدغام أحسن، لأن اللغة تكره توالي المتحركات في الكلام، وتأباه في الكلمة الواحدة إذا زادت المتحركات على أربعة.. فحيث توالت حروف خمسة متحركة أدغم ثالثها في رابعها – إذا كانا مثلين – نحو: جَعَلَ لَكَ، فَعَلَ لَبِيدُ، وإن كان يرى أن البيان – أي الإظهار – عربي جيد، وهو لغة أهل الحجاز.

2 - إذا سُبق أول المثلين بمتحرك واحد فقط، وتلي الثاني بساكن حسن الإدغام أيضاً مثل: يد داود، مع ملاحظة أن الألف هي الساكن المقصود في كلامه.

3 - إذا التقي المثلان المتحركان وقبل أولهما حرف مد حسن، والبيان أحسن، وعلته أن حرف المد عند اعتبار الإدغام يكون بمنزلة المتحرك وذلك نحو: المال لك ومثله: (اتحاجوني في الله) 6/80، (ولا الضالين) 1/7.

وقد يرى في (الواو، والياء) الساكنتين شبهاً بالألف في ذلك فيدغم المثلين بعدهما مثل: ثوب بكر، وجيب بكر.

أما إذا سبق المثلان المتحركان بساكن صحيح ففي ذلك الإخفاء باختلاس حركة المتحرك، وليس فيه إدغام لسكون ما قبله مثل: ابن نوح، اسم موسى، دلو واقد، ظبي ياسر[1].

نظرات في قواعد النحاة:

هذه خلاصة موجزة لقواعد النحاة في ظاهرة الإدغام والإظهار، ولنا فيه نظرة، وعليها تعقيب:

أولاً: لقد أصابوا في فهمهم أن الإدغام يجري في جميع الحروف ما عدا الألف، ولكنهم نقضوا هذا الفهم حين لم ينصوا على عدم الإدغام في (واو المد ويائه) وهما كالألف حركات نشأت عن إشباع الحركات القصار (الفتحة، والضمة، والكسرة) بمعنى أن الألف فتحة مشبعة، والياء كسرة مشبعة، والواو ضمة مشبعة [2].

ثانياً: أصابوا أيضاً في أن الإدغام يجري في مثلين متجاورين ويعني التجاور – على التحقيق – عدم الفصل بين المثلين بحركة؛ ومن ثم كان الإدغام واجباً فيما إذا تجاوز مثلان أولهما ساكن وثانيهما متحرك في كلمتين: قد دخلوا، أو في كلمة كمثال قطع.

---

[1] - راجع الكتاب لسيبويه (باب الإدغام).

[2] - راجع سر صناعة الإعراب لابن جني 20/1.

ومقتضى ذلك أن يمتنع الإدغام في مثلين غير متجاورين ويتأتى عدم التجاور إذا كان أول المثلين متحركاً؛ لأن حركة الحرف المتحرك تقع المتحرك في الرتبة بعده، فتكون فاصلة بين المثلين – على ما قرره ابن جني و استدل له[1].

وهذا كاف في امتناع الإدغام، بغض النظر عن كون الثاني ساكناً أو متحركاً كمثالي: شددت، وذهب بكر. ولكنهم تساهلوا في معنى التجاور عدوا منه تجاور مثلين أولهما متحرك، وليس ذلك بسديد.

وقد حدا التساهل ببعض من ألفوا في (علم التجويد) أن يشترط للإدغام التقاء الحرفين: المدغم والمدغم فيه خطا ولفظاً، أو خطا لا لفظاً؛ ليدخل في الإدغام نحو (إنه هو) بحجة أن الهاءين وإن لم يلتقيا لوجود الواو المدية في أثناء النطق فإنهما التقيا خطاً، إذ الواو المدية لا تكتب في الخط، وليخرج من الإدغام مثل (أنا نذير) بحجة أن النونين وإن التقيا لفظاً إلا أن الألف تعتبر فاصلة بينهما خطاً [2]. ولم يدر أنهما سواء في عدم الالتقاء؛ لتحرك الأول من المثلين بغض النظر عن طول الحركة أو قصرها، أو ثبوتها خطاً حذفها.

ثالثاً: في ضوء ما قررناه من حدث التجاور أو عدمه لا يكون لقضية الإدغام إلا حكمان:

1 – إما وجوب الإدغام حيث لا يمكن سواه عند سكون الأول وتحرك الثاني.

2 – وإما امتناعه حيث لا يمكن تأتيه عند حركة الأول مهما تكن حالة الثاني منهما.

أما جواز الإدغام – على حد تعبير النحاة – فليس حكماً ثالثاً من أحكامه، إذ ليس في الإدغام جواز من حيث هو (ظاهرة صوتية آلية). وإنما الجواز في أسبابه كأن يتمكن الناطق – أخذا بما يجوز به – من إسكان أول المثلين في كلمة مثل (تتابع) فيقول (اتتابع) وحينئذ يكون الإدغام واجباً حيث لا يمكن سواه أسبابه من تجاور مثلين أولهما ساكن، بعد أن كان الإدغام ممتنعاً في الصورة الأولى متحركة المثلين.

وعلى هذه النظرة يجب أن تفهم قضية الجواز في الإدغام.

وبناء على كل ما سبق يكون امتناع الإدغام في كل ما مثل به النحاة له راجعاً إلى عدم التمكن من إسكان أو المثلين فحسب؛ إما لأسباب صوتية كتعذر الابتداء بساكن كما في نحو: (ددن) أو التقاء ساكنين على غير حده كما في نحو: (جسس، اكفف الشر) أو أسباب تتعلق بالصيغ كالمحافظة على

---

[1] – سر الصناعة 1/32/-37.

[2] – سر الصناعة 1/32-37.

صيغ الإلحاق كما في نحو: (قردد ومهدد)، أو خوف الخلط بين الصيغ مما يسبب اللبس بينهما في المعنى مثل (ذُلُل – ذُلّ)، (أنا نذير – أنْ نذير = النذير)، (كنت تراباً – كنتّرابا) حيث لا يفرق بين متكلم ومخاطب.

رابعاً: يبقى لنا بعد ذلك ملاحظات على ما مثل به النحاة مما استوفى شروط الإدغام ولكنه لم يدغم مثل:

1 - أن يكون أول المثلين (هاء السكت) كقوله تعالى: (**ما أغنى عني ماليه هلك عني سلطانية**) بحجة أن الوقف منوي، وهذا يمنع الإدغام. وخطأ النحاة قراءة ورش بالإدغام في هذه الآية (**ماليه هلك**).

والحق أن للقراء مذهبين في الأداء:

(أ) الوقف على الهاء – ويعني الوقف عند القراء – قطع الصوت زمناً ما مع التنفس، ولا معدى عن الإظهار معه.

(ب) السكت عند الهاء – ويعني السكت عندهم – حبس الصوت زمناً يسيراً من غير تنفس. وهذا الأداء يحقق للهاء علة وجودها في إبراز حركة ياء الإضافة، كما يتيح للقارئ الإدغام، حيث لم يخرج السكت عن إطالته إمساك الصوت في مخرجه ثم يتبعه الإطلاق وهذه آلية إنتاج الصوت المضعف – على ما سيجيء بعد – وعليه فالقراءة إذاً صحيحة، وقد روعي هذا المذهب عند تسمية هذه الهاء (بهاء السكت) لا هاء الوقف، وكأنه الأمثل في الأداء. وبه قرأ نافع وابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، والكسائي، وأبو جعفر، وورش عن نافع [1].

2 - أن يكون المثلان همزتين من كلمتين مثل (أكلأ أحمد) بحجة ثقل الهمزتين، ويفرون منه إلى تخفيف إحداهما، وهو سلوك لبعض الناطقين التماساً لخفة الأداء – وعلى أية حال فالتخفيف يذهب المماثلة فلم يلق الحرف مثله – ولكن يظل في مقابله سلوك آخر وهو تحقيق الهمزتين – وهو مذهب ابن إسحاق – ومن ثم وجب إدغامها، لأنها بمنزلة غيرهما من من الحروف [2].

3 - أن يكون أول المثلين مدة الآخر مثل: يعطي ياسر، ويغزو واقد. وقد عدوا من تجاور مثلين أولهما ساكن، وامتنع الإدغام بحجة أن الإدغام يذهب بالمد.

---

[1] – راجع المهذب في القراءات العشر: د. محمد سالم محيسن 301/2، والمقتبس /92.

[2] – راجع المقتضب 198/4.

وفي هذا من التناقض ما لا يخفي. فكيف يكون كل من أول المثلين ساكناً، وهو حرف مد؟

لقد كان عليهم أن يدركوا ابتداء أنهما غير متماثلين (فالياء والواو) الأوليان رمزا حركتين طويلتين، وهما كالألف لا يدغم فيها، والأخريان حرفان معتلان – في إطلاق الصرفيين، أو أن كلا منهما يسمى (مزدوجاً) في لسان الصوتيين، ويهنون (بالمزدوج) الأثر الناتج من ازدواج حركتين أو أكثر، فالياء عندهم انزلاق بين حركتين هما الفتحة والكسرة إذا تراكبا، والواو انزلاق بين حركتين هما الفتحة والضمة إذا تراكبا أيضا، فكل منهما نصف (حركة) من الناحية الصوتية، وكل منهما أيضاً نصف (صامت) من الناحية الموقعية [1].

أما أصوات المد فليست من ذلك في شيء، فهي من جنس الحركات أصوات انطلاقية، ومن ثم فلا علاقة بينهما توحي بالتماثل، سوى أن المدتين والمعتلتين قد تحدتا في الرمز، ولعل هذا هو سبب التماثل بين الجنسين.

وبهذه التفرقة ينتفي التماثل الموجب للإدغام وليس خوف ذهاب المد كما تصوره النحاة.

وبمثل هذا أيضاً يفسر عدم الإدغام بين المثلين المتوهمين في (قوول) فالواو الأولى رمز حركة طويلة، وليست صامتاً معتلاً ساكناً كما توهمه النحاة، وليس المنع خوف الالتباس بصيغة (فُعَّل) إذ لا سبيل إليه.

أما صيغة اسم المفعول من الفعل المعتل (غزا) (مغزوّ) على حد ما تصور النحاة أصله (مغزوو)؛ فليس إدغام مثلين إذ الأولى حركة طويلة، والأخرى حرف علة – (مزدوج) وهما غير متماثلين كما سبق أن بيناّ. وإنما يفسره الصوتيون بأن (المزدوج) قد وقع طرفاً بعد حركة طويلة – وهي تعادل حركتين قصيرتين، فشكل تتابعاً حركياً ثقيلاً على النحو الآتي:

Magzuu – au/w

وقد مالت اللغة إلى التخلص من هذا الثقل بتقصير الحركة الطويلة – Magzu – w

ثم ضعف المزدوج في موقعه لتقوية مقطعه – magzu – ww لأن اللغة ترفض الواو إثر ضمة في آخر الكلمة.

---

[1] – راجع في ذلك: اللغة لفندريس854، علم اللغة د. السعران/203، 204، الأصوات د. أنيس/162، المنهج الصوتي العربية/170 د. عبد الصبور شاهين.

في هذا الصدد نذكر أيضاً بما قاله النحاة في شأن (فاء) المثال عندما نصوغ من (وصل) على وزن افتعل (اتصل) بتاء مضعفة عدها النحاة من الإدغام بإبدال (واو) الفعل (تاء) ثم أدغمت في (تاء) افتعل.

وهو تحليل رفضه الصوتيون لافتقاد القرابة الصوتية بين المبدل والمبدل منه، وإنما فسروه بإسقاط (المزدوج) الهابط في اصل الكلمة

['itasala – 'iutasala]

w

لاختلال عناصره، وقد ترتب على سقوطه توالي أربعة مقاطع متحركة، فاضطر الناطق إلى إضافة (ساكن نبري) بالضغط على المقطع المنبور وهو (التاء) لتصحيح الصيغة فصارت [ittasala] وهذا الساكن ليس أصلاً في الكلمة ولا هو مبدل من الواو كما قال النحاة.

ولعل التضعيف في هاتين الصيغتين وأمثالهما يؤكد تأتيه دون مثلين يدغم أولهما في ثانيهما.

وهذا يؤكد صحة ما أخذنا به من تكييف الصوتين لظاهرة التضعيف من أنه ليس إدخال صوت في صوت –كما تصوره الأقدمون – وإنما هو إطالة زمن الإمساك عند نطق صامت ما، ذلك أن في نطق كل صامت ثلاث خطوات متميزة هي: الإغلاق ثم الإمساك ثم الإطلاق، وهي تظهر بوضوح فيما يسمى بالصوامت المضعفة حيث يطول زمن الإمساك حتى تحسه الأذن، ثم يتبعه الإطلاق قوياً على حين يقصر زمن الإمساك في الصوامت غير المضعفة حتى لا يكاد يحس[1]

((251))

وقد أدرك هذا التكييف من اللغويين القدامى صاحب (مرح الأرواح) فقال: ((الإدغام إلباث الحرف في مخرجه مقدار إلباث الحرفين [2]))

ولعل هذا يفسر لنا سر عدم التضعيف في الحركات مطلقاً، فإنها أصوات إنطلاقية يمضي بها الهواء إلى خارج الفم دون عائق أو تضييق في مجراه، فلا إغلاق ولا إمساك.

وفي ضوء هذا التكييف لظاهرة التضعيف يمكن تحليل صورة الإدغام في كل مثلين متجاورين كمثال (قد دخلوا) بأنه إسقاط أحد المثلين، وإطالة الإمساك منهما، وليس إدخال صوت في صوت، وإن كانت النتيجة واحدة في كلا التفسير، إلا أن عملية الإدخال ليست تحليلاً صوتياً سديداً.

---

[1] – راجع: اللغة لفندريس/49، علم اللغة د. السعران/181، المنهج الصوتي/207-211.

[2] – انظر: المدخل إلى علم اللغة/101 د. رمضان عبد التواب نقلاً عن مراح الأرواح/82.

ور بما يساعدنا في دعوى الإسقاط ما نراه من الإسقاط مسلك عام في اللغة تلجأ إليه للتخفيف في كثير من الصيغ التي يتكرر الحرف حين يتعذر التضعيف كصيغ المضارع المبدوء بتاءين مثل (تتكلم، تتنزل) ومنه في القرآن (لا تكلم نفس إلا بإذنه) 11/105 (تنزل الملائكة) 97/4.

وقد يقع الحذف مع النونين فيه أيضاً مثل: تنزل في قراءة من قرأ (ونزل الملائكة تنزيلا) 25/25، ومنه على الأظهر قراءة ابن عامر وعاصم (وكذلك نُجيّ المؤمنين) 21/88 وأصله ننجّي.

وكذلك صيغ الثلاثي المضعف المكسور العين (وعينه ولامه) من جنس واحد فإنه يستعمل في حال إسناده إلى الضمير المتحرك على ثلاثة أوجه:

تاماً ومحذوف العين بعد نقل حركتها، ومع ترك النقل؛ تقول في ظل (ظَلِلْتُ، وظَلت) قال تعال: (فظلتم تفكهون) 56/65. وسمع في (استطاع) اسطاع ومنه قوله تعالى: (ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبرا) 18/82.

ولا يمنع ذلك من اعتبار الصامت زمنياً، صامتين بسيطين في التقسيم المقطعي للكلمة أولهما نهاية مقطع مقفل، وثانيها بداية مقطع تال له كمثال: ش دْ/دَ ويبدو ذلك واضحاً في التحليل الصرفي لعملية فك التضعيف لاعتبارات مقطعية شدّ حين تسند إلى ضمير المتكلم فتقول (شددت).

الإدغام في مصنفات القراء

والإدغام في مصنفات القراء ينقسم إلى قسمين: كبير، وصغير. فالكبير ما كان أول الحرفين متحركاً فيه سواء أكانا متماثلين أو متجانسين، أو متقاربين، وسمي كبيراً قيل لكثرة وقوعه، إذا الحركة أكثر من السكون، وقيل لتأثيره في إسكان المتحرك قبل إدغامه، وقيل لصعوبته وكثرة العمل فيه.

والصغير ما كان أول الحرفين فيه ساكناً، وقيل صغيراً؛ لقلة وقوعه، أو لقلة العمل فيه [1].

وربما كان تعبيرنا عنهما أدق إذا قلنا (الصغير) هو ما تجاوز فيه الحرفان، (والكبير) ما لم يتجاوز فيه الحرفان على نحو ما قدمن..

[1] – الإتقان للسيوطي 123/1.

وأشهر من عرف به القراء أبو عمرو بن العلاء (68-154هـ) إمام أهل البصرة، وأحد السبعة وهو من نعول عليه في رصد هذه الظاهرة في القراءات.

* قرأ على الحسن البصري، وعكرمة، وأبي العالية، وعاصم، وابن كثير.

* وقرأ الحسن البصري على حطان وأبي العالية.

* وقرأ أبو العالية على عمر بن الخطاب وأبيّ بن كعب وكلاهما عن النبي ﷺ.

وروى القراءة عنه جماعة كثيرة من أشهرهم:

أبوزيد الأنصاري، والأصمعي، وعيسى بن عمر، ويحي اليزيدي وسيبويه.

وراوياه: أبو عمر الدوري (ت 246هـ)، وصالح بن زياد السوسي (ت 261هـ) [1].

الإدغام الصغير: في المتماثلين:

قال السيوطي: كل حرفين التقيا أولهما ساكن، وكانا مثلين وجب إدغام الأول منهما لغة وقراءة عند الجميع.

فالمثلان في كلمة: (أينما تكونوا يدرككم الموت) 4/87.

(أينما يوجهه لا يأت بخير) 16/76.

والمثلان في كلمتين: (اضرب بعصاك الحجر) 2/60.

((254))

(فما ربحت تجارتهم) 2/16

(وقد دخلوا بالكفر) 5/61

(وقل لهّم في أنفسهم) 4/63

(وهم من بعد غلبهم) 30/3

(ولا تجزي نفس عن نفس) 2/48

---

[1] – راجع غاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري.

الإدغام الكبير: في المتماثلين:

* فالمثلان في كلمة أدغمهما أبو عمرو ويعقوب في موضعين هما:

* (فإذا قضيتم مناسككم) 2/200، (ما سلككم في سقر) 74/42 وما عداهما فقد أظهره: مثل

* (جباههم) 9/35 (وجوههم) 3/106 (أتحاجوننا) 2/139 وما أدغماه – على ما نرى – واقع في الكافين متحرك ما قبلهما فحسب، ولذلك أظهرا في قوله تعالى: (يكفرون بشرككم) 35/14 واعتلا لذلك بسكون ما قبل الكاف.

وأما المثلان في كلمتين فقد أدغم أبو عمرو ويعقوب الأول في الثاني منهما سواء ما قبله أو تحرك في جميع القرآن، إلا أن يكون الأول (تاء) ضمير مثل (كنت ترابا) 78/40، أو مشدداً مثل (مسّ سقر) 54/48، أو منوناً مثل (سميع عليم) 2/224.

وهذا استثناء ضروري لخوف اللبس في الأول، ولاستحالة تسكين المثل ضرورة تحريكه للإدغام فيه في المثال الثاني، وأما الثالث فلا يتأتى فيه تجاور المثلين بسبب الفصل بينهما بنون ساكنة (هي التنوين).

((255))

وما عدا ذلك فقد قرأ به مدغماً في جميع القرآن حيث وقع مثل:

(الكتاب بالحق) 42/17

(الموت تحبسونهما) 5/106

(حيث ثقفتموهم) 2/191

(النكاح حتى) 2/235

(شهر رمضان) 2/185

(الناس سكارى) 22/2

(يشفع عنده) 2/255

(ومن يبتغ غير الإسلام) 3/85

(وما اختلفت فيه) 2/213

(فلما أفاق قال) 7/143

(إنك كنت بنا) 20/35

(لا قيل لهم بها) 27/37

(الرحيم مالك) 2، 1/3

(ونحن نسبح بحمدك) 2/30

(فهو وليهم) 16/63

(فيه هدى للمتقين) 2/2

(أن يأتي يوم) 2/254

وقد نص الداني على عدم الإدغام في قوله تعالى (ومن كفر فلا يحزنك كفره) 310/23 بحجة وجود نون ساكنة قبل الكاف فوقع بينهما إخفاء فاكتفي به [1].

((256))

وأنكر النحاة على أبي عمرو إدغامه فيما كان أول المثلين مسبوقاً بساكن صحيح مثل (اسْم موسى)، (قرْم مالك) وعللوا ذلك بأن المنفصلين لم يبلغا من القوة أن يحرك لهما الساكن قبلهما، كما كان ذلك في المتصلين، وعدوا ما أدغم من المنفصلين – بعد تحريك الساكن قبلهما – شاذاً..

ولم يبال القراء من أمثال أبي عمرو ويعقوب، وحمزة، والكسائي بإنكار النحاة وقرءوا منه الكثير مثل قوله تعالى:

(شهر رمضان) 2/185 (وجعل الشمس سراجاً) 71/16

(خذ العفو وأمر بالعرف) 7/199، (خير من اللهْو ومن التجارة) 62/11.

واستحسن النحاة من إدغام المنفصلين المتحركين ما توالت فيه خمسة متحركات في الكلمتين كقوله تعالى: (أن تقع على الأرض) 22/65 وقوله تعالى (إن شاء جعل لك) [2] 25/10.

هل يدغم غير المتماثلين؟

قال النحاة والقراء: وكما يقع الإدغام في المتماثلين يقع كذلك في المتجانسين والمتقاربين. والمتجانسان: هما ما اتفقا مخرجاً، دون جميع الصفات [كالتاء والدال، والثاء والذال].

---

[1] – تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشرة للإمام المحقق مُحَمَّد بن الجزري/42.

[2] – راجع التكملة (الإيضاح العضدي) للفارسي تحقيق د. حسن فرهود 274/2.

والمتقاربان: هما ما تقاربا مخرجاً، واتفقا في بعض الصفا [كالذال والزاي، والثاء والسين].

والمقصود بالصفة هنا طريقة النطق كالشدة، والرخاوة، أو القيمة الصوتية كالتضخيم والترقيق، أو القيمة

((257))

الصوتية كالتضخيم والترقيق، أو وضع الصوت كالجهر، والهمس [1].

وقد تجوز النحاة في إطلاق (التقارب) على الطائفتين فقالوا [باب إدغام الحروف المتقاربة في مقاربها] وأدرجوا تحته الحروف المتجانسة [2].

---

[1] – اللغة: مبناها ومعناها: د. تمام حسان/289.

[2] – التكملة: للفارسي/276.

النظام الصوتي للفصحى بين المحدثين والقدامى

المخارج	الصفات										
	شديد				رخو				مركب يجمع بين الشدة والرخاوة	متوسط			
	مجهور		مهموس		مجهور		مهموس		مجهور فقط	منحرف جانبي	مكرر	أنفي	لين
	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق	مفخم	مرقق					
شفوي		ب										م	و
شفوي أسناني								ف					
أسناني					ظ	ذ		ث					
أسناني لثوي	ض	د	ط عند سيبويه	ت		ز	ص	س					
لثوي										ل	ر	ن	
غاري								ش	ج				ي
طبقي				ك									
حلقومي (الهوى)	(ق) عند سيبويه		ق		غ		خ						
حلقي					(غ) عند سيبويه	ع	(خ) عند سيبويه	ح					
حنجري				ء				هـ					

وقال الزمخشري: وسبيل الإدغام في المتجانسين أو المتقاربين أن يقلب أحد الصوتين إلى صاحبه ليصير مثلاً، لأن محاولة إدغامه فيه كما هو محال، فإذا أردنا إدغام (الدال في السين) من قوله تعالى: (

يكاد سنا برقه) نقلب الدال أولاً سيناً ثم ندغم السين في السين فنقول (يكادسنابرقه) وكذلك (التاء في الطاء) من قوله تعالى: (قالت طائفة) فنقول (قالطائفة)[1].

وفي ضوء هذا الذي قرره الزمخشري – وهو الحق – فلا إدغام في سوى المتماثلين، حيث يتعذر الإدغام دون مماثلة.

وقد نختصر الإجراء في هذه الظاهرة إذا قلنا في تحليلها: إسقاط أحد الصوتين وتضعيف الآخر. كما هي إلى قضية الإدغام بعامة..

ولكن أي الصوتين يحذف وأيهما يبقى ولماذا؟

قال النحاة: والأصل في الإدغام أن يجعل الأول من جنس الثاني، حيث إن الغالب في اللغة تأثير الثاني في الأول، وهذا يعني فيما نذهب إليه أن نسقط أول الصوتين ونضعف الآخر.

غير أن العلاقة بين الصوتين والموقعية قد تحكم هذه القاعدة فتحيز غناء أحدهما عن الآخر في موقع، ولا تجيزه في موقع آخر، وقد لا يصلح الحرف لشيء من ذلك على الإطلاق وعلى ذلك قسم سيبويه الإدغام في هذا المجال إلى ثلاثة أقسام بحسب سلوك مجموعات الحروف:

1 - حروف لا تدغم في مقاربها ولا يدغم مقاربها فيها.

2 - حروف لا تدغم في مقاربها، ولكن يدغم مقاربها فيها.

3 - حروف تدغم في مقاربها ويدغم مقاربها فيها.

الطائفة الأولى:

وهي التي لا تصلح حروفها لشيء من ذلك:

الهمزة: حيث استقلوا إدغامهما في مثلها في مثلها عند من يحققهما، وألزم آخرون الثانية القلب (واواً، أو ياءً، أو لفاً) وحينئذ لا يدغمون الهمزة لأنها ليست من أمثالها ولا مقارباتها.

الألف: لا تدغم في مثلها، ولا تدغم في الهاء، ولا الهاء فيها ونص سيبويه على الهاء خاصة لما بينها وبين الألف من صلة قربى في نظره.

---

[1] - راجع المفضل للزمخشري/396/ك/2.

الياء والواو: إذا كانتا مدتين لا يدغمان في مثليهما لشبههما بالألف في المد واللين – على نحو ما قررناه من قبل.

غير أن النحاة قد يسوون بين (الواو والياء) حرفي مد ولين، وبينهما حرفي علة فيرون فيهما مثلين يجب إدغامهما، ومثلوا للواو بكلمة (مغزوّ) وأمثالها باعتبار أصصلها (مغزوو) بوزن مفعول فالتقى مثلان فأدغما فصارت الكلمة إلى (مغزوّ). ومثلوا للياء بكلمة (خطية) باعتبار أصصلها (خطيئة) فقلبت الهمزة ياء فصارت (خطيية) بوزن فعلية فالتقى مثلان فأدغما فصارت الكلمة إلى (خطية) بياء مشددة. وهو تصور غير صحيح وقد سبقت إشارتنا إلى ذلك.

أما إذا كانت حرفي علة فلهما ما لأمثالهما من حروف المعجم من

((261))

إدغامهما متماثلين مثل حيّ وعيّ في حيي وعيي، واخشى ياسراً، واخشْوا واقداً.

أما إذا التقيا مع ما يقاربهما، فقد نص سيبويه والمبرد والفارسي على عدم إدغامهما، فلا تدغم الياء في الجيم والشين ولا يدغمان فيهما. وكذلك لا تدغم في الميم والباء فيها. واعتلوا لذلك بأن ما في الواو والياء من لين قد باعد بين ما هو من مخارجهما ولئلا يذهب اللين عند إدغامهما في مقاربهما، ولا العكس لئلا يدخل في حروف اللين ما ليس بلين [1].

وربما رأوا أن هذا التعليل لا يطرد قبوله فيما اتفق عليه النحاة والقراء من إدغام النون في كل من الياء والواو في مثل (من يرتد)، (من ولى) فذهب كلمن سيبويه والمبرد يلتمس علة لذلك.

فقال سيبويه: وإنما أدغمت النون في الواو، لأن الواو من موضع تعتل فيه النون؛ لأن الواو والميم من الشفة ولذلك تقلب النون الساكنة مع الباء ميماً لتعتل مع الباء في قولك (العنبر، والشفاء يا فتى) فتقول: (العمبر والشمباء) لأنه ليس في الكلام ميم ساكنة قبل باء.

وأما إدغامهما في الياء فلأن الياء والواو بمنزله ما تقاربت مخارجه ألا ترى منهما ساكنة لزم الإدغام في نحو سيدّ لزم الإدغام في نحو سيدّ في سيْود، وطيّ في طوْي.

وعد المبرد هذا من سيويه زعماً غير صحيح، وراح يعلل ذلك فقال:

((262))

وأما إ دغام النون في النون والياء فلعلل غير واحدة. منها:

---

[1] – راجع التكملة (الإيضاح) / 276، الكتاب لسيبويه 411/2، المقتضب للمبرد 210/4.

1 – مضارعة النون لهما حيث تزاد في موضع زيادتها: تزاد ثانية في مثل (عنسل) وهو موضع زيادة الواو في (كوثر) والياء في (بيطر).

وتزاد في مثل ثالثة في مثل (حبنطي) وهو موضع زيادة الواو في (جدل) والياء في (عثير).

وتزاد رابعة في مثل (رعشن) وهو موضع زيادة الواو في (ترقوة) والياء في (سلقيت).

2 – تكون النون علامة إعراب في مثل قولك: يفعلان، وهما يكونان علامتي إعراب أيضاً. فهي تصرف معهما في الزيادات والعلامات [1].

وعلل مكي بن أبي طالب ذلك فقال: وعلة إدغام النون الساكنة و(التنوين) في الياء والواو، وإظهار الغنة هي ما بينهم من التشابه، وذلك أن الغنة التي في النون تشبه المد واللين اللذين في الياء والواو، وأيضاً فإن الواو من مخرج الميم فأدغمت النون فيها كما تدغم في الميم، لمؤاخاة الميم الواو في المخرج، ولذلك بقيت الغنة ظاهرة كما تبقى في الميم.

ولما كانت الواو تدغم في الياء نحو (طيّ وليّ) جاز إدغام النون الساكنة في الياء كما جاز في الواو، وعلى هذا جماعة القراء [2].

الطائفة الثانية:

وهي التي لا تدغم في مقاربها، ولكن يدغم فيها مقاربها – بمعنى أنها تغني عن مقاربها – بمعنى أنها تغني عن مقاربها، ولا يغني عنها – وحروفها عند النحاة [الميم – الفاء – الراء – الشين – الضاد].

1– الميم وما يقاربها:

ويقع ذلك من حيث التقدم والتأخر على صورتين:

أولاً: الميم وما يسبقها:

ب م = م م فتغني الميم عن مقاربها وهو (الباء) فتقول: (اصحمّطرا) تريد: اسحب مّطرا.

* وقرأ به أبو عمرو، الكسائي، وخلف قوله تعالى: (يعذب من يشاء) 2/284 حيث وقع لا غير.

* وقرأ به أبو عمرو، والكسائي، ويعقوب قوله تعالى: (اركب معنا) 11/42.

---

[1] – راجع المقتصب 219/4، 220.

[2] – راجع الكشف عن وجوه القراءات السبع: لأبي مُحَمَّد مكي بن أبي طالب تحقيق د. محي الدين رمضان164/1.

ن م = م م فتغني الميم عن مقاربها هو (النون) فتقول: (خذ ممالك) تريد: خذ من مالك.

* وقرأ الجميع بإدغام النون في الميم حيث وقع كقوله تعالى: (أنفقوا مما رزقناكم) 2/254.

((264))

ثانياً: الميم وما يلحقها:

م ب = م ب فلا يغني عن الميم مقاربها وهو (الباء)، فلا إدغام في مثل قولك: أكرمْ به.

* والقراء يخفون الميم عند الباء إذا تحرك ما قبلها نحو قوله تعالى (بأعلم بالشاكرين) 6/53 (يحكم به ذوا عدل منكم) 5/95، وما أشبهه، وبعضهم يعبر عنه بالإدغام، وليس كذلك لامتناع القلب فيه.

فإن سكن ما قبلها فلا تخفي نحو قوله تعالى: (ووصى بها إبراهيم بنيه) 2/123. وقوله تعالى: (الشهر الحرام بالشهر الحرام) 2/194، وما أشبهه [1].

م ن = م ن فلا يغني عن الميم مقاربها وهو (النون) فلا إدغام في مثل قوله تعالى: (واتل عليهمْ نبأ ابني آدم بالحق) 5/27.

(2) الفاء وما يقاربها: وهو على صورتين.

أولاً: الفاء وما يسبقها:

ب ف = ف ف فتغني الفاء عن مقاربها وهو (الباء) فنقول: (اكتفّي ذلك) تريد: اكتب فيّ ذلك.

* وقرأ به أبو عمرو، والكسائي، وخلاد في خمسة

((265))

مواضع وهي جملة ما في ذلك من كتاب الله: (أو يغلب فسوف) 4/74، (وان تعجب فعجب) 13/5. (اذهب فمن تبعك) 17/63، (فاذهب فإن لك) 20/97، (ومن لم يتب فأولئك) 49/11.

ثانيا: الفاء وما يلحقها:

ف ب = ف ب فلا يغني عن الفاء مقاربها وهو (الباء) فلا إدغام في مثل قولك: أعرفْ بدراً.

---

[1] – راجع تحبير التيسير/49 وقارن بالمهذب في القراءات العشر: د. مُحَمَّد سالم محيسن 196/1، 210.

قال سيبويه: لأن الفاء من باطن الشفة السفلى وأطراف الثنايا العليا وانحدرت إلى الفم وقد قاربت ومن الثنايا مخرج (الثاء) فلم تدغم فيما لا تدغم فيه الثاء [1].

* واختلف الكسائي مع النحاة في ذلك فقرأ بالإدغام في قوله تعالى: (إن نشأ نخسف بهم الأرض) 34/9 وقد كرهه البصريون لزوال التفشي الذي في الفاء وضعفه الزمخشري. ورد عليهم أبو حيان بأن القراءة سنة متبعة ويوجد فيها الفصيح والأفصح، وكل ذلك من تيسيره تعالى القرآن للذكر، فلا التفات لمن كرهه، أو ضعفه. وقد أجازه الكوفيون[2].

(3) الراء وما يقاربها: وهو على صورتين:

أولا: الراء وما يسبقها:

ل ر= رر فتغني الراء عن مقاربها وهو (اللام) فتقول: (قرر رأيك) تريد: قل رّأيك.

* وقرأ الجميع بالإدغام في قوله تعالى: (وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيراً) 17/24 وما أشبه حيث وقع.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بإدغام اللام في الراء إذا تحرك ما قبلها نحو (فاسلكي سُبلَ ربك) 16/69، (قد جعل ربك) 19/24، وشبهه.

أو سكن ما قبلها وهي مضمومة أو مكسورة نحو قوله تعالى: (إنه لقولُ رسول كريم) 69/40 وقوله تعالى: (ادع إلى سبيل ربك) 16/125.

فإن انفتحت فلا إدغام نحو قوله تعالى: (فيقول رب لولا أخرجتني) 63/10، ونحو قوله تعالى: (فعصوا رسولَ ربهم) 69/10 وشبهه. إلا (لام) فإنها تدغم حيث وقعت نحو (قال رب ارجعون) 23/99 ولا خلاف بين أهل الأداء في إدغامها.

ن ر = رر فتغني الراء عن مقاربها وهو (النون) فنقول: (حسرّ سمك) تريد: حسن رّسمك.

* وقرأ الجميع بالإدغام في قوله تعالى: (ولقد جاءهم من رّبهم الهدى) 53/23.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بإدغام النون في الراء إذا تحرك ما قبلها نحو (وإذ تأذن ربك) 7/197، (خزائن رحمة ربي) 17/100 وشبهه حيث وقع، فإن سكن ما قبلها لم يدغمها بأي حركة تحركت هي نحو قوله تعالى: (بإذن ربهم) 97/4، (يقولون ربنا) 3/16 وشبهه.

---

[1] – الكتاب لسيبويه 412/2.

[2] – راجع الكشف لمكي 156/1، المفصل للزمخشري/401، البحر المحيط لأبي حيان 261/8.

ثانيا: الراء وما يلحقها:

ر ل = ر ل قال النحاة فلا يغني عن الراء مقاربها وهو (اللام) فلا إدغام في مثل قولك: اجبر لبطة؛ لأن في الراء تكرار [1].

((268))

وخالف أبو عمرو، ويعقوب نحاة البصرة في ذلك فقرأ بإدغام الراء في اللام إذا تحرك ما قبلها نحو (ويغفر لكم) 3/31 (وسخر لكم) 16/12 وما أشبهه حيث وقع [2].

فإن سكن ما قبلها وانكسرت هي أو انضمت أدغمها أيضاً فيها نحو (وإليك المصير لا يكلف) 285، 2/286 (إن كتاب الفجار لفي سجين) 83/7 وشبهه حيث وقع؛ فإن انفتحت بعد ساكن لم يدغمها في نحو قوله تعالى: (والحمير لتركبوها) 16/8 (إن الأبرار لفي نعيم) 82/13 وشبهه حيث وقع [3].

* وكره الإدغام في ذلك كل من سيبويه، والمبرد لأن الراء مكررة وهي تفشى إذا كان معها غيرها فكرهوا أن يجحفوا بها، فتدغم مع ما ليس يتفشى في الفم مثلها ولا يكرر [4].

* وتطاول الزمخشري ولحن القراءة فقال: ومدغم الراء في اللام لاحن مخطئ خطأ فاحشاً وراويه عن أبي عمرو مخطئ مرتين لأنه يلحن وينسب إلى أعلم الناس بالعربية ما يؤذن بجهل عظيم، والسبب في

((269))

نحو الروايات قلة ضبط الرواة، والسبب في قلة الضبط قلة الدراية ولا يضبط نحو هذا إلا أهل النحو.

ورد عليه أبو حيان، فاتهمه بالطعن على القراء كعادته، وقال: وهذه مسألة اختلف فيها النحاة ف ذهب الخليل وسيبويه وأصحابه إلى أنه لا يجوز إدغام الراء في اللام من أجل التكرار الذي فيها.

---

[1] - المقتضب 212/4.

[2] - راجع تحبير التيسير/48.

[3] - راجع تحبير التيسير/48.

[4] - راجع المقتضب 212/4.

وأجاز ذلك الفراء والكسائي وحكياه سماعاً ووافقهما على سماعه رواية وأجازه أبو جعفر الرواسي وهو إمام الكوفيين في العربية. وقد وافقهم أبو عمرو على الإدغام رواية وإجازة وتابعه يعقوب.

ولسان العرب ليس محصوراً فيما ننقله البصريون فقط ولا القراءة وقف عليهم، بل القراء الكوفيون يكادون مثل قراء البصرة، وقد اتفق على نقل إدغام الراء في اللام أبو عمرو ويعقوب الحضرمي من البصريين، والرواسي، والكسائي والفراء من الكوفيين وأجازوه ورووه عن العرب فوجب قبوله وقد تبين أن ذلك صواب، وأن الذي روى ذلك غير مخطئ وكيف وهو أبو مُحَمَّد اليزيدي إمام في النحو إمام في القراءات، إمام في اللغة [1].

رن = رن فلا يغني عن الراء مقاربها وهو (النون) فلا إدغام في مثل قولك: اختر نقلاً.

* والقراءة على ذلك. فقد قرئ بالإظهار كل ما جاء من هذا النسق كقوله تعالى: (واصبر نفسك) 18/28، (ولتنظر نفس) 59/18.

(4) الشين وما يقاربها: وهو على صورتين:

أولاً: الشين وما يسبقها:

ج ش = ش ش فتغني الشين عن مقاربها وهو (الجيم) فنقول (أخر شيئا) تريد: أخرج شيئا.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب في موضع واحد، هو قوله تعالى: (أخرج شطأه) [2] 48/29.

ل ش = ش ش فتغني الشين عن مقاربها وهو (اللام) فنقول (لا تفعّشرا) تريد: لا تفعل شّرا.

وأنشدوا لتميم بن طريف العنبري:

تقـــول إذ أهلكـــت مـــالاً للـــذة فكيهـــة هّشـــئ بكفيـــك لائـــق

والأصل: هل شيء [3].

((271))

ط ش = ش ش فتغني الشين عن مقاربها وهو (الطاء) فنقول (لا تخالشرا) تريد: لا تخالط شرا.

ظ ش = ش ش فتغني الشين عن مقاربها وهو (الظاء) فنقول (لم يحفشّعراً) تريد: لم يحفظ شعراً.

---

[1] - راجع البحر المحيط 263/2.

[2] - تحبير التيسير/45، الإتقان 124/1.

[3] - المفصل للزمخشري/400.

ذ ش = ش ش فتغني الشين عن مقاربها وهو (الذال) فتقول (انقشّريفاً) تريد: انقذ شريفاً.

ث ش = ش ش فتغني الشين عن مقاربها وهو (الثاء) فتقول (لم ير شيئاً) تريد: لم يرث شيئاً.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (حيث شئتما) 2/35، (حيث شئتم) 2/58 وما أشبهه وقوله تعالى (ذي ثلاث شعب) 77/30.

ت ش = ش ش فتغني الشين عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (أصابشّربا) تريد: أصابت شربا.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (إن زلزلة الساعة شيء عظيم) 22/1، (بأربعة شهداء) 24/4 وشبهه.

* وقرأ به كذلك في قوله تعالى: (جئت شيئا فرياً) 19/27 مع اشتراط القراء ألا تكون التاء ضميراً – واعتلوا لذلك بقوة الكسرة [1].

د ش = ش ش فتغني الششين عن مقاربها وهو (الدال) فتقول (لم ير شيئاً) تريد: لم يرد شيئاً.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (وشهد شاهد) 12/26 وشبهه.

* وقرأ به أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف قوله تعالى: (قد شغفا حبًّا) 12/30.

س ش = ش ش فتغني الشين عن مقاربها وهو (السين) ولم يذكر النحاة الإدغام في هذا النسق، وإنما انفرد القراء به، فقد قرأ أبو عمرو ويعقوب في قوله تعالى: (واشتعل الرأس شيبا) بإدغام السين في الشين [2].

ثانياً: الشين وما يلحقها:

ش ج = ش ج فلا يغني عن الشين أي حرف من مقارباتها عند النحاة كالجيم وغيرها فلا إدغام في قولك: افرش جبلة. وعلل المبرد ذلك بقوله: إن الشين من حروف التفشي فلها استطالة من مخرجها حتى تتصل بمخرج الطاء، والإدغام لا يبخس الحروف ولا ينقصها حقها [3]، ولم يقع في القرآن شيء من ذلك.

---

[1] – تحبير التيسير /47، المهذب 9/2.

[2] – تحبير التيسير /45، المهذب 5/2.

[3] – المقتضب 211/4.

ش س = س س وخالف القراء النحاة فأدغموا الشين وهي من حروف التفشي –كما سبق – في السين؛ فقد قرأ أبو عمرو

((273))

ويعقوب قوله تعالى: (إلى ذي العرش سبيلا) 17/42، بإدغام الشين في السين. وقد روى ذلك منصوصاً ابن اليزيدي عن أبيه عن أبي عمرو [1].

(5) الضاد وما يقاربها: وهي على صورتين

أولاً: الضاد وما يسبقها

د ض = ض ض فتغني الضاد عن مقاربها وهو (الدال) فتقول (اسعضّيفك) تريد: اسعد ضّيفك.

* وقد قرأ به أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي، وخلف، وورش قوله تعالى: (ولقد ضربنا) 30/58، وقوله تعالى: (فقد ضل) 2/108 وشبهه من (دال قد) حيث وقع.

* وقرأ أبو عمرو، ويعقوب مع كل (دال) سكن ما قلبها وتحركت هي بالكسر أو الضم كقوله تعالى: (من بعد ضراء) 10/21، 41/50، وكقوله تعالى: (من بعد ضعف) 30/54.

فإن سكن ما قبل الدال وتحركت هي الفتح

((274))

لم يدغمها كقوله تعالى: (ولئن أذقناه نعماء بعد ضراء) 11/10.

ت ض = ض ض فتغني الضاد عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (ضجضّجة) تريد: ضجت ضجة.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (والعاديات ضبحا) 100/1 بإدغام التاء في الضاد لا غير.

ث ض = ض ض فتغني الضاد عن مقاربها وهو 0 الثاء) فتقول (لم يلبضّاحكا) تريد: لم يلبث ضاحكا.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (هل أتاك حديث ضيف إبراهيم) 51/24 لا غير[2].

---

[1] – راجع تحبير التيسير/45، والمهذب 286/1.

[2] – وقع في نسق الضاد لغة (خالط ضيفك، احفظ ضيفك، خذ ضيفك) وقد أغنت الضاد عما سبقها، ولم يقع في القرآن منه شيء.

ثانيا: الضاد وما يلحقها

ض ذ = ض ذ فلا يغني الضاد أي حرف من مقاربها عند النحاة كالذال وغيرها فلا إدغام في مثل قولك: ابغض ذلك. واعل المبرد بانحراف الضاد عنهم.

ض ش = ش ش وخالف القراء النحاة فقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (لبعض شأنهم) 24/62 نص على ذلك السوسي عن اليزيدي عن أبي عمرو

((275))

وقال الزمخشري: رواية أبي شعيب السوسي في ذلك ما برئت من عيب [1].

الطائفة الثالثة:

وهي التي يدغم في بعضها في بعض، أي يغني أحد الصوتين عن مقاربة، وسنقصر حديثنا في هذه الطائفة على نسق الحروف التي وقع فيها الإدغام لغة وقراءة مع استبعاد المكرر منها، وتلك حروفها:

(6) الدال وما يقاربها: وهو على صورتين

أولا: الدال وما يسبقها

ت د = دد فتغني الدال عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (انعدّلاما) تريد: انعت دلاما.

* وقرأ به القراء جميعاً في قوله تعالى: (فلما أثقلت دعوا الله ربهما) 7/189 وفي قوله تعالى: (قال قد أجيبت دعوتكما) 10/89 وشبهه حيث وقع.

ذ د = د د فتغني الدال عن مقاربها وهو (الذال) (خذّينك) تريد: خذ دّينك.

* وقرأ به أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان بخلف عنه في قوله تعالى: (إذ دخلو عليه) 15/52، (إذ دخلوا على داود)

((276))

38/22 (إذ دخلت جنتك) 18/39 وما أشبهه حيث وقع [2].

ثانيا: الدال وما يلحقها

---

[1] – راجع التحبير/45 والمفصل/399.

[2] – وقع في نسق الدال لغة (اضبط دخلك) وقد أغنت الدال عما سبقها.

د ت = ت ت فيغني عن الدال مقاربها وهو (التاء) فتقول (انقتّلك) تريد: انقد تلك.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (في المساجد تلك حدود الله) 2/187 (بشيء من الصيد تناله) 5/94، (تكاد تميز) 67/8، (ماكاد تزيغ قلوب)[1] 9/117، (بعد توكيدها) 16/91، تحرك ما قبل الدال أو سكن وبأي حركة تحركت هي [2].

* وقرأ الجميع بالإدغام في قوله تعالى: (لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار) 9/117 وشبهه بلا خلاف.

د ذ = ذ ذ فيغني عن الدال مقاربها وهو (الذال) فتقول (ابعذّلك) تريد: أبد ذلك.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (القلائدذلك) 5/97، وفي قوله تعالى: (من بعد ذلك) 2/74 وفي قوله (بئس الرفد

((277))

المرفود ذلك) 99، 11/100 وشبهه وذلك لتحرك ما قبلها مطلقاً، أو لسكونه وتحركها هي بالكسر أو الضم فحسب.

ومن ثم التزموا الإظهار في قوله تعالى: (ثم إن كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمسرفون) 5/32 وشبهه لفتحها بعد ساكن، وليس ما بعدها (تاء).

* وقرأ بالإدغام أبو عمرو، وابن عامر وحمزة والكسائي، وخلف في قوله تعالى: (ولقد ذرأنا) 7/179 وأظهره الباقون [3].

(7) الطاء وما يقاربها: وهو على صورتين

أولاً: الطاء وما يسبقها

ت ط = ط ط فتغني الطاء عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (انعطّالبا) تريد: انعت طالبا.

* وقرأ بالإدغام جميع القراء في قوله تعالى: (ودت طائفة) 3/69 (قالت طائفة) 3/72 وشبهه من كل طاء سبقتها تاء تأنيث.

---

[1] – (تزيغ) بالتاء قراءة أبي عمر وآخرين.

[2] – تحبير التيسير/46.

[3] – التحبير/63، والمهذب 260/1، وقد وقع في نسق الدال (انقدطالبا) وقد أغنت الطاء عنها ولم يقع في القرآن منه شيء.

* وقرأ به أبو عمرو وحمزة في قوله تعالى: (بيت طائفة منهم) 4/81 والباقون بالإظهار.

((278))

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (ولتأت طائفة) 4/102، وابن مجاهد يرى فيه الإظهار لأنه معتل، وغيره رأى الإدغام لقوة الكسر [1].

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب كذلك في قوله تعالى: (الصلاة طرفي النهار) 11/114، وفي قوله تعالى: (الصالحات طوبى) 13/29، وفي قوله تعالى: (الملائكة طيبين) 16/32. وما أشبهه.

* وقرأ الجميع بالإظهار في قوله تعالى: (لئن خلقت طينا) 17/61، وما أشبهه من كل تاء ضمير [2].

ثانيا: الطاء وما يلحقها

ط ت = ت ت فيغني عن الطاء مقاربها وهو (التاء) فتقول (انقتّاء الكلمة) تريد: انقط تاء الكلمة.

وكرهه القراء لذهاب الإطباق وصيرورة الحرف القوي إلى حرف ضعيف. ولذلك قال الزمخشري: والأقيس في الحروف المطبقة إذا أدغمت تبقية الإطباق ومثل لذلك بقراءة أبي عمرو قوله تعالى:

((279))

(على ما فرطت في جنب الله) 39/56، بالإدغام مع الإطباق. وقول الشاعر علقمة:

وفي كل حي قد خبطّ بنمة ... فحق لشاس من نداك ذنوب

والأصل (خبطت) قلبت تاء الخطاب (طاء) تشبيها لها بتاء (افتعل) في قولك من (الطعن): اطتعنوا، ثم: اطعنوا.

وإذا كان أمر التاء في هذا النسق إلى (الطاء) فالحق أن التاء لا تغني عن الطاء [3].

(8) التاء وما يقاربها: وهو على صورتين

---

[1] - التحبير/47.

[2] - وقع في نسق الطاء لغة (احفظ طالبا) وقد أعنت الطاء عما سبقها، ولم يقع في القرآن منه شيء.

[3] - المفصل/ 401-403. وقع في نسق الطاء لغة (اهبط ظّاهرا) وقد أغنت الظاء عنها.

أولاً: التاء وما يسبقها

ث ت = ت ت فتغني التاء عن مقاربها وهو (الثاء) فتقول (ابعتّلك) تريد أبعث تلك.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (وامضوا حيث تؤمرون) 15/65، وقوله تعالى: (أفمن هذا الحديث تعجبون) 53/59.

* وقرأ أبو عمرو وابن عامر، وحمزة، والكسائي وأبو جعفر بالإدغام في قوله تعالى: (كم لبثت، قال لبثت، بل لبثت) 2/259 وما أشبهه.

* وقرأ أبو عمرو وحمزة، والكسائي وهشام بالإدغام

((280))

في قوله تعالى: (أورثتموها) 7/43، 43/72.

ثانياً: التاء وما يلحقها

ت ث = ث ث فيغني عن التاء مقاربها وهو (الثاء) فتقول (انثّابتا) تريد: انعثْ ثابتا.

* وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وهشام وابن ذكوان بخلف عنه بالإدغام في قوله تعالى: (بعدت ثمود) 11/95، (كذبت ثمود) 26/141 وما أشبهه حيث وقع، وأظهره الباقون.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (بالبينات ثم اتخذتم) 2/92، (والنبوة ثم يقول للناس) 3/79، وما أشبهه.

(**9**) **الثاء وما يقاربها:** وهو على صورتين

أولاً: الثاء وما يسبقها

د ث = ث ث فتغني الثاء عن مقاربها وهو (الدال) وهو نسق انفرد القراء به.

* قرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وابن عامر، وخلف بالإدغام في قوله تعالى: (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها، ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها) 3/145.

((281))

* وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (من كان يريد ثواب الدنيا) 4/134 وشبهه على قاعدتهما في الدال إذا سكن ما قبلها وتحركت هي بالكسر أو الضم [1].

---

[1] – وقع

ثانيا: الثاء وما يلحقها

ث ذ = ذ ذ ف فيغني عن الثاء مقاربها وهو (الذال) فتقول (ابعذّلك) تريد: ابعث ذلك.

* قرأ نافع، وابن كثير، وعاصم، وهشام وأبو جعفر بالإدغام والإظهار في قوله تعالى: (يلهث ذلك مثل) 7/176 وقرأ أبو عمرو والباقون بالإدغام لا غير.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (والأنعام والحرث ذلك متاع) 3/14 لا غير [1].

(**10**) **الذال وما يقاربها:** وهو على صورتين

أولاً: الذال وما يسبقها

ت ذ = ذ ذ فتغني الذال عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (انعذّلك) تريد: انعتْ ذلك.

((282))

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (عذاب الآخرة ذلك يوم) 11/103، وفي قوله تعالى: (والذاريات ذروا)51/1 وقد أدغمها حمزة مع المد المشبع، وفي قوله تعالى: (فالتاليات ذكرا) 73/3 وما أشبهه.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالإدغام كذلك في قوله تعالى: (وآت ذا القربى حقه) 17/26، وفي قوله تعالى: (فآت ذا القربى) 30/38 ويرى ابن مجاهد الإظهار فيه لأنه معتل [2].

ثانياً: الذال وما يلحقها

ذ ت = ت ت فيغني عن الذال مقاربها وهو (التاء) فتقول (ختّلك) تريد: خذْ تلك.

* وقرأ به أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف في قوله تعالى: (فنبذتها) 20/96 (إني عذت) 40/27 ووافقهم أبو جعفر في (عذت) وأظهر ذلك الباقون.

* وأظهر ابن كثير وحفص ورويس (اتخذتم) 2/51 (اتخذتم) 25/27 وما كان مثله من لفظه، وأدغم ذلك الباقون.

---

[1] – وقع في نسق الثاء لغة (امكث ظافرا) وقد أغنت الظاء عنها.

[2] – راجع تحبير التيسير.

* وقرأ أبو عمرو وهشام وحمزة والكسائي، وخلف

((283))

بالإدغام في قوله تعالى: (إذ تسوروا المحراب) 38/21 وفي قوله تعالى: (إذ تبرأ) 2/166، وما أشبهه من (ذال إذْ) [1].

(**11**) **الظاء وما يقاربها**: وهو على صورتين

أولاً: الظاء وما يسبقها

ذ ظ = ظ ظ فتغني الظاء عن مقاربها وهو (الذال) فتقول (خظّالما) تريد: خذ ظّالماً.

* وقرأ جميع القراء في قوله تعالى: (إذ ظلموا) 4/64 وما أشبهه بإدغام (ذال إذ) في الظاء قولاً واحداً.

ت ظ = ظ ظ فتغني الظاء عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (انعظالماً) تريد: انعتْ ظالماً

* وقرأ أبو عمرو، وابن عامر، وحمزة، والكسائي وخلف، والأزرق قوله تعالى: (كانت ظالمة) 21/11 (حملت ظهورهما) 6/146 (حرمت ظهورها) 6/138 وما أشبهه بإدغام تاء التأنيث في الظاء.

* وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم) 4/97 ومثله.

((284))

د ظ = ظ ظ فتغني الظاء عن مقاربها وهو (الدال) فتقول (انقظّالما) تريد: انقد ظالماً.

* وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف وورش، وابن ذكوان وهشام بخلف عنه بالإدغام في قوله تعالى: (لقد ظلمك) 38/24 وشبهه من كل (دال قد) في الظاء.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (وما الله يريد ظلماً للعالمين) 3/108، وما أشبهه من كل دال مكسورة أو مضمومة ساكن ما قبلها.

ثانيا: الظاء وما يلحقها

ظ ذ = ذ ذ فيغني عن الظاء مقاربها وهو (الذال) فتقول (احفذّلك) تريد: احفظ ذلك

---

[1] – التحبير/65، المهذب 183/2.

وهو واقع في اللغة، ولم يقع في القرآن شيء منه.

(**12**) **السين وما يقاربها**: وهو على صورتين

أولاً: السين وما يسبقها

ث س = س س فتغني السين عن مقاربها وهو (الثاء) فتقول (ابعسّلمة) تريد: ابعث سّلمة

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (يخرجون من الأجداث سراعاً) 70/43، وقوله تعالى: (من حيث سكنتم) 65/6،

((285))

وقوله تعالى: (وورث سليمان داود) 27/16، وقوله تعالى: (بهذا الحديث سنستدرجهم) 68/44، وما أشبهه.

ذ س = س س فتغني السين عن مقاربها وهو (الذال) فتقول (خساعتك) تريد: خذ سّاعتك.

* وقرأ أبو عمرو وهشام والكسائي وخلاد في قوله تعالى: (ولولا إذْ سمعتموه) 24/16، بإدغام الذال من (إذ) في السين بعدها وما أشبهه.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (فاتخذ سبيله في البحر) 61، 18/63.

ت س = س س فتغني السين عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (انعسّلمى) تريد: انعتّ سلمى.

* وقرأ أبو عمرو وحمزة، والكسائي وخلف وهشام بخلف عنه قوله تعالى: (فكانت سرابا) 78/20 بإدغام تاء التأنيث في السين، وما أشبهه.

* وقرأ أبو عمرو، ويعقوب قوله تعالى: (السحرة ساجدين) 7/120، وقوله تعالى: (لمن كذب بال ساعة سعيرا) 25/11، وقوله تعالى: (الصالحات سندخلهم) 4/57 بإدغام التاء في السين، وما أشبهه.

((286))

د س = س س فتغني السين عن مقاربها وهو (الدال) فتقول (ابعسّيفك) تريد: ابعد سّيفك

* وقرأ أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وخلف وهشام قوله تعالى: (فقد سرق أخ له) بإدغام (دال قد) في السين وكذلك ما أشبهه .

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (عدد سنين) 23/112 لتحرك ما قبل الدال، وفي قوله تعالى: (في الأصفادِ سرابيلهم) 14/50، لكسرها وسكون ما قبلها، وفي قوله تعالى: (يكاد سنابرقه) 24/43 (إنما صنعوا كيد ساحر) 20/69؛ لضمها وسكون ما قبلها.

وقرأ بالإظهار في قوله تعالى: (عندَ سدرة المنتهى) 53/14 وكذا (لداود سليمان) 38/30؛ لتحركها بالفتح وسكون ما قبلها [1].

ثانياً: السين وما يلحقها

س ز = ز ز فيغني عن السين مقاربها وهو (الزاي) فتقول (احبزّهيرا) تريد: احبس زهيرا

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (و إذا النفوس زوجت) 81/7 لا غير [2].

(**13**) **الزاي وما يقاربها:** وهو على صورتين

أولاً: الزاي وما يسبقها

ذ ز = ز ز فتغني الزاي عن مقاربها وهو (الذال) فتقول (خزّوجك) تريد: خذ زّوجك

* وقرأ أبو عمرو، والكسائي، وهشام وخلاد قوله تعالى: (وإذ زين) 8/48، وقوله تعالى: (وإذ زاغت الأبصار) 33/10، بإدغام ذال (إذ) في الزاي وما أشبهه.

د ز = ز ز فتغني الزاي عن مقاربها وهو (الدال) وقد انفرد القراء بهذا النسق.

* قرأ به أبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وهشام وخلف وابن ذكوان بخلف عنه في قوله تعالى: (ولقد زينا السماء الدنيا) 67/5 وشبهه من كل (دال قد) في الزاي حيث وقع.

* وقرأ به أبو عمرو ويعقوب في قوله تعالى: (يكاد زيتها) 24/25، وقوله تعالى: (تريد زينة الحياة) 18/28 على قاعدتهما في الدال وما بعدها.

ت ز = ز ز فتغني الزاي عن مقاربها وهو (التاء) وقد انفرد القراء بهذا النسق.

* فقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام في

---

[1] – وقع في نسق السين لغة (افحص سالما، أوجز سؤالك، احفظ سّلمة، اهبط سّالما) وقد أغنت السين عما سبقها.

[2] – وقع في نسق السين لغة (احبس صابرا) وقد أغنت الصاد عنها.

قوله تعالى: (كلما خبتْ زدناهم سعيرا) 17/97 بإدغام تاء التأنيث في الزاي وما أشبهه في قوله تعالى: (بالآخرة زينا) 27/4، وفي قوله تعالى: (فالزاجرات زجرا) 37/2 وفي قوله تعالى: (إلى الجنة زمرا) 39/73 بإدغام التاء في الزاي[1].

ثانيا: الزاي وما يلحقها

ز ص = ص ص فيغني عن الزاي مقاربها وهو (الصاد) فتقول (أو جصّادقا) تريد: أوجز صادقاً وهو واقع في اللغة، ولم يقع في القرآن شيء من ذلك.

(**14**) **الصاد وما يقاربها**: وهو على صورتين

أولاً: الصاد وما يسبقها

ت ص = ص ص فتغني الصاد عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (انعصّابرا)تريد انعت صابرا

* قرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وابن ذكوان وهشام قوله تعالى: (لهدمت صّوامع) ((289))

22/40، وقوله تعالى: (حصرت صدورهم) 4/90، بإدغام تاء التأنيث فيما بعدها وهو الصاد حيث وقع.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (والصافات صفا) 37/1، (فالمغيرات صبحا) 100/3، (والملائكة صفا) 78/38 بإدغام التاء في الصاد، وكذلك حمزة وخلاد مع المد المشبع في الأوليين وشبهه.

ن ص = ص ص فتغني الصاد عن مقاربها وهو (الذال) فتقول (خصّابرا) تريد: خذ صّابرا

* وقرأ أبو عمرو والكسائي وهشام، وخلاد قوله تعالى: (وإذْ صرفنا) 46/29، بإدغام الذال من (إذْ) في الصاد بعدها وما أشبهه حيث وقع.

وقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالإدغام قوله تعالى: (ما اتخذ صاحبة) 72/3.

د ص = ص ص فتغني الصاد عن مقاربها وهو (الدال) فتقول (اقعصّامتا) تريد: اقعد صّامتا

* وقرأ أبو عمرو، وحمزة والكسائي وخلف وهشام قوله تعالى: (ولقد صرفنا) 17/41، (ولقد صحبهم) 54/38 بإدغام الدال من (قد) في الصاد حيث وقع.

---

[1] – وقع في نسق الزاي لغة (افحص زهرة، اهبط زّاحفا، اخفظ زهيرا) وقد أغنت الزاي عما سبقها.

* وقرأ أبو عمرو، ويعقوب في قوله تعالى: (نفقد

((290))

صواع) 12/72 وفي قوله تعالى: (في مقعد صدق) 54/55، بإدغام الدال في الصاد على قاعدتها في الدال المتحرك ما قبلها.

وفي قوله تعالى: (في المهد صبيا) 19/29، (ومن بعد صلاة العشاء) 24/58، بإدغام الدال في الصاد على قاعدتهما في الدال الساكن ما قبلها وتحركها بغير الفتح.

ثانيا: الصاد وما يلحقها

ص س = س س لا يغني عن الصاد شيء مما يلحقها سوى (السين والزاي)

ص ز = ز ز وقد سبق ذكر نسق كل منهما معها

(15) الجيم وما يقاربها: وهو على صورتين

أولاً: الجيم وما يسبقها

د ج = ج ج فتغني الجيم عن مقاربها وهو (الدال) فتقول (اسعجارك) تريد: أسعد جارك

* وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام قوله تعالى: (قد جاءتكم بينة) 7/73، بإدغام الدال من (قد) في الجحيم حيث وقع.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (وقتل داودُ

((291))

جالوت) 2/251، وقوله تعالى: (دار الخلدِ جزاء) 41/28؛ بإدغام الدال في الجحيم على قاعدتهما في الدال المتحرك ما قبلها والساكن ما قبلها وتحركها هي بغير الفتح.

ذ ج = ج ج فتغني الجيم عن مقاربها وهو (الذال) فتقول (انقجّارك) تريد: انقذ جّارك

* قرأ ابو عمرو وهشام قوله تعالى: (وإذ جعلنا) 2/125 (إذ جاءوكم) 33/10، بإدغام الذال من (إذْ) في الجحيم حيث وقع.

ت ج = ج ج فتغني عن مقاربها وهو (التاء) فتقول (انعجّارك) تريد: انعثْ جّارك

* وقرأ أبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف وهشام قوله تعالى: (نضجت جلودهم) 4/56، وقوله تعالى: (وجبت جنوبها) 22/36، بإدغام تاء التأنيث في الجحيم حيث وقع.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب قوله تعالى: (الصالحات جناح) 5/93 (مائة جلدة) 24/2، (وتصلية جحيم) 56/94 وشبهه [1].

((292))

ثانياً: الجيم وما يلحقها

ج ت = ت ت فيغني عن الجيم مقاربها وهو (التاء) وقد انفرد القراء بهذا النسق.

* فقرأ أبو عمرو، ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (ذي المعارج تعرج) 3، 70/4 لا غير [2].

(**16**) **اللام وما يقاربها:** وهو على صورتين

أولاً: اللام وما يسبقها

ن ل = ل ل فتغني اللام عن مقاربها وهو (النون) فتقول (حسلّونك) تريد: حسن لّونك

* وقرأ الجميع بإدغام النون في اللام حيث وقع كقوله تعالى: (من لدنه) 4/40.

* ويجيز النحاة إظهار الغنة مع اللام خاصة. على حين يجمع القراء عل الإدغام بدون غنة، ويعدون الغنة لحناً لبعده من الجواز [3].

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بالإدغام في قوله تعالى: (زين للناس) 3/14، وفي قوله تعالى: (لن نؤمن لكم) 9/94 وشبهه من كل نون

((293))

تحرك ما قبلها فإن سكن ما قبله، لم يدغما بأي حركة تحركت هي نحو قوله تعالى: (مسلمْين لك) 2/128، وشبهه إلا في قوله تعالى: (ونحن له) 2/138، (وما نحن لكما) 10/78، (فما نحن لك) 7/132، حيث وقع فإنهما أدغما للزوم ضمة نونه [4].

ثانياً: اللام وما يلحقها

ل ض = ض ض فيغني عن اللام مقاربها وهو (الضاد) مع تراخي مخرجها، وإنما تتفشى الضاد حتى تتصل بمخرج اللام، وهو مع لام التعرف لازم كقولك (الضّاحك).

---

[1] – وقع في نسق الجيم لغة (اهبط جيدا، اختفظ جّارك، ابعث جّارك) وقد أغنت الجيم عما سبقها.

[2] – التحبير/ 45، (يغني عن الجحيم مقاربها وهو الشين وقد سبق نسقه قراءة).

[3] – راجع الكتاب 414/2 والكشف 162/1.

[4] – التحبير /48، 49، وقد سبق نسق (دل) وخلاف النحاة والقراء حول غناء اللام عن الراء.

ويجوز في غير لام المعرفة مثل (لام) هل، وبل [1] وهو مع جوازه أبعد مع الضاد والشين، فتقول (هضّربك) تريد: هل ضربك [2]؟

* واستحسنه الكسائي فقرأ به في قوله تعالى: (بل ضّلوا عنهم وذلك إفكهم) 46/28 لا غير [3].

((294))

ل ن = ن ن فيغني عن اللام مقاربها وهو (النون) فتقول (هّنحن) تريد: هل نّحن، وهو مع جوازه قبيح عند النحاة.

* واستحسنه الكسائي فقرأ به قوله تعالى: (بل نحن محرومون) 68/27، وقوله تعالى: (هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً) 18/103، وقوله تعالى: (هل ندلكم) 34/7.

ل ث = ث ث فيغني عن اللام مقاربها وهو (الثاء) فتقول (هثّاب إلى رشده) تريد: هل ثاب إلى رشده؟

وهو مع جوازه ضعيف عند النحاة.

* وقوي عند حمزة والكسائي وهشام – بخلف عنه – فقرءوا بالإدغام في قوله تعالى: (هل ثّوب الكفار) 83/36.

ل ظ = ظ ظ فيغني عن اللام مقاربها وهو (الظاء) فنقول (هظّلمك) تريد: هل ظلمك؟

وهو مع جوازه ضعيف عند النحاة.

* وقوي عند الكسائي وهشام – بخلف عنه – فقرآ بالإدغام في قوله تعالى: (بل ظّننتم) 48/12.

ل ذ = ذ ذ فيغني عن اللام مقاربها وهو (الذال) فتقول (هذّهبتم) تريد: هل ذّهبتم؟

وهو مع جوازه ضعيف عند النحاة.

* وانفرد به من القراء أبو الحارث (الليث بن خالد

---

[1] – نص القراء على لام (هْل، وبلْ) لملازمتها للسكون فأشبهتا لام التعريف؛ وانفرد أبو الحارث بالإدغام في اللام الساكنة مطلقاً (الكشف 153/1).

[2] – المقتضب 214/4.

[3] – المهذب 237/2.

((295))

الغدادي) فقرأ بالإدغام في قوله تعالى: (ومن يفعلْ ذّلك) 3/28 وشبهه حيث وقع إذا سكنت اللام للجزم [1].

ل ت = ت ت فيغني عن اللام مقاربها وهو (التاء) فتقول (هّتعين) تريد: هل تّعين؟

* وقرأ به أبو عمرو وحمزة والكسائي وهشام – بخلف عنه – قوله تعالى: (هل ترى من فطور) 67/3.

* وقرأ به حمزه والكسائي وهشام – بخلف عنه – في قوله تعالى: (بل تحبون العاجلة) 75/20 وقوله تعالى: (بل تؤثرون الحياة الدنيا) 87/16.

* وقرأ الكسائي بإدغام اللام من هل وبل في التاء حيث وقع [2].

ل ط = ط ط فيغني عن اللام مقاربها وهو (الطاء) فتقول (هطّاب الهواء) تريد: هل طاب الهواء؟

* وقرأ الكسائي، وحمزة وهشام – بخلف عنهما – بالإدغام في قوله تعالى: (ب ل طبع الله عليها بكفرهم) 4/155.

ل ز = ز ز فيغني عن اللام مقاربها وهو (الزاي) فتقول (هزّرته) تريد هل زرته؟

* وقرأ الكسائي بالإدغام، وهشام بالإدغام والإظهار في قوله تعالى: (بل زين للذين كفروا مكرهم) 13/33.

((296))

ل س = س س فيغني عن اللام مقاربها وهو (السين) فتقول (هسألك) تريد: هل سألك؟

* وقرأ الكسائي وحمزة بالإدغام، وهشام بالإدغام والإظهار في قوله تعالى: (بل سولت لكم أنفسكم أمرا) 18، 12/83 وهما لا غير [3].

(**17**) **النون وما يقاربها**: وهو على صورتين

---

[1] – التحبير/65، المهذب 119/1.

[2] – التحبير/65.

[3] – وقع في نسق اللام لغة (هل دّرست؟ وهل صفحت؟) وقد أغنت كل من الدال، والصاد عن اللام، ولم يقع في القرآن منه شيء.

أولاً: النون وما يسبقها

أما النون وما يسبقها من جميع الحروف فلا تغني عن شيء منها سوى اللام في مثل (هّنرى) في هل نرى، ففيه الإدغام، والإظهار أحسن عند النحاة، وقد تقدم نسقها مع بعض الحروف، وليس فيه إلا الإظهار فقط.

ثانياً: النون وما يلحقها

ن ب = م ب فتغني الميم عن النون في هذا النسق قلباً فتقول (ممبعده) تريد: من بعده.

((297))

ولم يجعلوها باء لبعدها في المخرج، فأبدلوا مكانها أشبه الحروف بالنون والباء وهو الميم.

* وقرأ جميع القراء بالقلب في قوله تعالى: (من بعد ما جاءتهم البينات) 4/153، وشبهه حيث وقع[1].

(**18**) **القاف والكاف**: وهما على صورتين

ق ك = ك ك فتغني الكاف عن مقاربها وهو (القاف) فتقول (وثكّلامك) تريد: وثق كلامك.

* وقرأ جميع القراء بالإدغام في قوله تعالى: (ألم نخلقكم من ماء مهين) 77/20 مع بقاء صفة الاستعلاء للقاف، أو بدونها وهو مذهب الجمهور [2].

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بإدغام القاف في الكاف في كلمة إذا تحرك ما قبل القاف، واتصلت الكاف بضمير الجمع مذكراً أو مؤنثاً نحو قوله تعالى: (اعبدوا ربكم الذي خلقكم) 2/21، (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق) 96/6، (وكلوا مما رزقكم الله) 5/88، (نحن نرزقكم وإياهم)6/151، (وميثاقه

((298))

الذي واثقكم به) 2/63، وفي قوله تعالى: (عسى ربه إن طلقكن) 66/5 – خلافاً لابن مجاهد الذي أخذ فيه بالإظهار.

---

[1] – مضى حديث النون في هذا النسق مع [م، ل، ر، و، ي] وقد أغنت كلها عن النون.

[2] – المهذب 319/2.

وأظهرا ما عدا ذلك كقوله تعالى: (وإذ أخذنا ميثاقكم) 2/63 ما قيل القاف وشبهه – وكقوله تعالى: (أكفرت بالذي خلقك) 18/37، (نحن نرزقك) 132/ لعدم اتصال الكاف بضمير الجمع وشبهه.

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب كذلك بالإدغام في كلمتين إذا تحرك ما قبل القاف كقوله تعالى: (والله خلق كل دابة) 24/45، (وخلق كل شيء) 25/2 وأظهرا ما سكن قبلها كقوله تعالى: (وفوق كل ذي علم عليم) 12/76 وشبهه [1].

ك ق = ق ق فتغني القاف عن مقاربها وهو (الكاف) فتقول (امْسقّوسك) تريد: امسك قّوسك

* وقرأ أبو عمرو ويعقوب بإدغام الكاف في القاف إذا تحرك ما قبل الكاف كقوله تعالى؛ (وكان ربك قديرا) 25/54، (وكان بين ذلك قواما) 25/67، (إذ دخلت جنتك قلت) 18/39 وشبهه.

وأظهرا في قوله تعالى: (ولا يخزنْك قولهم) 10/65 لسكون ما قبل الكاف.

(**19**) **الغين والخاء**: وهما على صورتين

غ خ = خ خ فتغني الخاء عن مقاربها وهو (الغين) فتقول (ادمخّلفا) تريد: ادمغ: خّلفا

وهو عند سيبويه حسن، ولكن البيان أحسن، وقد وقع في اللغة ولم يقع في القرآن منه شيء.

خ غ = غ غ فتغني الغين عن مقاربها وهو (الخاء) فتقول (اسلغّنمك) تريد: اسلخ غنمك

والبيان أحسن؛ لأن الغين مجهورة، وهما من حروف الحلق التي يقل الإدغام فيها [2]، وقد وقع في اللغة ولم يقع في القرآن شيء منه.

(20) الحاء وبقية حروف الحلق

هـ ح = ح ح فتغني الحاء عن مقاربها وهو (الهاء) فتقول (اجبحّاتما) تريد: اجبه حاتما

---

[1] – تحبير التيسير/44، 45.

[2] – الكتاب 413/2، والمقتضب 208/4.

والإدغام عند سيبويه حسن، ولكن البيان أحسن لقلة الإدغام في حروف الحلق.

((300))

وقد أخذ القراء بأحسن الأمرين وهو الإظهار فقرءوا به في قوله تعالى: (إن الله حرمها) 7/50 (منه حراما) 10/59، (فوفاه حسابه) 24/39.

ع ح = ح ح فتغني الحاء عن مقاربها وهو (العين) فتقول (ارفحاتما) تريد: ارفع حّاتما

والإدغام والبيان يتساويان حسناً لأنهما من مخرج واحد

* وأظهر القراء ما جاء منه في القرآن كقوله تعالى: (وأعينهم تفيض من الدمع حزنا) 9/92.

ح ع = ح ح لم تغن العين عن (الحاء) بل غلبتها الحاء على موقعها فتقول (امدحّرفة) تريد: امدح عرفة.

ولكن البيان أحسن. وبه يأخذ القراء فأظهروا في نحو قوله تعالى: (فلا جناح عليهما)2/229، وقوله تعالى: (وما ذبح على النصب) 5/3 وشبهه.

* غير أن أبا عمرو ويعقوب أدغما الحاء في العين في قوله تعالى: (فمن زحزح عن النار) لا غير، وقد روى ذلك منصوصاً أبو عبد الرحمن بن اليزيدي عن أبيه عن أبي عمرو [1].

* وهذا الذي أخذ به أ بو عمرو وهو ما مالت إليه

((301))

اللهجات الحديثة من تفضيل العين المشددة كلما كانت العين ثانية المتقاربين كمثال: (امدعّرفة) في قولنا: امدح عرفه [2].

هـ ع = ح ح
ع هـ = ح ح
ح هـ = ح ح

وتغني الحاء عن كل من (الهاء والعين) أيا كان موقع إحداهما من الأخرى فتقول (اجبحّرفة) تريد اجبه عرفه، وتقول (اقطحّلالا) تريد: اقطع هلالا، وتقول (أصلحّيثما) تريد: اصصلح هيثما [3] والبيان في كل ذلك أحسن.

* ومن غير السبعة قرأ يحيى بن وثاب في قوله تعالى: (ألم أعهد إليكم) 36/60، أ لم أحّد إليكم، بحاء مضعفة وهي لغة بني تميم [1].

---

[1] - تحبير التيسير/45، والمهذب 147/1.

[2] - اللغة العربية د. تمام/285.

[3] - المقتضب 207/4.

بهذه الدراسة التفصيلية لظاهرة الإدغام وقفنا على تقعيد النحاة لها، وأداء القراء لها كذلك، وكثيراً ما اتفق أداء القراء وتقعيد النحاة، إلا شيئاً خالف القراء فيه النحاة، وكان القراء فيه أكثر تمثيلاً للهجات العرب منهم إلى اصطناع قواعد النحاة، تلك التي ضاقت بظواهر شتى من لهجات العرب فوصفوها بالضعف، أو القبح أو الشذوذ؛ كظاهرة إسناد المضعف إلى ضمائر الرفع المتحركة حين سلك فيها أناس بكر من وائل مسلك الإدغام فقالوا (ردّت، ردَّنا، ردّنَ) يحركون الثاني بالفتح، وكأنهم قدروا الإدغام قبل دخول تلك الضمائر. على حين سلك فيها الحجازيون

((302))

والتميميون مسلك الفك فقالوا (رددت، ردنا، ردن) [2].

كما سلكت فيها قبائل أخرى مسلكاً آخر بزيادة ألف بعد المدغم قبل الضمير فيقولون (ردّاتُ، ردّانَ). ويرى فيها أحد الباحثين أنها أصل لهجتنا العامية حين نقول (رديت، ومديت) بإمالة الفتحة في ردّات ومدّات إلى الكسرة، والألف نحو الياء [3].

وعلى الرغم من تلك الأوصاف القادحة للهجة بكر، فقد قرأ بها ابن أبي عبلة، والوليد بن مسلم، والقورصي، عن أبي جعفر، والسمار عن شيبة قوله تعالى: (أفعيّنا بالخلق الأول) 50/15 بتشديد الياء من غير إشباع في الثانية.

وقد وجهها أبو حيان فقال: أدغمت الياء في الياء في الماضي (عيّ في عيي) ثم ألحق بالمضعف ضمير المتكلم من غير فك [4].

وكظاهرة الأمر من المضعف فإذا قال التميميون: ردّ يا فتى وغضّ الطرف، قالت قبيلة عبد القيس: اردّ يا فتى، اغض الطرف، بالتزام همزة الوصل في أوله قياساً على الثلاثي الصحيح مثل: اكتب، اضرب، حتى قاتل ابن خالويه: ليس في كلام العرب ألف وصل دخلت على متحرك في لغة عبد القيس في قولهم: اسلْ زيدا، وحكى هذه اللغة الكسائي والفراء.

ولما كان الإدغام ظاهرة تهدف إلى تيسير النطق واقتصاد الجهد فهي

((303))

---

[1] – شواذ القراءات لابن خالويه /125.

[2] – راجع التصريح 403/2، الأشموني 351/4، الشافية 245/3.

[3] – اللهجات العربية في التراث د. أحمد الجندي 313/1.

[4] – البحر 123/8.

أليق بأهل البادية الذين يميلون إلى تماثل الأصوات قصداً للخفة واقتصاداً في الأداء، لذلك جاء عزوها في كتب اللغة إلى كثير من قبائلهم كتميم، وقيس، وأسد، وعقيل، وعامر بن صعصعة، وبكر بن وائل، وعبد القيس، وربيعة، وكعب، وغني، وبني عجل، وبلعنبر.

واصطنعها بعض قبائل الحضر تأثراً بأهل البادية وتأسيًّابهم في خفة الأداء؛ فقد جاء عن النبي ﷺ قوله: ((أيما رجل من المسلمين سببته أو لعنته، أو جلدّه فاجعلها له زكاة رحمة)) بإدغام التاء في الدال.

وقرأ ابن عباس من أهل الحجاز كذلك بالإدغام في قوله تعالى: (هل ترى من فطور)، كما أدغم نافع إمام أهل المدينة في قوله تعالى: (اتخذتم وأخذتم) حيث وقع.

وزواج القرآن بين الفك والإدغام في بعض آياته فإذا قال في موضع: (ومن يشاق الله)59/4، قال في موضع آخر: (ومن يشاقق الرسول) 4/115، ذلك لتجد القبائل المختلفة خصائص لهجاتها على صفحته تأكيداً للوحدة لغته واتساع شمولها.

وإذا كانت ظاهرة الإدغام بهذه السعة نشأة فقد وصدى فقد حق لأبي عمرو بن العلاء أن يقول: (إن الإدغام كلام العرب الذي يجري على ألسنتها، ولا يحسنون غيره). وقد عبر القرون حتى وجدنا سماته في كثير من لهجاتنا الحديثة [1].

[1] – انظر: اللهجات العربية في التراث 1/300-314 د. أحمد علم الدين الجندي.

المراجع الأساسية

مرتبة حسب ورودها بالبحث

1	الدفاع عن القرآن ضد النحويين	د. أحمد مكي الأنصاري
2	الإيضاح العضدي لأبي علي الفارسي	تحقيق د. حسن شاذلي فرهود
3	المقتضب لأبي العباس المبرد	تحقيق الشيخ عبد الخالق عضيمة
4	حاشية الخضري على ابن عقيل	الشيخ/ مُحَمَّد الخضري
5	شذا العرف في فن الصرف	الشيخ/ أحمد الحملاي
6	الكتاب	لسيبويه
7	سر صناعة الإعراب لابن جني	تحقيق مصطفى السقا وآخرين
8	المهذب في القراءات العشر	د. مُحَمَّد سالم محيسن
9	الإتقان في علوم القرآن	جلال الدين السيوطي
10	تحبير التيسير في قراءات الأئمة العشر	للإمام مُحَمَّد بن يوسف الجرزي
11	اللغة العربية مبناها ومعناها	د. تمام حسان
12	المفصل في علم العربية	محمود بن عمر الزمخشري
13	الكشف عن وجوه القراءات السبع	لمكي: تحقيق د. محي الدين رمضان
14	تفسير البحر المحيط	لأبي حيان
15	مختصر في شواذ القراءات	لابن خالويه تحقيق ج برجشتراسر
16	اللهجات العربية في التراث	د. أحمد علم الدين الجندي

الدوحة في 1985/3/10

من قضايا القرآن واللغة

التغيرات الصوتية في الوقف في اللغة والقرآن

بقلم الدكتور
إسماعيل أحمد الطحان
رئيس قسم التفسير والحديث
كلية الشريعة – جامعة قطر

((309))

إن الحديث حول موضوع (الوقف) حديث قديم أفاض فيه علماء اللغة، وعلماء القراءات، وأولى كل فريق منهم فضل اهتمامه للجانب الذي يهمه، وقد التقى الفريقين في الحديث عن أوجهه، وكيفية أدائه، وقد تناولوها بمنهجهم الذي يعتمد على رموز اللغة لأعلى أصواتها؛ فجاء تفسيرهم لكثير من قضاياه مبنيًّا على فروض يأبها واقع اللغة ولا يقرها علم الأصوات. وليس الأمر مقصوراً على دراسة الوقف فحسب، بل ترك هذا المنهج بصماته على كثير من قضايا التصريف؛ مما حدا بكثير من اللغويين الصوتيين أن ينادوا بإعادة النظر في قضايا الصرف العربي. وهناك محاولات رائدة في هذا الميدان زاحمت كتب الأقدمين ونافست أفكارهم ومناهجهم، وأبتت – بما لا يدع مجالاً للشك – صواب المنهج الصوتي في حل كثير من مشكلات الصرف.

غير أن موضوع (الوقف) لم ينل منهم العناية الكافية في دراسة مستقلة متكاملة تستوعب كل وجوهه، وطرق أدائه؛ الأمر الذي حملني على أن أفرد له هذه الدراسة أتناول فيها (التغيرات الصوتية) في طرق أدائه، محاولاً تفسير هذه التغيرات بمنهج الدراسات اللغوية الحديثة.

ومن ثم فقد يفرض علينا هذا المنهج أن نستخدم بعض مصطلحات الصوتيين؛ لتكون أداة طيعة في تقرير حقائق هذا المنهج، وأن نتأمل في

((310))

رصد هذه التغيرات مع اللغة المنطوقة، لا المكتوبة، أو بعبارة أخرى مع الأصوات لا مع الرموز؛ ذلك لأن المنهج الصوتي تتحدد فيه لكل رمز قيمته الصوتية، ومهمته الوظيفية.

وعلى هذا الأساس الصوتي تكون الصوائت (الحركات) نوعين: حركات قصيرة وهي الفتحة، والكسرة، والضمة، وحركات طويلة وهي الألف، والياء، والواو.

* ويكون التنوين من الصوامت (الحروف) نوناً ساكنة.

* وتكون (الواو والياء) غير المدتين من الصوامت المعتلة.

* ولا يتم تبادل بين رمزين (حرفين) إلا لعلاقة صوتية تسمح بذلك.

* ولا يتم إدغام لصوتين متماثلين.

وقد يكون من مقتضيات البحث أن نلم ابتداء بتعريف الوقف وأنواعه، ومذاهب القراء فيه، قبل أن نعالج أدائه وما يصحبها من تغيرات، حتى تتكامل للموضوع وحدته، ويرتبط آخره بأوله.

تعريف الوقف:

إذا كانت مادة (وقف) تشير بمدلولها اللغوي إلى الكف عن الفعل والقول؛ فإنها تعني في اصطلاح القراء: قطع الصوت آخر الكلمة زمنا مّا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة.

((311))

وكان يشركه في هذا المدلول عند الأقدمين اصطلاحان آخران هما: السكت، والقطع، أما المتأخرون فقد فرقوا بينهما؛ فجعلوا السكت دون الوقف زمناً، ولا تنفس معه، وجعلوا القطع للانتهاء من القراءة، والانتقال منها إلى حالة أخرى[1].

مذاهب القراء فيه:

واختلف القراء في الأخذ به ما بين مضطر إليه، ومعتمدٍ له، فكان حمزة الزيات (ت 156هـ) يقف مضطرًّا عند انقطاع نفسه، ولا يعتمد وقفاً معيناً.

وكان ابن كثير (ت 120هـ) يتعمده في أواسط الآي عند ثلاث: عند قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله) 3/7، وعند قوله تعالى: (وما يشعركم) 6/109، وعند قوله تعالى: (إنما يعلمه بشر) 16/103، وفي سوى ذلك قيل كان يراعي الوقف على رءوس الآيات، وقيل كان يقف مع نفسه حيث ينقطع.

وكان منهم من يستحب الوقف في أواسط الآي بمراعاة المعنى وقفاً وابتداء كالإمام نافع (ت169هـ)، وابن عامر (ت 118هـ) أو حيث يتم الكلام كعاصم (ت 127هـ) والكسائي (ت 189هـ).

أما أبو عمرو بن العلاء (ت 154 هـ) فكان يستحب الوقف فقط على رءوس الآيات مطلقاً.

((312))

واستحسن بعض المتأخرين مذهب أبي عمرو في الوقف على رءوس الآيات؛ لأنه أكثر إتباعا لهدي النبي ﷺ وسنته؛ لما رواه أبو داود وغيره عن أم سلمة رضي الله عنها – من أن النبي ﷺ – كان إذا قرأ قطع قراءته آية، وآية يقول: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) ثم يقف، (الحمد لله رب العالمين) ثم يقف، (الرحمن الرحيم

---

[1] – انظر: النشر في القراءات العشر: لابن الجزري 238/1.

) ثم يقف. وقالوا: هذا أصل معتمد في الوقف على رءوس الآيات، ولا يمنع منه تعلق ما قبل الوقف بما بعده في المعنى.

ورأى آخرون أن هذا الاستحسان ليس على إطلاقه؛ فإن ارتباط المعنى قد يكون أشد اقتضاء لوصل الكلام دون الوقف على رءوس الآيات كما في قوله تعالى: (فويل للمصلين[1]. الذين هم عن صلاتهم ساهون) 4، 107/5.

ومن ثم اشترط ابن الجرزي (ت 833هـ) لهذا الوقف ارتضاء الابتداء بما بعده، وعدم الإخلال بفهم المعنى [(1)].

وقد يبدو مذهب حمزة أكثر المذاهب تساهلاً في مراعاة المعنى؛ ولا أحسبه كذلك، وهو إمام أهل الكوفة في عصره وقد اشتهر عنه أنه لم يقرأ حرفاً إلا بأثر. ولا أظنه يرتضي الإخلال بالنص القرآني. وإنما محمل الرواية عنه أن قراءته كانت على التحقيق، والمد الطويل؛ مما سبب ضيق نفسه وحال بينه وبين بلوغ الوقف المعتبر في الاختيار، فغلب عليه الاضطرار، واشتهرت الرواية عنه بذلك.

والوقف عند الاضطرار لا بأس به أياً كان موضعه من القبح، ولكن على الواقف –كما قال الكواشي – أن يبتدئ من أول الكلام حتى ينتهي إلى ووقف مرضي [(2)].

أنواع الوقف:

جرى تقسيم القراء لأنواع الوقف بحسب التعلق بين جزأي القول، وتفاوتت نظرتهم في ذلك دقة واستقصاء، فبلغ بعضهم ثمانية أنواع هي:

تام، وشبيه به، ناقص، وشبيه به، حسن، وشبيه به، قبيح، وشبيه به.

ومال ابن الأنباري إلى اختصار هذه الأنواع في ثلاثة هي: التام، والحسن، والقبيح.

أما ابن الجرزي فنوعه أربعة أنواع هي:

التام، والكافي، والحسن، والقبيح.

* فالتام: ما ليس بين جزأي القول تعلق لفظي، ولا معنوي وأكثر ما يكون في رءوس الآيات، وانقضاء القصص، نحو الوقف على (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) والابتداء (الحمد لله رب العالمين).

---

[1] – النشر 1/224-238.

[2] – راجع: منار الهدى في الوقف والابتداء للأشموني/6.

* والكافي: ما بين جزأيه تعلق معنوي، وهو كالتام في جواز الوقف

((314))

عليه، والابتداء بما بعده، كالوقف على قوله تعالى: (ومما رزقناهم ينفقون) 2/3 والابتداء (والذين يؤمنون بما أنزل إليك..) 2/4، فما بعده مستغن عما قبله لفظاً وإن اتصل معنى.

* والحسن: ما بين جزأيه تعلق لفظي، وهو حسن في نفسه مفيد، يجوز الوقف دون الابتداء بما بعده للتعلق اللفظي، كالوقف على قوله تعالى: (الحمد لله) 2/2 فهو وإن حسن وقفاً، فلا يحسن الابتداء بما بعده (رب العالمين) 2/2 لتعلقه لفظاً.

* والقبيح: ما بين جزأيه تعلق يحول دون تمام المعنى أو يؤدي إلى فساده، كالوقف، على نحو قوله تعالى: (صراط الذين) والابتداء (أنعمت عليهم) 2/7 أو كالوقف على نحو قوله تعالى: (ولا تقربوا الصلاة) 4/43، والابتداء (وأنتم سكارى) 4/43 [1].

وقف المراقبة:

وقد يعرض في الكلام مقطعان يتضادان وقفاً بمعنى إن وقف على أحدهما امتنع على الآخر رعاية للمعنى، وهو ما يعرف في اصطلاح القراء (بوقف المراقبة) وذلك كما في قوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب/فيه/ هدى للمتقين) 2/2 فمن وقف على (لا ريب) لا يجوز له الوقف على (فيه)، ومن وقف على (فيه) لا يجوز له أن يقف على (لا ريب) [2]. وهو مطرد في كل كلم محصور بين وقفين،

((315))

لا يستقل بمعنى، ولا يستقيم إلا إذا اتصل بما قبله، أو بما بعده، على خيار من القارئ فيما يأخذ به من مذاهب القراء، وأهل التأويل.

وغاية الوقف القرآني أن يكون في خدمة النص القرآني يدفع عنه التوهم المفسد للمعنى كما في قوله تعالى: (وما هم بمؤمنين/ يخادعون الله) 2/8،9، فقد يوهم تداخل النظم أن جملة (يخادعون الله) داخله في حيز النفي، فينتفي الخداع عنهم ويتقرر الإيمان لهم خالصا عن الخداع، كما تقول: ما هو بمؤمن مخادع، والقصد في الآية إثبات الخداع بعد نفي الإيمان لذلك لزم الوقف على (بمؤمنين).

---

[1] - راجع: النشر 1/255-230، والإتقان: للسيوطي 1/238.

[2] - النشر 1/237.

* وقد يكون الوقف للفصل بين متباين المعاني كما في قوله تعالى: (وقالوا اتخذ ولدا/ سبحانه بل له ما في السموات والأرض)2/116، بفصل الوقف على (ولد) بين قول اليهود والنصارى: اتخذ الله ولداً، وبين قول الحق: (سبحانه) تنزيهاً له عما نسبوه إليه.

* وقد يكون تغير الوقف سبباً في تكثير المعاني كما في قوله تعالى: (يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) 8/64 فعند الوقف على (حسبك الله) يكون المعنى يكفيك الله، ويكفي من اتبعك من المؤمنين، ويجوز أن ينتقل الوقف إلى آخر الآية فيستجد معنى آخر وهو: كفاك الله، وكفاك أتباعُك من المؤمنين[1].

* وقد يعين الوقف على توجيه القراءات المختلفة كما في قوله تعالى: (وأتموا الحج والعمرة لله) 2/196.

((316))

* قرأ الجمهور (والعمرة) بالنصب عطفاً على الحج، وتلك القراءة تدل على وجوبها، وهو مذهب علي، وابن عمر، وابن عباس، والحسن وغيرهم، وهذا يقتضي الوقف على (لله) لتمام المعنى المراد.

* وقرأ الأصمعي عن نافع، والقزاز عن أبي عمرو، والكسائي عن أبي جعفر (والعمرةُ) بالرفع، وتلك القراءة تدل على أن العمرة سنة وتطوع، وهو مذهب ابن مسعود، وبه أخذ أبو حنيفة، ومالك. وتقتضي هذه القراءة أن يكون الوقف على (الحج)؛ لأن ما بعده استئناف من مبتدأ وخبر[2].

أوجه الوقف:

وتعني عند القراء ما يوقف به، قال ابن الجرزي: وللوقف في كلام العرب أوجه متعددة، والمستعمل منها عند أئمة القراء تسعة وهي: السكون، والروم، والإشمام، والإبدال، والنقل، والإدغام، والحذف، والإثبات، والإلحاد.

1 - السكون : هو الأصل في الوقف على الكلم المحركة وصلاً.

2 - الروم : هو النطق ببعض الحركة إذا كانت ضمة أو كسرة.

3 - الإشمام : هو الإشارة إلى الحركة إذا كانت ضمة من غير تصويت.

4 - الإبدال : هو الوقف بالألف بدل التنوين في الاسم المنصوب

---

[1] - الكشاف 167/2، منار الهدى/100.

[2] - زاد المسير: 204/1، إ يضاح الوقف والابتداء لأبي بكر بن الأنباري 25/1 تحقيق د. محي الدين رمضان.

المنون، وبالهاء بدل التاء في المفرد المؤنث، وبحرف مد بدلاً من همزة.

5 - النقل : هو نقل حركة الحرف الموقوف عليه إلى الحرف الذي قبله بشروط.

6 - الإدغام : وهو بين الحرف المبدل من الهمزة (واو أو ياء) وبين الحرف السابق عليهما من مثلهما.

7 - الحذف : وهو في (ياءات) الزوائد عند من يثبتها وصلاً، ويحذفها وقفاً.

8 - الإثبات : وهو في (الياءات) المحذوفة وصلاً عند من يثبتها وقفاً.

9 - الإلحاق : وهو إلحاق (هاء السكت) لبعض أواخر الكلم، كأدوات الاستفهام وغيرها.

هذا مجمل ما استعمله القراء في الوقف القرآني من وجوه [1]. ولنا في هذه الوجوه نظر، ثم تفصيل.

أما النظر في هذه الوجوه فيرى تداخلاً بين صور الوقف الصوتية، وما يحدث من تغيرات لأواخر الكلم عليه؛ فوجه الإشمام – مثلاً – لا يخرج عن كونه وقفاً بالسكون مع الإشارة إلى الحركة المحذوفة، وبعض صور الإبدال كالتي بين التاء والهاء فلا تخرج أيضاً عن كونه وقفاً بالسكون على الهاء، وكوجه النقل فهو وقف بالسكون أيضاً مع التصرف في حركة الحرف الموقوف عليه بالنقل إلى ما قبله، وهكذا بقية الوجوه سوى الوقف بالروم، وبالألف بدل التنوين، وبالمد بدل الهمزة.

وعلى هذه النظرة لا يكون للوقف سوى ثلاث وجوه صوتية هي:

1 - الوقف ببعض حركة قصيرة (الروم).

2 - الوقف بالسكون.

3 - الوقف بحركة طويلة.

ولكل وجه من هذه الوجوه مواضع من الكلم، وتوابع من متغيرات.

أولاً: الوقف ببعض حركة قصيرة:

---

[1] - النشر 120/2، وقارن بالإتقان 248/1.

وهو المعروف في اصطلاح القراء (بالروم)، مأخوذ من رام الشيء وقصده؛ فكان القارئ يروم الحركة ولا يتمها، قاله ابن يعيش[1]. ومواضعه أواخر الكلم المتحرك بحركة قصيرة أصلية ضمة أو كسرة، دون الفتحة؛ لأن الفتحة –كما قال القراء – حركة خفيفة إذا خرج بعضها خرج سائرها فلا تقبل التبعيض[2].

وللصوتيين تعليل آخر ربما كان أدل على استثناء الفتحة من عناصر (الروم) ذلك أن الفتحة صوت يهبط اللسان حال النطق به إلى أقصى ما يمكن إليه الفم، بحيث يستوي في قاع الفم مع انحراف قليل في أقصى اللسان نحو أقصى الحنك، والشفتان مع هذه الحركة في وضع محايد، لذلك كانت حركة متسعة حيث إن الفراغ بين اللسان والحنك أوسع ما يمكن في هذا الوضع، مما يخفت معه الصوت لانطلاق الهواء

دون احتكاك بأي عضو من أعضاء النطق، ومن ثم فلا يضعف الضعيف؛ إذ أن الروم –كما قال صاحب التيسير: – هو تضعيفك الصوت بالحركة حتى يذهب بذلك معظم صوتها.

هذا على حين أن الكسرة والضمة من أصوات اللين الضيقة لأن اللسان مع كل منهما يبلغ في صعوده نحو الحنك أقصى ما يمكن للنطق بهما، فيضيق مجرى الهواء مما ينشأ عنه ضوضاء تجعلهما أكثر وضوحاً في السمع من الفتحة، ومن ثم يمكن تضعيف الصوت بهما بتقليل كمية الهواء المندفع من الرئتين بضغط الحجاب الحاجز عليهما [3].

وكيفية الروم أن يقف القارئ أميل إلى السكون مع الإتيان ببعض الحركة القصيرة ضمة كانت أم كسرة، وذلك البعض المثبت أقل مما ذهب منها، فيسمع للحركة صوت خفي يدركه الأعمى بحاسة سمعه، أو أن يسمعه القريب المصغي، دون البعيد. والقصد منه تبيين حركة الإعراب أو البناء كيف كانت في الوصل[4].

والروم يباين الاختلاس حيث يجوز الاختلاس مع الحركات الثلاث وعند الوقف والوصل، والباقي من الحركة المختلسة أكثر من الذاهب منها، وقدره بعض القراء بثلثي الحركة في الاختلاس، وبثلثها في الروم، ولا يضبط كلَّ ذلك إلا المشافهةُ.

---

[1] – شرح المفصل: 67/9.

[2] – الإتقان 249/1.

[3] – راجع: علم اللغة – قسم الأصوات: د. كما بشر/ 177-200، اللغة: لفندريس/52.

[4] – راجع: الكشف عن وجوه القراءات السبع: لمكي بن أبي طالب القيسي 125/1 تحقيق د. محي الدين رمضان.

وشرط الحركة أن تكون أصلية للحرف الموقوف عليه، فلا روم عند

((320))

الوقف بالهاء بدل تاء التأنيث في مثل قوله تعالى: (أن تكون أمة هي أربى من أمة) 16/92؛ لأن الهاء بدل من حرف الإعراب – على حد تعبير القراء – وقد ذهب حرف الإعراب مع حركته. ولنا تعليق على الإبدال المتوهم سيأتي في موضعه.

ولا روم كذلك مع حركة عارضة الصلة في ميم الجمع على قراءة الصلة في مثل قوله تعالى: (أنعمت عليهمو) 1/7، وهي قراءة ابن كثير وأبي جعفر [1].

ولا روم مع حركة التخلص من التقاء ساكنين في مثل قوله تعالى: (قم الليل) 73/2 عند الوقف على (قم)، ولا على حركة الساكن أصلاً عند إلحاق التنوين به عوضاً عن محذوف في مثل قوله تعالى: (يقول الإنسان يومئذ أين المفر) 75/10 عند الوقف على (يومئذ) فالأصل في (الذال) السكون، لأنك تقول: جئتك يوم إذ كان كذا، فلما حذفت ما بعدها جعل التنوين عوضاً عنه، فقلت: جئتك يومئذٍ يا هذا، والتنوين نون ساكنة والذال ساكنة، فتحركت بالكسر تخلصاً من التقاء ساكنين، فلما وقفت عليها رجعت إلى السكون الذي كان لها من قبل، فلا حظ لها في الحركة حتى ترام [2].

واختلف القراء في حركة هاء الضمير في مثل (يعلمه، وأمره وليرضوه، وربه، وفيه، وإليه) فبعضهم أجاز الروم مطلقاً، وبعضهم منعه مطلقاً، واختار الجرزي جواز الروم فيما إذا كان قبل

((321))

الضمير فتحة، أو ألف، أو ساكن صحيح مثل (لن تخلفه، واجتباه، ومنه، وعنه) ومنعه فيما سوى ذلك كأن يسبق الضمير المضموم بضمة، أو واو، والضمير المكسور بكسرة أو ياء، حيث اعتبر أن حركة ما قبل الضمير هي حركة الضمير فاستغنى بها عن الروم [3].

وأشهر من عرف بالروم من القراء أبو عمرو بن العلاء، وتابعه الكوفيون، ولم يأت عن الباقين فيه شيء، واستحبه أهل الأداء في قراءتهم أيضاً [4].

---

[1] – راجع: إتحاف فضلاء البشر للبنا الدمياطي/101.

[2] – انظر: الكشف 126/1 في كتاب الإقناع 529/1 رأي آخر.

[3] – النشر 124/2.

[4] – الإتقان 249/1.

ثانياً: الوقف بالسكون:

قال النحاة والقراء: إن السكون هو الأصل في الوقف، لأن الواقف يترك حركة الموقوف عليه فيسكن، ويتحصل به للقارئ من الراحة ما ينشده، إذ أن السكون من الناحية الصوتية خال من التحقيق الصوتي، أي ليس له أثر مادي من ناحية النطق الفعلي. ولعل انعدام هذا الأثر المادي قد أوحى إلى أهل اللغة أن يجعلوا علامته دائرة هكذا (5) وهي شبيهة بالصفر الذي ليست له قيمة عددية إيجابية، وقد لحظ بعض الصوتيين ذلك فعد السكون العلامة الصفرية للحركات[1].

وعلى الرغم من هذا التكييف الصوتي للسكون فإن النحاة من عده ضمن حركات الإعراب إذ أنه من الناحية الوظيفية دليل إعرابي في

المضارع الصحيح المجزوم، وإمكانية من إمكانيات البناء في اللغة العربية فمنها ما هو مبني على الحركة، ومنها ما هو مبني على السكون [2].

ومواضعه في الوقف أواخر الكلم بحركة قصيرة مع التنوين أو عدمه، سوى المنون المنصوب، وما شابهه أداء كالمقصور المنون، وليس بعسير إدراك مواضعه في مثل قوله تعالى:

(فلما قضى زيد)	**33/37**
(أو أراد بكم رحمة)	**33/17**
(من ولي ولا شفيع)	**32/4**
(وعيسى بن مريم)	**33/7**
(وما هي بعورة)	**33/13**
(نؤتها أجرها مرتين)	**33/31**
(لرجل من قلبين)	**33/4**
(إنهم منتظرون)	**32/30**
(هدى لبني إسرائيل)	**32/23**

[1] – راجع: دراسات في علم اللغة د. كمال بشر القسم الأول/233، وانظر: شرح التصريح للأزهري 243/2، 244.

[2] – ظاهرة الإعراب د. أحمد ياقوت/53، نقلاً عن مصدره.

(ومن نوح وإبراهيم)	**33/7**
(أم يقولون افتراه)	**32/2**
(ومنهم من ينتظر)	**33/23**
(كأحد من النساء)	**33/32**

((323))

(ويتوب الله على المؤمنين والمؤمنات)	**33/73**
(ومن يعص)	**33/36**
(الذين خلوا من قبل)	**33/38**
(وتؤى إليك من تشاء)	**33/51**
(ولا يحزن ويرضين)	**33/51**
(وقدر في السرْد)	**34/11**
(ورواحها شهر)	**34/12**
(وأسلنا له عين القطر)	**34/12**
(وما يستوي البحران)	**35/12**
(آمنت بربكم فاسمعون)	**36/25**
(فاقض ما أنت قاض)	**20/72**
(كذلك نجزي من شكر)	**54/35**

وربما كان من الكلم ما حرك آخره بحركة قصيرة سوى ما استثنينا، ولم يوقف عليه بالسكون، بل وقف عليه بحركة طويلة مثل: (لا إله إلا هو) 9/129، (سلام هي) 97/5، (كلا إذا بلغت التراقي) 75/26، (ولكن ليقضي) 8/42، (لن ندعوَ) 18/14.

يرى الصوتيون أن الوقف على هذا كله بالسكون أصلاً، إذ أن هذا الكلم مما انتهى آخره بمزدوج هو (الياء أو الواو) ويعنون بالمزدوج؛ الأثر الناتج من ازدواج حركتين، فالياء [Y] عندهم انزلاق بين حركتين هما [i] و [a] الفتحة إذا تراكبا هكذا [a + I] / Y ، والواو [w] عندهم

((324))

انزلاق بين حركتين هما [u] الضمة، و [a] الفتحة إذا تراكبا هكذا $\underline{[a+u]}$ ، وسرعان ما يختفي هذا المزدوج إذا سقط أحد عنصريه، ويعوض موقعه بطول عنصره الباقي، وهنا سقط عنصره الثاني وهو [a] الفتحة بالوقف عليه بالسكون فاختفى المزدوج اليائي [Y]، والواي [W] وعوض موقعه بطول عنصره الأول فصار إلى كسرة طويلة [I I] رمزها ياء المد، وإلى ضمة طويلة [u u] رمزها واو المد، وانتقل الوقف بالسكون إلى صورة أخرى من صور الوقف وهي الوقف بالحركة الطويلة ولا يتصور الوقف عليه هكذا إلا بهذا التفسير.

وربما كان قريباً منه تفسير القدامى لمثل هذا حين قالوا: سكنت الواو، أو الياء في الوقف وقبل الواو ضمة، وقبل الياء كسرة فصار الوقف بحرف المد. غير أنهم يتصورون أن حروف المد هي: الألف التي قبلها فتحة – ولا تكون إلا كذلك، الواو التي قبلها ضمة، والياء التي قبلها كسرة، وهو تصور غير صحيح، لأن الواو والياء اللتين يعنونهما هما رمزا الحركة الطويلة، ولا يتحمل الحرف حركتين في آن واحد، فلا ضمة قبل الواو في (يقول)، ولا كسرة قبل الياء في (قيل) ولا فتحة قبل الألف في (قال).

السكون والإشمام:

والوقف بالسكون في نحو ما سبق قد تعقبه إشارة إلى بعض الحركات المحذوفة وهو ما يعرف في اصطلاح القراء بالإشمام وخصوه بالضمة فقط، وشرطوا أن تكون أصلية لا عارضة كقوله تعالى: (إياك نعبد)

((325))

1/5، (الله الصمد) 12/2 (لا يصيبهم ظمأ) 9/120.

وكيفيتة –كما وصفها القراء – حذف الضمة، فضم الشفتين على صورتها إشارة إليها. ونصوا فيه على التعقيب بدون تراخ، وإلا كان إسكاناً فحسب لا إشماماً وهو معنى قول الشاطبي: (إطباق الشفاه بعيد ما يسكن) وهو أتم من تعبير غيره (ببعد) لعدم إفادة التعقيب [1].

ولا حظَّ للكسرة في الإشمام حيث تتعذر الإشارة إلى حركتهما؛ لأن الكسرة من مخارج الياء، ومخرج الياء من داخل الفم من ظهر اللسان إلى ما حاذاه من الحنك، والفتحة من مخرج الألف، والألف من الحلق، وكلاهما شيء باطن لا يظهر للعيان[2].

---

[1] – الإتحاف /101.

[2] – ابن يعيش 67/9.

وجميع ما امتنع فيه الروم بسبب عروض الحركة يمتنع فيه الإشمام.

وهذا الذي ذكرناه من كيفية الروم والإشمام مذهب القراء ونحاة البصرة، أما الكوفيون فيسمون الإشمام الذي لا يسمع بالروم، ويسمون الروم الذي يسمع بالإشمام، فكأن الروم من قولك رمت الشيء وإن لم تفعله، والإشمام من شمت كذا إذا وجدت ريحه وذلك أمكن في وجود الفعل من الروم[1].

والإشمام كالروم مذهب أبي عمرو والكوفيين: حمزة والكسائي، واستحسنه من أهل الأداء: عاصم ويعقوب وخلف، وقد دلوا به على حركة الحرف لو وصل [2].

((326))

السكون والنقل:

قد يجري في بعض الكلم الموقوف عليه بالسكون تحويل حركة الحرف الأخير للكلمة إلى الساكن قبله. وقد مثل له النحاة – في غ ير المهموز بقولهم: هذا النقُر بضم القاف، وبالنقر بكسر القاف، ومنعوا ذلك في قولهم: رأيت النقر، وعلل سيبويه المنع مع الفتح بأن الراء في المنصوب لا يلزمها السكون عند الوقف، بل قد يوقف عليها بالألف – على حد تعبيرهم – إذا كان منوناً، كقولهم: صادفت نقرًا، فأجرى التعريف في منع النقل مجرى التنكير في عدمه.

وجاء منه في الرفع قول الشاعر:

أنا ابـــــن ماويــــــة إذ جـــــــدَّ النقُــــــرْ   وجـــــــــاءت الخيـــــــل أثافي زمـــــــــر

كما جاء منه في الجر قول الشاعر:

علمنـــــــا أخوالنـــــــا بـــــــني عِجْـــــــل   شـــــرب النبيـــــذ واصـــــطفاقاً بالرجـــــلْ

وشرط النحاة لهذا شروطاً هي:

1 – أن يكون الحرف الموقوف عليه صحيحاً.

2 – أن يكون ما قبل الأخير ساكناً.

3 – ألا تكون الحركة المنقولة فتحة. هذا عند البصريين، أما الكوفيون فيرون النقل مع الحركات الثلاث.

---

[1] – راجع: الكشف لمكي 122/1.

[2] – راجع الإيضاح لابن الأنباري 386/1.

4 - ألا يؤدي النقل إلى بناء معدم النظير في العربية مثل: هذا عِدْل؛

((327))

لأنه يخرج إلى ما ليس في الكلام: (هذا عِدُل) كسر فضم، أو إلى بناء ليس في الأسماء مثل (في اليُسْر) لأنه يخرج إلى ضم فكسر، وهو في الأفعال المبنية للمفعول لا في الأسماء[1].

وقد عزيت هذه الظاهرة إلى بني تميم تخلصاً من التقاء الساكنين وفيها –كما يقول ابن يعيش – محافظة على حركة الإعراب وتنبيه عليها[2].

هذا، على أن بعضاً من بني تميم وهم بنو عدّي لا يحرصون على ننقل حركة الحرف الأخير إلى الساكن قبله، بل يجعلون حركة الساكن قبل الأخير كسرة فيقولون: قد ضربْته، وقد أخذته بكسر التاء فيهما حيث أرادوا تحريكها لبيان الساكن، والتخلص من التقاء الساكنين، على أن عامة بني تميم تحرك التاء في نحو هذا بحركة الضمير وهي الضمة.

كذلك خالفت قبيلة لخم ما اشترط في هذا النقل من سكون ما قبل الآخر، فقد نقلت في الوقف حركة الأخير إلى المتحرك قبله، ومثل له صاحب (الهمع):

مـــن يأتمـــر للخـــرم فيمـــا قصـــدُهْ تجمـــد مســـاعيه ويعلـــم رشـــدُهْ

حيث نقل حركة الضمير – وهي الضمة – مكان الفتحة على الدال في (قصده) [3].

((328))

ويرى بعض الباحثين تأثر لهجتنا العامية المعاصرة بلهجة لخم هذه حيث نقول في: (ضربَهُ) بضم الياء[4].

هذا، ومعظم القراء على لهجة قريش التي تحتمل التقاء الساكنين حرصاً على سلامة البنية الصوتية للكلمة من التغيير إلاّ أبا عمرو – وهو تميمي – فقد قرأ يونس عنه: (والشفع والوتر) 89/3 بكسر التاء.

---

[1] – ابن عقيل 401/2، التكملة (الإيضاح العضدي) 8/2، 9 الفارسي.

[2] – شرح المفصل 70/9.

[3] – راجع الهمع 208/2.

[4] – اللهجات العربية في التراث: د. أحمد علم الدين الجندي /492.

وقال أبو حيان: قرأ سلام عن السدى (والعصر) بكسر الصاد، و (بالصبر) بكسر الباء، وهو في الوقف على نقل حركة الأخير إلى الساكن قبله.

وفي (الكامل للهنديلي): (والعصر، بالصبر، والفجر، والوتر) قرأ بكسر ما قبل الآخر في هذه كلها هارون بن موسى عن أبي عمرو.

وقال ابن خالويه: وهذا من أبي عمر وبنقل حركة الراء إلى الساكن قبلها.

وقال (صاحب اللوامح): قرأ عيسى بن عمرو (بالصبر) بالنقل لئلا يحتاج أن يأتي ببعض الحركة على الروم، ولا أن يسكن فيجمع بين ساكنين، وهذه لغة شائعة وليست شاذة.

وقال أبو البقاء: والجمهور على إسكان الباء في (وتواصوا بالصبر) وكسرها قوم وهو لغة من ينقل الضمة والكسرة في الوقف إلى الساكن قبلها حرصاً على بيان حركة الإعراب[1].

((329))

وقال ابن الأنباري: قال خلف: سمعت الكسائي في قوله تعالى: (عما نهوا عنه) 7/166 وفي قوله تعالى: (فلا تك في مرية منه) 11/106 يقول: الوقف عليها بضم النون فيها والتخفيف أحب إلي فيهما. وعلل ابن الأنباري لمن وقف بضم النون أنه نقل ضمة الهاء لما وقف إلى النون كقول الشاعر:

أنا جريـــــر، كنيـــــتي أبـــــو عمـــــر أضـــرب بالســـيف وســـعد في القصِـــرْ

أراد في (القصْرِ) فنقل حركة الراء إلى الصاد.

وأنشد الفراء لأبي النجم:

(فقلت للسائس قده أعجلُهْ)

أراد (أعجلُهُ) فنقل ضمة الهاء إلى اللام.

وقال آخر:

مـــن النـــاس مـــن أن يستشـــرك فتجهـــر لـــه الـــرأي، يستغششـــك مـــا لم تتابعـــه

أراد (ما لم تتابعْهُ) فنقل ضمة الهاء إلى العين [2].

---

[1] – البحر المحيط لأبي حيان 467/8، إملاء ما مّن به الرحمن للعكبري 293/2.

[2] – الإيضاح لابن الأنباري 432/1-434.

وتنسب كتب اللغة إلى الكسائي أنه قرأ قوله تعالى: (منه آيات محكمات) 3/7 بضم النون وسكون الهاء وقفاً وهو على لغة بني تميم ينقلون حركة الضمير إلى الساكن قبله يقولون: (منه، عنه، ضربته، قده – أي حسبه –) كله بسكون الضمير وتحريك ما قبله.

((330))

وأنشدوا لزياد الأعجم:

عجبت والدهر كثير عجبه من عنزيّ سبني، لم أضربْهْ

بضم الباء وسكون الهاء في (لم أضربه) ليكون أبين لهاء الضمير [1].

وهذا الذي ذكرناه إنما هو في غير المهموز، أما في المهموز آخره فإن الحجازيين والتميميين على سواء في النقل وإن اختلفت بهما طرق الأداء والتصرف في الهمزة معه.

الهمزة والنقل في لغة الحجازيين:

إذا كانت الهمزة متحركة وقبلها ساكن صحيح فالوقف عندهم بنقل حركة الهمزة إلى الساكن قبلها، ثم حذفها، ثم حذف الحركة المنقولة للوقف عليه بالسكون فيقولون في (الخبء)

هذا الخبْ، رأيت الخبْ، علمت بالخبْ.

وهذه الصورة الصوتية للبنية في هذا الإجراء كصورتها لو حذفت الهمزة فحسب، فالباء في الأصل ساكنة، لكنهم أرادوا بهذا الإجراء من النص على النقل جواز الروم والإشمام، أما التخفيف بالحذف دون النقل فلا يجوز معه روم ولا إشمام إذ لاحظّ للباء في الحركة عندئذ.

وقد ورد من هذا النسق في القرآن سبعة مواضع:

1 – أربعة مع الهمزة مضمومة (لكم فيها دفء، من أحدهم ملء، ينظر المرء، ولكل باب جزء).

((331))

2 – موضعان مع همزة مكسورة (بين المرء وزوجه، بين المرء وقلبه).

3 – موضع مع همزة مفتوحة (يخرج الخبء).

والقراء على مذهب النحاة من نقل حركة الهمزة ثم حذفها ثم حذف الحركة للوقف عليه بالسكون.

---

[1] – راجع الكتاب 344/2، شرح الشافية 322/2.

وإذا كان ما قبل الهمزة (ياء أو واواً) زائدتين للمد خاصة كتلك التي جاءت في قوله تعالى: (إنما النسيء، إن الله برئ، ثلاثة قروء) ولا رابع لها في القرآن إلا (كوكب دري) بوزن فعيل – في قراءة حمزة – فغن القراء يقفون عليه بالسكون أصلاً، ثم يخففون الهمزة بالبدل من جنس ما قبلها، ثم يدغمون أول المثلين في الآخر – على حد تعبيرهم – فيقولون: (النسيّ، بريّ، قروّ).

وإذا كان ما قبل الهمزة (ياء أو واواً) حرفي لين كتلك التي جاءت في قوله تعالى: (لا يخفى عليه شيء، إنهم قوم سوء، مثل السوء) فإن القراء قد يجرونه مجرى الصحيح من النقل ثم الحذف فيقولون: (شيْ، سوْ).

وقد يجرونه مجرى الزائدتين من الإبدال والإدغام فيقولون: (شيّ، سوّ) بالتضعيف، والأول عندهم أحسن وأقوى [1].

وانفرد الحافظ أبو العلاء بجواز ذلك في حرفي اللين فحسب ولم يجزه بحرف المد، وكأنه لحظ كونه حرف مد، وحرف المد لا يجوز إدغامه [2].

وإذا كان ما قبل الهمزة (ياء أو واوا) حرفيْ مد أصليين كتلك التي جاءت في قوله تعالى: (المسيء، جيء، سيء، يضيء) لتنوء، أن تبوء، من سوء) فإن القراء قد يجرونه مجرى الزائدتين من الإبدال والإدغام فيقولون: (المسيّ، من سوّ)، حكى سماع ذلك من العرب يونس، والكسائي، وحكاه أيضاً سيبويه ولكنه لم يقسه، فخصه بالسماع ولم يجعله مطرداً. ووافق عليه جماعة من القراء، وجاء أيضاً منصوصاً عن حمزة، وبه قرأ الداني [3].

وقد يجرونه مجرى الصحيح بإلقاء الحركة عليهما ثم حذف الهمزة على النحو التالي:

أن تبوء – أن تبوَ – أن تبوْ – أن تبو بمد طويل، قال مكي: لأن حذف الهمزة عارض، ولأن الواو التي كانت للمد فيها باقية لم تتغير ببدل أو غيره[4]. وعلى هذا الوجه أكثر الأئمة من القراء، والنحاة، وهوة اختيار ابن مجاهد، وهو القياس المطرد إجماعاً [5].

وإذا كان ما قبل الهمزة (ألفاً) كتلك التي جاءت في قوله تعالى: (جاء، السفهاء، عن أشياء، منه الماء، من السماء، على سواء، على استحياء، ولا نساء من نساء) فإن القراء يقفون عليه بالسكون ثم

---

[1] – الكشف لمكي 109/1.

[2] – النشر 440/1.

[3] – المرجع السابق.

[4] – الكشف لمكي 119/1.

[5] – النشر 440/1.

يتبعونه إبدال الهمزة ألفاً من جنس ما قبلها، والوجه في ذلك –كما قالوا – إن الهمزة لما سكنت للوقف لم تعد الألف حاجزاً فقلبت الهمزة ألفاً لسكونها وانفتاح ما قبلها، ثم حذفت إحدى الألفين تخلصاً من التقاء

((333))

ساكنين، فإن قدر المحذوف الأولى – وهو القياس عندهم – قصر، فلا مدّ كالألف في (تامر) وإن قدر المحذوف جاز المد والقصر؛ لأنها حرف مد من قبل همزة صغيرة بالبدل ثم الحذف، وقد يتصورن جواز بقاء الألفين للوقوف فيمدون لذلك مدًّا طويلاً ليفصل بين الألفين[1].

وإذا كان ما قبل الهمزة متحركاً – وهو لا يقبل النقل – فالنحاة على قلب الهمزة حرفاً من جنس حركة ما قبلها ففي (الكلأ) تقلب ألفاً دائماً رفعاً ونصبا وجراً، وفي (أكمؤ) تقلب واواً دائماً في الأحوال الثلاثة، وفي (أهنئ) تقلب ياء دائماً كذلك.

والقراء يقسمون أحوال الهمزة إلى قسمين: ساكن لازم لا يتغير في حالي الوصل والوقف، ساكن عارض يسكن وقفاً ويتحرك بالأصالة وصلاً.

فالساكن اللازم يأتي قبله مفتوح كقوله تعالى: (اقرأ) ومكسور كقوله تعالى: (نبئ) ولم يأت قبله مضموم، ومثاله في غير القرآن (لم يسؤ).

والساكن العارض تأتي قبله الحركات الثلاث فمثله مع الفتح (بدأ، قال الملأ، عن النبأ) ومثاله مع الكسر (يبدئ، من شاطئ، قرئ) ومثاله مع الضم (كأمثال اللؤلؤ، إن امرؤ). وهم في الوقف على ما قال النحاة من قلب الهمزة حرفاً من جنس ما قبها. وكذلك يقف حمزة من غير خلاف عنه [2].

((334))

غير أن القراء نبهوا على أن حركة الهمزة إذا خالفت ما قبلها جاز فيها الإسكان والبدل على نحو ما سبق، وجاز فيها أيضاً أن تكون (بين بين) على أن يختار من ذلك ما يوافق رسم المصحف عند التخفيف. وهذا شأن حمزة يتبع الخط في وقفه [3].

الهمزة والنقل في لغة التميميين:

---

[1] – راجع النشر 432/1، إتحاف فضلاء البشر/65.

[2] – النشر 430/1، الكشف 113/1.

[3] – الكشف 113/1.

إذا كانت متحركة وقبلها ساكن فبنو تميم يلقون حركة الهمزة على الساكن قبلها بياناً للهمزة، لأنها كما قال النحاة أبعد الحروف خفاء، وسكون ما قبلها يزيدها خفاء لذلك يحركون ما قبلها، ويقفون عليها بالسكون فيقولون (هذا الخبُءْ) بضم الباء، (وعلمت بالخبءْ) بكسر الباء، (ورأيت الخبءْ) بفتح الباء. ذكره النحاة ولم يأخذ به أحد من القراء[1].

ولهم فيها أيضاً نصرف آخر مع الوقف عليها بالسكون يجعلون بيانها بإتباع العين حركة الفاء قبلها في الرفع والجر والنصب فيقولون (البطؤ) بضم الياء والطاء، (والردئ) بكسر الراء والدال، (والخبء) بفتح الخاء والباء. وهذا نوع من الانسجام بين الحركات يحرص عليه بنو تميم.

ومن بني تميم من يحذف حركة الهمزة ولا ينقلها، ثم يقلب الهمزة إلى حرف علة يجانس حركة الهمزة قبل الحذف فيقولون: (هذا البطوْ)،

(ومررت بالبطئ) بسكون الطاء فيهما، ويقولون (رأيت البطا) بالفتح قبل الألف – على حد تعبيرهم – ليس غير.

ومنهم من ينقل الحركات إلى العين في الجميع ثم يدبرون الهمزة في القلب بحركة ما قبلها فيقولون (هذا البطو)، (وهذا الردو)، (وهذا الخبو)، (ومررت بالبطي) (ومررت بالردي)، (وعلمت بالخبي) وفي المنصوب كله بالفتح.

وقد نبه النحاة على أن هذا القلب ليس للتخفيف؛ لأن بني تميم لا يخففون الهمزة، بل هذا القلب للحرص على بيان الحرف الموقوف عليه.

وإذا كان ما قبل الهمزة متحركاً فمنهم من يقف بالسكون على الهمزة دون تصرف آخر يقولون: (هذا الرشأ) لأن الحركة قبلها تبينها.

ومنهم من يبدل من همزته في الوقف حرف لين من حركتها فيقولون (هذا الكلو، والخطو) ومررت بالكلى و الخطى) ويقولون (رأيت الكلا) لعدهم الفتحة لخفتها كالعدم[2].

ومن لغة بني تميم أخذ القراء بقلب الهمزة حرفاً م جنس حركتها سواء كانت بعد متحرك أو ساكن فيقولون:

(جاء الملو، ومرر بالملي، ورأيت الملا)

---

[1] – النشر 442/1.

[2] – الشافية 312/2، المفصل لابن يعيش 74/9.

ويقولون (هذا نبو، وجئت بنبي، وسمعت نبا)

((336))

ويقولون (هذا الخبو، ومررت بالخبي، ورأيت الخبا)

فتكون الهمزة واواً في الرفع، وياء في البحر، وألفاً في النصب

وقد يتفق هذا النوع من التخفيف والوقف مع أهل الحجاز حالة الرفع إذا ضم ما قبل الهمزة كما في قوله تعالى: (يخرج منهما اللؤلؤ)، وفي حالة الجر إذا كسر ما قبل الهمزة في قوله تعالى: (من شاطئ) وفي حالة النصب إذا فتح ما قبل الهمزة كما في قوله تعالى: (إن الملأ). ولكنهما يختلفان تقديراً؛ فعند الحجازيين روعي حركة ما قبلها، وعند بني تميم روعي حركة الهمزة نفسها، وتظهر ثمرة هذا الخلاف في (الروم والإشمام) ففي تخفيفها بحركة نفسها يجوز الروم والإشمام، وفي تخفيفها بحركة ما قبلها لا يجوز شيء من ذلك.

وتحفظ جماعة من القراء في الأخذ بهذا التخفيف، فوافقوا على ما يتفق منه مع رسم المصحف، فما رسم بالواو وقف عليه بالواو، وما رسم منه بالياء وقف عليه بالياء، وما رسم منه بالألف وقف عليه بالألف [1].

وقد أتاح هذان النوعان من التخفيف الحجازي والتميمي أمام القراء فرصة الاختيار بينهما على ما يوافق رسم المصحف منهما، فقد جاء مرسوماً في المصحف على نحو حركته قوله تعالى: (فقال الملؤ الذين كفروا) 23/24، فيكون الوقف عليها تخفيفاً (فقال الملو) بالواو على لغة بني تميم، وجاء مرسوماً في المصحف على حركة ما قبله قوله

((337))

تعالى: (وقال الملأ من قومه) 23/33، فيكون الوقف عليها تخفيفاً (وقال الملا) بالألف على لغة الحجازيين[2].

هذه خلاصة وافية لما جاء في كتب اللغة والقراءات من الوقف على الهمزة المتطرفة في لهجات العرب – وكان حمزة أشد القراء عناية به واختص به ليناسب قراءاته المشتملة على شدة الترتيل والمد، والسكت،

---

[1] – النشر 445/1.

[2] – النشر 460/1.

وقد وقف على كثير من الكلمات المهموزة وقف اضطرار فاستوفى كل صورها في القرآن الكريم. وقد وافقه على مذهبه كثير من القراء كجعفر بن مُحَمَّد الصادق، وطلحة بن مصرف، والأعمش، وهشام [1].

تعقيب:

ولنا على هذه التغيرات الصوتية تعقيب من جهة نظر الصوتيين، فهم وإن كانوا لا يختلفون مع النحاة والقراء في الصور الصوتية لهذه الوقوف – فقد يخالفونهم في تقديراتهم لأحداث هذا التغيير؛ إذ بنوها على تصورات خاطئة. وأول هذه التصورات أنهم يعتبرون كل ما سبق الهمزة في هذا النسق من السواكن، وهو أمر غ ير مسلم به في منهج الدراسات الصوتية، بل هي من الحركات الطويلة – باستثناء حرفيْ اللين – وقد أصاب (مكي القيسي) حين علل عدم إلقاء الحركة على الألف؛ بأن الألف في نية

((338))

الحركة ولا تلقى على حركة، كما أصاب في حملة واو المد وياءه على الألف في ذلك، وإن كان قد قصر في إدراك أن الألف حركة طويلة – لا في نية الحركة –كما يقول – وأن الواو والياء المدتين من الحركات الطويلة سواء أكانتا أصليتين، أم زائدتين – لا من السواكن [2].

وعلى هذا التصور الصوتي فليس قبل الألف فتحة، ولا قبل الياء كسرة، ولا قبل الواو ضمة، وإنما الألف، والياء، والواو رموز الحركات الطويلة، وهي بهذا الاعتبار لا تقبل نقل الحركة عليها.

وإذا سلمنا بأن ما قبل الهمزة في هذا كله من قبيل الحركات فأي مماثلة بينها وبين الهمزة – وهي من الصوامت – توجب التبادل بينهما؟ وقد قرر الصوتيون القدامى أن التبادل بين الحروف لا يقوم إلا على علاقة صوتية بين المبدل، والمبدل منه.

لهذا كله رفض الصوتيون هذا الذي زعمه النحاة والقراء إبدالاً بين الهمزة وغيرها، وإدغاماً بين مثلين مزعومين.

وفسر الصوتيون هذه التغيرات الصوتية بأن الهمزة في هذا المقام ذات وظيفة نبرية، أسقطها أهل الحجاز، وبعض بني تميم وعوضوا موقعها بشكل آخر من أشكال النبر، فاكتفوا في بعض الكلمات (بنبر الطول) الباقي في بنية الكلمة بعد سقوط النبر الهمزي، وعوضوا في بعضها الآخر (بنبر التضعيف) الناشئ عن ضغط المتكلم على المقطع الأخير من

((339))

---

[1] – النشر 230/1 والإتحاف /64.

[2] – الكشف 108/1.

الكلمة ضغطاً متوتراً؛ ليحافظ على مستوى معين من الأداء [1].

ولعل ما أدركه الحافظ أبو العلاء – وهو من كبار القراء – في أمر هذا التضعيف كان أدنى إلى الصواب حين قال: إن هذا القلب والإدغام تقديران، فإنا لما لفظنا بياء مشددة وواو مشددة تخفيفًا للهمزة؛ قدرنا إبدال الهمزة بعد حرف المد، وإدغام حرف المد في الهمزة. ونظير هذا إدغام أبي عمرو (ونودي يّا موسى) فإن النطق بياء مشددة، على أننا سكنا الياء الأولى وأدغمنا فيما بعدها – أمر تقديري [2].

السكون والتضعيف:

وقد يكون (التضعيف) صورة صوتية من صور الوقف على أواخر الكلم غير المهموز أصلاً، ومن ثم فهو يباين التضعيف النبري موقعاً وعزوًا، حيث إن التضعيف النبري المشار إليه من قبل إنما هو شكل من أشكال النبر التوتري المعزو إلى أهل الحجاز حيث يلجأون إليه حين لا يسبغون في أدائهم الهمز النبري المعزو إلى بني تميم.

أما هذا التضعيف المطلق فهو خاصة لهجية أجمعت كتب اللغة على نسبتها إلى أهل البادية، وربما كان شائعاً بين عدد كبير من قبائلها حيث عزاه سيبويه إلى بني أسد – وهم من المجموعة البدوية – وساق لرجل من بني أسد – هو منظور مرثد الأسدي – قوله: ببازل وجناء أو عِهِلَّ وهو من شواهد النحاة على تضعيف (عِهلّ) في الوصل ضرورة حملاً

على الوقف. وقال سيويه: فعلوا ذلك إذ كان من كلامهم أن يضاعفوا[3].

كما روت كتب اللغة والنحو أيضاً لرؤية بن العجاج – وهو تميمي – قوله:

مثل الحريق وافق القصبّا والتبن والحلفاء فالتهبا

وقد عزاه الجرمي لربيعة بن أبي صبح. وهو أيضاً من شواهد النحاة على تضعيف (القصبّا) في الوصل ضرورة حملاً على الوقف. كما روت لرؤبة أيضاً:

لقد خشيت أن أرى جدياً في عامنا بعدما أخصبّا

---

[1] – النشر 440/1.

[2] – النشر 44/1.

[3] – الكتاب 282/2.

وقال صاحب التصريح:: والوقف بالتضعيف لغة سعدية [1].

ورجح دارسو اللهجات العربية أنها سعد بني تميم – لا سعد بن بكر، وقد نسبت إليها توهماً؛ لقرب ديار بني بكر من أهل الحجاز وهم لم يؤثر عنهم الوقف بالتضعيف [2].

وتأكيداً لاختصاص هذه الظاهرة بالكلم غير المهموز جاء ضمن شروط النحاة لهذا الوقف، وهي ثلاثة:

1 - ألا يكون الحرف الموقوف عليه مثل (خطأ) وعللوا ذلك بثقل الهمزة والتضعيف. وربما رأى الصوتيون أن هذا المنع لئلا يجمع

((341))

بين شكلين من أشكال النبر، وكلاهما من النبر التوتري في كلمة واحدة على مستوى لغوي واحد.

2 - أن يكون الحرف الموقوف عليه صحيحاً إذ يستثقلون تضعيف حروف العلة.

3 - أن يكون الحرف الذي قبل آخر الكلمة متحركاً؛ لئلا يستثقل النطق لسكون تالية.

وقد عد الوقف بالتضعيف أقوى أنواع الوقوف دلالة على بيان الحرف الموقوف عليه؛ إذ جعل تضعيف الصوت عوضاً عن الحركة المحذوفة للوقف. وعلى الرغم من ذلك فهو أق صور الوقف أداء عند القراء. قال ابن الأنباري – بعد أن عد أنواع الوقف – وآخر الخمسة في الوقف تشديد آخر الاسم إذا أمكن كقولهم: هذا عمرّ [3].

وربما ترجع قلته في الأداء إلى أنه أثقل أنواع الوقف أداء – والوقف محل استراحة القارئ – وأكثرها مزلقة عند من لم يجده، ولعل هذا مما حدا بابن الجرزي أن ينبه عليه عند الوقف بالسكون على المشدد المفتوج نحو (صوافّ، يحق الحقّ، وعليهنّ) فقال: يتعين التحفظ من الحركة وإن أدى ذلك إلى الجمع بين ساكنين، فإنه في الوقف مغتفر مطلقاً، وكثير ممن لا يعرف يقف بالفتح لأجل الساكن وهو خطأ، ولتيسيره في الأداء نبه كذلك على إطالة المد قبله إذا وجد[4].

((342))

---

[1] – التصريح 34/2.

[2] – اللهجات العربية في التراث: د. الجندي /488.

[3] – الإيضاح 390/1.

[4] – النشر 127/2.

ولم يعرف أحد من القراء قرأ به سوى ما روي من أن عاصماً قرأ في قوله تعالى: (وكل صغير وكبير مستطر) 54/53 بتضعيف الراء (مستطر)[1]. وقد عاش عاصم حياته في الكوفة، وروت كتب التاريخ أن الكوفة قد تأثرت بقبائل وسط الجزيرة وشرقيها وكلهم من أهل البادية.

كذلك روي عن أبي عمر بن العلاء أنه قرأ قوله تعالى: (وتواصوا بالصبر) 103/3، بالنقل والتضعيف.

الوقوف بالسكون على المختوم بالتاء.

ومن التغيرات الصوتية التي تلحق بنية الكلمة المفردة عند الوقف عليها بالسكون؛ إذا كانت مختومة بالتاء أن يبدلوا من التاء هاء، فيقولون في الوقف على: نبقة وغرفة: نبقهْ، وغرفهْ في الرفع والنصب والجر.

وقد ذهب النحاة والقراء إلى تسمية هذه التاء (بتاء التأنيث)، على الرغم من أن هذه التاء في مواقع كثيرة لا تدل على التأنيث كأن تدخل لتمييز الواحد من الجنس كتمر، وتمرة، أو لبيان عدد المرات مثل: ركبت الفرس ركبة، أو للمبالغة في المدح كرواية وعلامة أو عوضاً عن محذوف الفاء، أو العين، أو اللام في نحو عدة، وإقامة، ولغة، وغير ذلك كثير مما عدته كتب اللغة [2].

وقد اعتلوا لهذه التسمية بأن هذا كله من التأنيث اللفظي لمجرد وجود التاء فيه، وإن خلا من الدلالة على معناه. وأيما كان الأمر فإن الكلم المختوم بتلك التاء بعد فصيلة لغوية واحدة من حيث التصرف في الوقف عليها بالهاء.

وقد اقتضى هذا الحال أن يبحث النحاة في أصل هذه الظاهرة، فذهب بعض النحاة من الكوفيين إلى أنها تسمى (هاء التأنيث) كما تسمى (تاء التأنيث) والأصل فيها أنها (هاء) تنقلب إلى (تاء) في وصل الكلام.

وقال أبو مُحَمَّد سلمة بن عاصم عن بعضهم: إن الهاء في المؤنث هي الأصل في الأسماء، ليفرقوا بينها وبين الأفعال، فتكون الأسماء بالهاء، والأفعال بالتاء، ثم قال: وربما كان هذا قول الفراء أيضاً.

وذكر بعض الروايات عن الفراء غير ذلك من أن التاء هي الأصل، والهاء داخله عليها، وذلك أنك تقول: قامت، وقعدت، فنجد هذا هو الأصل الذي يبني عليه ما فيه الهاء، ثم قال: والدليل على أن

---

[1] – التصريح 341/2.

[2] – راجع: الإيضاح العضدي باب المذكر والمؤنث من 86-131.

التاء عند العرب هي الأصل أن طيئاً تقول في الوقف (هذه امرأت، وهذه جاريت) فيصلون بالتاء، ويقفون بالتاء [1].

وربما كان هذا مذهب البصريين لقولهم: إن الوقف عارض واللفظة بالتاء – وهو الأصل – ولا يعدل عن الأصل إلا بدليل قاطع.

وينتصر الصوتيون لهذا الرأي الأخير فيقولون: إن الأصل في علامة التأنيث هو التاء المتطرفة، وقد ظلت على حالها في الفعل الماضي، وجمع الإناث، ثم تطورت في الأسماء المؤنثة إلى حالة وسطى، وهي النطق بها (تاء) في حالة الوصل وحذفها في حالة الوقف، ثم تطورت

((344))

هذه العلامة إلى حذفها مطلقاً وصلاً ووقفاً في كل اسم مفرد مؤنث. وقد شاع هذا الطور الأخير في معظم اللغات كالعبرية وفي اللهجات العربية الحديثة؛ فحين نسمع كلمة مثل (شجرة) في لهجات الكلام الآن يخيل إلينا أن التاء المربوطة قد قلبت (هاء) والحقيقة أنها حذفت من النطق وامتد النفس مع صوت اللين قبلها – وهو الفتحة – فتسمع كالهاء.

واعتبر الصوتيون القبائل التي يروى عنها أنها تقف على هذه التاء المربوطة بالتاء مثل أولئك الذين سمع عنهم من قال: (يا أهل سورت البقرة) فأجابه آخر (ما أحفظ منها آيات) فليس إلا احتفاظاً بالأصل في ظاهرة التأنيث.

ولئن كان عامة العرب يحتفظون بتلك التاء في جمع المؤنث وصلاً ووقفاً؛ فإن قبيلة طيء تؤثر الوقف عليها وقد سمع بعضهم يقول (دفن البناه من المكرماه) – أي البنات والمكرمات.

ومضياً مع نظرة الصوتيين إلى تلك الظاهرة فإنهم يعتبرون التاء آخر الجمع قد حذفت، ويعتبرون – ما ظنه القدماء (هاء) متطرفة هو في الواقع امتداد التنفس حين الوقف على صوت اللين الطويل – أو كما يسمى عند القدماء ألف المد.

وربما دعاهم إلى تحليل هذه الظاهرة على هذا النحو ما اشترطوه في صور الإبدال من علاقة صوتية بين المبدل والمبدل منه، وأن تلك العلاقة الصوتية مفقودة بين التاء مما ينفي حدوث التبادل بينهما.

وعلى أساس هذه النظرة فإن الهاء الموقوف عليها ليست (فونيما) من

((345))

---

[1] – راجع: الإيضاح في الوقف لابن الأنباري 282/1.

فونيمات اللغة، لا عوضاً عن التاء ولا بدلاً منها وإنما هي امتداد التنفس مع الصوائت (الحركات) قصيرة كانت أم طويلة[1].

ولكن هذه النظرة لم تحظ بتأييد كل الصوتيين، فذهب بعضهم إلى أن هذه الهاء المنطوقة عند الوقف هي (هاء) على التحقيق اجتلبها الناطق بعد حذف التاء لإقفال المقطع المنتهي بحركة قصيرة أو طويلة، وإنها لأشبه بما اصطلح عليه النحاة (بهاء السكت) التي تلحق أواخر الكلم عند الوقف لبيان حركة ما قبلها بشرط أن تكون جزءاً من بنية الكلمة.

ولما كانت لغات العرب تجيز كلاً من الوقف بالهاء وبالتاء رأينا رسم المصحف قد اتسع لكلا المذهبين، فرسم بعضها بالهاء، وبعضها بالتاء؛ وعلله ابن الأنباري بان ما كتب في المصحف بالهاء فقد بني الخط فيه على الوقف، وما كتب في المصحف بالتاء فقد بني الخط فيه على الوصل.

واختلف القراء في الأخذ بالمرسوم؛ فذهب كثير منهم إلى أنه لا خيار مع الرسم فما جاء مرسوماً بالهاء يوقف عليه الهاء، وما جاء مرسوماً بالتاء يوقف عليه بالتاء ولا يتعدى. على حين ذهب آخرون إلى الخيار المطلق فمن شاء وقف بالهاء في الجميع، ومنم شاء وقف بالتاء في الجميع كذلك.

ولم يستحسن ابن الأنباري هذا الخيار المطلق؛ لأنه لو جاز خلاف المصحف في الوقف، جاز خلافه في الوصل، فلما أجمع القراء على ترك كل قراءة تخالف المصحف كان كل من تعمد خلاف المصحف في وصل أو وقف مخطئاً [2].

وعلى الرغم من تخطئة ابن الأنباري على الوقف على خلاف المرسوم؛ فإن الرواية قد صحت عن ابن كثير وأبي عمرو بن العلاء والكسائي، ويعقوب، ووافقهم اليزيدي، وابن محيصن، والحسن أنهم كانوا يقفون بالهاء على تاء التأنيث المرسومة بالتاء، وهي لغة قريش. وقد حصرت كتب القراءات هذه الكلمات في ثلاث عشرة كلمة – مكررة في مواضع عدة – وهي [رحمت، نعمت، سنت، امرأت، بقيتّ، قرت، فطرت الله، شجرة الزقوم، لعنت، جنت نعيم، ابنت عمران، معصيت، كلمت ربك الحسنى].

وقف الباقون من السبعة بالتاء موافقة لصريح الرسم وهي لغة طيء. وقد نبه القراء على أن ما عدا هذه الكلمات مما رسم بالهاء فلا خلاف فيها، بل هي تاء في الوصل، هاء في الوقف [3].

السكون وهاء السكت:

---

[1] – راجع في اللهجات العربية د. إبراهيم أنيس /136.

[2] – الإيضاح لابن الأنباري 282/1.

[3] – الإتحاف/103.

ومن التغيرات الصوتية عند الوقف بالسكون إلحاق (هاء) تسمى هاء الاستراحة، كما تسمى هاء السكت، كما تسمى هاء الوقف وهي تلحق كل متحرك الآخر بحركة غير إعرابية لأجل الوقف وتسقط لفظاً في

((347))

الدرج. وقد تتأكد زيادتها على سبيل الوجوب مع الأفعال التي لا تبقي التغيرات التصريفية من حروفها إلا حرفاً واحداً؛ كالأمر من اللفيف المفروق ومضارعه المجزوم مثل: قه نفسك، فه نفسك، في بو عدك، لم يقه، لم يفه، وكذلك المضارع المجزوم، والأمر من الفعل (رأى) تقول: لم يره، ره، وتلحق عند بعض النحاة على سبيل الوجوب أيضاً (ما) الاستفهامية تقول عند الوقف (مه؟)، وما عدا ذلك فقد يكون إلحاقها على سبيل الجواز مع استحسانه في البعض دون البعض، ومن ذلك: أمر الفعل الناقص ومضارعه المجزوم تقول في الأمر من (سعى): سعه، ومجزومه: لم يسعه، واستحسنها ابن يعيش معه. وتلحق كذلك الضمائر مثل: (وما أدراك ما هيه) وياء المتكلم مثل (ماليه، وسلطانيه) وتزاد مع الاستغاثة والندبة مثل: يا رباه، واعمراه، ومع أدوات الاستفهام مثل: كيفه، وله؟، ومع نون الجميع في نحو: مسلمونه [1].

وغاية هذا الإلحاق عند الصوتيين هو إقفال المقطع المفتوح بصوت لا وظيفة له سوى الإقفال حيث لا يستساغ في العربية الوقف على مقطع مفتوح. وقد تتأكد هذه – الخاصة كما سنرى – عند الوقف على الحركة الطويلة لدى بعض القبائل.

هذا حديث النحاة عن هاء السكت. أما أداء القراء فإن البزي، ويعقوب كانا يقفان بهاء السكت في الكلمات الخمس الاستفهامية المجرورة وهي: (عم، وفيم، وبم، ولم، ومم) عوضاً عن الألف

((348))

المحذوفة لأجل دخول حرف الجر على (ما) الاستفهامية. وبغير الهاء قرأ غيرهما.

كما وقف يعقوب باتفاق الروايات عنه (بالهاء) أيضاً على (هو، وهي) حيث وقعا، واختلف عنه في إلحاقها للنون المشددة في ضمير جمع المؤنث نحو (فيهم، وعليهم، وحملهن، وهنّ، ولهنّ) ونبه القراء بضمير الجمع ليخرجوا مثل قوله تعالى: (ولا يحزنّ) فإن النون وإن كانت مشددة إلا أنها ليست للنسوة، بل نون النسوة هنا المخففة المدغمة في النون (لام الفعل) من (حزن).

---

[1] – الإيضاح العضدي/242.

وقد أطلق بعض القراء ضمير المؤنث، ولكن ابن الجرزي يرى الصواب تقييده بما كان بعد (هاء) على نحو ما مثلوا به وليس منهم أحد مثل بغير ذلك.

واختلفت الرواية أيضاً عن يعقوب في إلحاق (الهاء) المشدد المبني مثل (علّي، إليّ، بمصرخيّ، بيديّ) لكن الأكثر عنه على ترك الهاء فيه، وقال ابن الجرزي: وكلا الوجهين ثابت عنه. والظاهر أن ذلك مقيد بما كان بالياء على ما سبق من الأمثلة.

كذلك قرأ يعقوب بإلحاق الهاء أيضاً في الوقف على النون المفتوحة في نحو (العالمين، والمفلحون، والذين) فيما رواه ابن سوار وغيره. ومقتضى تمثيل ابن سوار بقوله (ينفقون) شموله للأفعال؛ والصواب كما قال ابن الجرزي بالأسماء عند من أجازه. والجمهور على عدم إلحاق الهاء في هذا النوع، وعليه العمل.

واختلف عن رويس في أربع كلمات (يا ويلتي، يا حسرتي، يا أسفي، وثمّ – الظرف المفتوح الثاء) ؛ فقد جاءت الرواية عنه بالهاء، وبغير هاء، قال ابن الجرزي:

والوجهان صحيحان عنه:

واتفق القراء على الوقف بهاء السكت في سبع كلمات للرسم، ولكنهم اختلفوا في إثبات تلك الهاء وصلاً، وهي (يتسنه، واقتده، كتابيه، حسابيه، ماليه، سلطانيه، ما هيه)، والرواية عن ابن محيصن بالحذف وصلاً في الجميع، وعن يعقوب كذلك باستثناء (اقتده) [1].

ثالثاً: الوقف بحركة طويلة:

وهو الوجه الثالث من أوجه الوقف في اللغة الفصحى وهو يلي في كثرة شيوعه؛ السكون وتتمثل ظاهرة الوقف بحركة طويلة في عدة مواقع منها، في الأسماء:

1 – المنون المنصوب: مثل: رأيت زيداً وخالداً. فالوقف عليه بفتحة طويلة، تقول: رأيت زيداً، وقد فسر النحاة هذه الظاهرة بأنها إبدال التنوين ألفاً، وهو إبدال متهوم إذ لا علاقة بين التنوين (وهو نون ساكنة) وبين الألف (وهي حركة طويلة) توجب التبادل بينهما.

ولعل الألف المزيدة رسماً في المنون، دون أخويه

[1] – النشر 134/2، 135، والإتحاف/104.

المنون المرفوع، والمنون المجرور كانت إشارة للوقف عليه بالألف، وهذه لغة أهل الحجاز، وعليها عامة القراء.

وقد خالف عن هذه اللغة بعض القبائل؛ فربيعة تقف على المنون المنصوب بالسكون كأخويه تقول:

رأيت زيد، وجاء زيدْ، ومررت بزيدْ، وربما كانت ربيعة أكثر التماساً لأسباب الخفة في الوقف فعدلت عن الحركة في المنون المنصوب إلى السكون، وأنشدوا للأعشى ميمون الذي ينتهي نسبه على ربيعه قوله:

إلى المـــــرء قـــــيس أطيــــــل الســـــرى وآخـــــذ مــــن كـــــل حـــــيّ عُصُـــــمْ

وقد أغرت هذه الخفة البادية في لهجة ربيعة وشيوعها أبا نواس فقال:

يبتـــــني في الصــــحن مــــن مجلســـــهم للمصـــــلين مــــن الشـــــمس ســـــتر [1]

وفي الهمع لبشر بن أبي خازم الأسدي:

ألا حبــــذا غــــــنم وحســــــن حـــــديثها لقــد تركــت قلــبي بهــا هائمــاً دنــفْ [2]

وقد حمل النحاة ما جاء من هذا على الضرورة، بل نعتوا هذه اللهجة بأنها رديئة [3].

((351))

وإذا كانت لهجة ربيعة قد وحدت بين المنصوب والمرفوع والمجرور منوناً في الوقف بالسكون؛ فإن قبيلة الأزد – إحدى القبائل اليمنية – قد وحدت بين الثلاثة في الوقف بحركة طويلة من جنس حركة آخر الكلمة فيقولون: جاء زيدو، رأيت زيدا، مررت بزيدي. وقد أشار إلى هذه اللغة ابن الأنباري ضمن وجوه الوقف على الأسماء، وإن كان لم يرو عن أحد من القراء الوقف به[4].

وقد وصف ابن الشجري لهجة الأزد هذه بأنها رديئة؛ ربما لأنها جرت على غير سنن الفصحى[5].
الفصحى[5].

1 – البيان والتبيين للجاحظ 228/2.
2 – الهمع 205/2.
3 – شرح السيرافي 484/5.
4 – في اللهجات: أنيس /147، الإيضاح 390/1.
5 – أمالي ابن الشجري 380/1.

2 - المقصور: وهو إما أن يكون مرفوعاً أو مجروراً أو منصوباً مثل: هذه عصا، نظرت إلى عصا، رأيت عصا الوقف عليه بحركة طويلة، غبر عنها النحاة بالألف.

واختلفوا في تفسير هذه الألف، فقال بعض النحاة تكون بدلاً من التنوين في حالة النصب، وفي الجر والرفع هي التي تكون حرف الإعراب. وقال أبو عثمان المازني: هي في الأحوال الثلاثة بدل من التنوين. وهو على أية حال تفسير رفضه الصوتيون لفقدان العلاقة بين التنوين والألف.

والظاهرة من الناحية الصوتية حركة طويلة – وهي وجه من وجوه الوقف، وقف بها الناطق لتعذر الوجهين الآخرين: (الروم، والسكون).

وقد يكون المقصور غير منون مثل: العصا، الفتى، أعمى، حبلى، أفعى، والوقف عليه – في الفصحى – بالحركة الطويلة، كحال وصلة، والنحاة في مثل هذا مجمعون على أن الألف في الوقف هي التي كانت في الوصل؛ لأن التنوين لا يلحق هذا فيبدل منه.

غير أن بعض العرب يميلون عند الوقف بهذه الحركة الطويلة إلى إغلاق المقطع المفتوح بالسكون على أحد حرفي اللين (الياء أو الواو) أو بالهمزة، وتعزو كتب اللغة هذا الوجه من وجوه الوقف إلى طيء حيث جاء في (الهمع) للسيوطي أن طيئاً كانت تنطق مثل هذا بالهمز، أو بالياء، أو الواو فيقولون: أفعأ، وأفعيْ، وأفَعوْ، وعصأ، وعصيْ، وعصوْ، ويفسر النحاة هذه الظاهرة بأن طيئاً كانت تقلب الألف إلى همزة، أو ياء، أو واو. ولا سبيل عند الصوتيين إلى هذا القلب أو الإبدال لفقدان العلاقة بين الألف (الفتحة الطويلة) وهذه الأجناس الثلاثة.

وإنما يرى الصوتيون أن السبب في ظهور الهمزة مجرد الرغبة في إغلاق المقطع المفتوح عند الوقف هرباً من الوقف بحركة طويلة، ويكاد يكون ذلك مطرداً عند طيء عند الوقف على الفتحة الطويلة فيقولون: هذه حبلأ، ورأيت رجلأ هو يضربأ. وقد ذكر (اللسان) أن من أنواع الهمز (همزة الوقفة) في آخر الفعل لغة لبعض العرب نحو قولهم للمرأة: قولئ، وللرجلين: قولأ، وللجميع: قولؤ، وإذا وصلوا لم يهمزوا، ويهمزون إذا وقفوا

عليها. وهذه الهمزة أشبه (بهاء السكت) التي سبق الحديث عنها وهي صوت لا ووظيفة له سوى إقفال المقطع[1].

[1] – اللسان 17/1، والخصائص لا بن جني 17/2، وسر الصناعة لابن جني 84/1.

أما السبب في ظهور الواو أو الياء فكلاهما من أنواع المزدوج الناشيء عن الانزلاق بين حركتين: الفتحة إحداهما حين التقت مع الضمة علامة الرفع في مثل: (هذه أفعَوْ) أو حين التقت مع الكسرة في مثل (نظرت إلى أفعَيْ) وقد أتاح لهم ظهور المزدوج إمكانية الوقف عليه بالسكون؛ وقد علل النحاة قلب الألف إلى همزة أو ياء أو واو بأن الألف حرف خفي، ويزداد خفاء عند الوقف عليها حتى يظنها السامع فيبدلونها حرفاً أظهر منها [1].

وسواء أكانت الفتحة حركة خفية أو غير خفية؛ فإن مرجع العدول عنها إلى غيرها من وجوه الوقف إنما هو الرغبة في إغلاق المقطع المفتوح لكراهة بعض الرعب الوقوف عليه كذلك.

هذا. وقد رأينا ظاهرة الإغلاق قد تمثلت في اجتلاب همزة أو ياء، أو واوا وثلاثتها معزوة إلى طيء؛ ولا يعقل أن تكون هذه الأنماط الثلاثة المتباينة تجري على الكلمة – وهي في حالة واحدة – وإنما المعقول أن يكون المزدوج الواوي مع المرفوع فيقولون: هذه أفعَوْ، وقد تسبب التقاء الفتحة والضمة في ظهوره، والمزدوج اليائي مع المجرور فيقولون: إلى أفعَيْ، وقد تسبب التقاء الفتحة

((354))

والكسرة في ظهوره. والهمزة مع المنصوب فيقولون: رأيت أفعأ، حيث يتعذر اجتلاب المزدوج.

وهذا التوزيع أحرى بالقبول لارتباط الظاهرة الصوتية فيه بأسبابها وهو منهج الصوتيين في تفسير الظواهر اللغوية على حين يجمع النحاة الصور المتباينة للظاهرة دون توضيح أو بيان.

وقد يعزز ما ذهبنا إليه من توزيع هذه الأنماط على أحوال الإعراب للكلمة ما رأيناه من إشارة النحاة إلى أن الألف – (الفتحة الطويلة) – إذا كانت في اسم غير متمكن، وهو المبني على الفتح مثل: هؤلاء، وضعه ها هنا، فالوقف عليه كالوقف على المتمكن بالألف. ومن العرب من يلحق الألف هاء فيقولون: هؤلاه، وضعه هاهناه، ولا يلحقون هذه الهاء آخر الاسم المتمكن (المعرب) لئلا يلتبس بالإضافة حين تقول: عصاه، أو جبلاه [2]؛ فهم لا يجرون المبني على ما جرى عليه المعرب من قلب الألف واو، أو ياء.

كما لا ينقض ما ذهبنا إليه في هذا التوزيع، ما وقفنا عليه في (المحتسب) لابن جني مما أنشده مُحَمَّد بن حبيب:

إن لطـيء نسـوة تحـت الغضـيْ　　　يمـــنعهن الله ممـــن طغـــيْ

---

[1] - الشافية 286/2.

[2] - الإيضاح العضدي/26.

فقد وقف على (طغيْ) بالياء، ولا سبيل إلى الياء في الوقف

((355))

عليها، إذ لا سبيل إلى الكسرة في آخرها، فمحمل هذا على ضرورة القافية أمر مقبول، ويبقى ما ذهبنا إليه صحيحاً في كلمتي (الغضيْ، والقنيْ) لأنهما مجرورتان.

هذا. وقد ترك اختلاف النحاة في الألف الموقوف عليها – ظلاله على القراء؛ فنرى ابن الأنباري يذهب في مثل قولك: نسأل الله هدى، وفي قوله تعالى: (سمعنا فتى) 21/60 إلى أن الوقف على الألف المبدلة من لام الفعل، والألف المبدلة من التنوين أسقطت اعتماداً على أن الألف الأولى تكفي عنها؛ وذلك لأن الألف تقرب من الهمزة في المخرج – على حد تعبيرهم – فلما اكتفوا بالهمزة الأولى عن الثانية في مثل: آدم، وآخر، وشاء أنشره على قراء ة من يسقط إحدى الهمزتين – اعتمد على الألف الأولى وجعلت كالكافية من الثانية.

والأصل في الاسم: سمعنا فتيا؛ فصارت ألفاً لتحركها وانفتاح ما قبلها، وسقطت الألف الأولى لسكونها وسكون التنوين، فلما وقف على الاسم زال التنوين فرجعت الألف الأصلية المبدلة من الياء، وسقطت المبدلة من التنوين. وهذا قول الكوفيين، وإليه ذهب جماعة من البصريين.

وقال بعضهم: الوقف في النصب على الألف المبدلة من التنوين، والألف الأصلية هي المحذوفة، واحتجوا بأن الساكنين إذا اجتمعا سقط الأول منهما.

ورده ابن الأنباري بأن العرب تقول في الوقف: رأيت فتى،

((356))

فتميل الألف إلى الياء، وألف النصب لا تمال فلا يقال: رأيت عَمْري في رأيت عمراً.

وقال أبو عمرو بن العلاء: همزة (أنشره) تكفي من همزة (شاء) وخالفه من قاس هذا على آدم، فجعل الهمزة الأولى تكفي من الثانية [1].

والعجيب في أمر هذا الخلاف أنه لا ثمرة له في الأداء الصوتي للوقف على الكلمة سواء اعتبرت الألف هي لام الكلمة، أم بدلاً من التنوين. فضلاً عن أن هذا الخلاف ناشيء عن تصور خاطيء إذ يقوم على افتراض إبدال الألف من التنوين، وهو تصور رفضه الصوتيون –كما قدمنا –كما يفترضون

---

[1] – الإيضاح لابن الأنباري 417/1.

التقاء ساكنين هما الألف والتنوين وسقوط الألف تخلصاً من التقاء الساكنين، وهو مرفوض أيضاً إذ الألف رمز حركة طويلة فهي حركة وليست صوتاً ساكناً.

وكلمة (فتى) في منهج الدراسات الصوتية من الكلمات الثلاثية الأصل، الثنائية المنطوق، فهي في حال التعريف: Al-Fata/i-a
Y

ومقطع الكلمة الأخير على هذا النحو مؤلف من حركات فقط، وهو مقطع غير مألوف في العربية، ووقع فيه المزدوج اليائي وهو يمثل لام الكلمة بين حركتين قصيرتين متماثلتين؛ الأمر الذي

((357))

لا يعين على بقائه، لذلك أسقطت اللغة العنصر الأصلي في الازدواج وهو الكسرة (أ) وهو الذي ينشأ عنه الانزلاق – أي لام الكلمة – فاتصلت الحركتان المتماثلتان قبله وبعده لتصبحا فتحة طويلة، فصارت الكلمة: Al-Fataa

بوزن (فعا) ثلاثية الأصل، ثنائية المنطوق

وفي حالة التنكير قصرت الفتحة الطويلة، وأغلق المقطع بنون ساكنة فصارت الكلمة: Fatan

وفي حالة الوقف عليه سقط التنوين، ورجعت الحركة الطويلة إلى أصلها فصارت الكلمة: Fataa

ومن أمال الحركة الطويلة – وهي الفتحة – إلى الكسرة الطويلة فقد راعى الإشارة إلى المزدوج اليائي الممثل للام الكلمة، ولا وجه لقياس كلمة (فتى) على كلمة (عمراً) إذ الألف في (عمراً) رسمت رمزاً للتنوين فقط، وليست أصلاً من أصول الكلمة.

ولم يرد عن القراء خلاف في الوقف على المقصور – بحركة طويلة هي الألف منوناً أو غير منون.

وقد جاءت الرواية عن رويس بأنه وقف على المقصور في قوله تعالى: (يا ويلتي، يا حسرتي، يا أسفي) بوجهين بالحركة الطويلة، أو بإلحاق الحركة الطويلة هاء السكت[1].

((358))

كما جاءت الرواية عن بعض القراء بإمالة ألف المقصور للدلالة على أصلها كقوله تعالى: (الهدى، القرى، فتى) أو زائدة رابعة فأكثر كما في قوله تعالى: (موسى، مجرى، منتهى، الأعلى، الرجعي، كسالى، يتامى) [2].

---

[1] – الإتحاف /104.

[2] – الكشف 177/1.

وأشهر من عرف بالإمالة من القراء، حمزة، والكسائي، وهما يمثلان قراء الكوفة؛ تلك البيئة التي تأثرت بمن نزح إليها من قبائل وسط الجزيرة وشرقيها، وأشهرها: تميم، وأسد، وطيء، وبكر بن وائل ، وعبد القيس، وتغلب، ولسان هذه القبائل الإمالة. وعن هذه القبائل أخذ حمزة والكسائي. وقد سئل الكسائي عن إمالته حركة ما قبل هاء التأنيث، فقال: هذا طباع العربية. وقد عقب الداني على هذا القول فقال: إن الكسائي أراد أن الإمالة لغة أهل الكوفة وهي باقية فيهم إلى الآن وهم بقية أبناء العرب.

ويقابل الإمالة الفتح الخالص وهو لسان القبائل العربية في غربي الجزيرة، وأشهرها قبائل الحجاز كقريش، والأنصار، وثقيف، وهوازان، وسعد بن بكر، وكنانة.

والفتح والإمالة صوتان من أصوات اللين سواء أكانا قصيرين أم طويلين، غير أن اللسان مع الفتح يكاد يكون مستوياً في قاع الفم، فإذا أخذ في الصعود نحو الحنك الأعلى بدأ حينئذ ذلك الوضع الذي يسمى بالإمالة، فإذا استمر اللسان في صعوده نحو الحنك

للأعلى حتى يصل إلى أقصى ما يستطيع نشأ صوت اللين المعروف بالكسرة قصيرة أو طويلة.

فهناك إذن بين الفتح والكسر مراحل لا مرحلة واحدة، من أجل ذلك قسم القدماء الإمالة إلى نوعين: خفيفة، وشديدة.

هذا. مع ملاحظة أن الفتح والإمالة لهجتان، ولكل لهجة قبائلها كما قدمنا، ولا تستطيع قبائل الإمالة أن تفتح، ولا قبائل الفتح أن تميل.

أما أمر الجواز فيهما إنما يرجع إلى اختيار القارئ الآن، فله أن يفتح أو يميل وهو يستطيعهما بالتعلم والمران [1].

3 - المنقوص: وهو إما أن يكون مرفوعاً، أو مجروراً، أو منصوباً؛ منوناً، أو غير منون مثل: هذا قاضٍ، وذاك غازٍ، ومررت بعمٍ، وشجٍ؛ فالوقف على هذا في الرفع والجر بالسكون تقول: جاء قاض، وهذا غازْ، ومررت بعمْ؛ وهو منهج الفصحى.

وهناك قوم من العرب إذا وقفوا على هذا قالوا: هذا قاضي، وذاك غازي- بحركة طويلة، والنحاة يرون الأول أكثر وأقيس.

أما غير المنون نحو: هذا القاضي، وأهبت بالداعي فالوقف عليه بالياء أي بالحركة الطويلة.

---

[1] - اللهجات العربية: د. أنيس/ 60-70.

ومن العرب من يحذف الياء ويقف بالسكون فيقولون: هذا القاضْ، وأهبت بالداعْ. والأول عند النحاة أكثر وأقيس.

((360))

أما المنصوب المعرف مثل: رأيت القاضي، وأجبت الداعي، فالوقف عليه بالكسرة الطويلة، وقد سبقت إشارتنا إلى كيفية ذلك.

والنكرة حال النصب مثل: رأيت قاضياً، وأجبت داعياً فالوقف عليه بالألف – أي الفتحة الطويلة – شأنه في ذلك شأن الصحيح.

وحمل النحاة المنادي منه مثل: يا قاضي، ويا غازي، على المعرف من إثبات الياء – الكسرة الطويلة – لأنه موضع لا يلحق فيه التنوين، فصار بمنزلة ما دخله الألف واللام.

ومن العرب من يحذف فيقول: يا قاضْ، وقفاً بالسكون.

هذه قواعد النحاة، أما أداء القراء فقد جعلوا الياءات أواخر الكلم من قبيل واحد سواء أكانت هذه الياء لام المنقوص، أو ياء المتكلم، أو باء الفعل المعتل.

فمن ياءات المنقوص المحذوفة رسماً قوله تعالى: (ظن أنه ناج) 12/42، (الزانية لا ينكحها إلا زان) 24/3، (إن ما توعدون لآت) 6/134، (وما عند الله باق) 16/96 (فمنهم مهتد) 57/26 (ومن فوقهم غواش) 4/41، (فاقض ما أنت قاض) 20/72، (فمن اضطر غير باغ) 2/173 (فما له من هاد) 13/23، (يوم يدع الداع) 54/6 (وله الجوار ..) 55/24، (يوم يناد المناد) 50/41 (أجيب دعوة الداع) 2/186، (مهطعين إلى الداع) 54/8.

((361))

ومن ياءات المتكلم في الأسماء المحذوفة رسماً: (يا عباد فاتقون) 39/16، (فكيف كان عقاب) 13/32، (وخاف وعيد) 14/4، وفي الأفعال المحذوفة رسماً قوله تعالى: (أن يهدين) 18/24، (لا إله إلا أنا فأعبدون) 21/25 (وأنا ربكم فاتقون) 23/52، (يطعمني ويسقين) 26/79.

ومن ياءات الفعل المعتل المحذوفة رمساً قوله تعالى: (وسوف يؤت..) 4/146، (علينا ننج..) 11/103، (يوم يأت ..) 11/105، (ما كنا نبغ...) 18/64، (فما تغن ..) 54/5، (والليل إذا يسر) 89/4.

وقد اختلف القراء في إثبات هذه الياءات، وحذفها، ويعني إثباتها الوقف عليها بحركة طويلة، ويعني حذفها الوقف عليها بالسكون.

وهذا الخلاف فيما عدا ياء المتكلم في المنادي فإن القراء مجمعون على حذفها في الوصل والوقف. وما عدا ذلك فلهم فيه أصول:

* فنافع، وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي، وأبو جعفر لا يثبتون الياء وقفاً، وهذا يعني أنهم يقفون عليها بالسكون مراعاة للرسم.

* أما ابن عامر، وعاصم وخلف فيحذفون الياء وصلاً ووقفاً؛

وهذا يعني أنهم يقفون عليها بالسكون أيضاً. والوقف بالسكون على هذا كله لهجة هذيل.

* أما ابن كثير، وهشام، ويعقوب فيثبتون الياء وصلاً، ووقفاً؛ وهذا يعني أنهم يقفون عليها بحركة طويلة. وهذا الوقف على لغة أهل الحجاز [1].

هذا مع ملاحظة أن ما رسم بالياء منها باتفاق في جميع المصاحف؛ فإن القراء جميعاً يثبتونها وصلاً ووقفاً، وهذا يعني الوقف عليها بحركة طويلة[2].

كما يلاحظ أيضاً أن الياءات المحذوفة رسماً من رءوس الآيات فجميع القراء على حذفها في الوصل والوقف، وهذا يعني الوقف عليها بالسكون؛ إلا عيسى بن عم ر فإنه كان يحذفها في الوقف، ويثبتها في الوصل. وذكر ابن الجرزي عن يعقوب أنه يثبتها وصلاً ووقفاً على أصله[3].

وبقي في ختام هذا المبحث أن نلخص أقوال النحاة في الفعل المعتل الآخر نحو (رمى يرمي، غزا يغزو، سعى يسعى) فالوقف عليه بإثبات هذه الحروف – أي الوقف بحركة طويلة.

وما جاء منه في القرآن محذوف الآخر رسماً كقوله تعالى: (ويدع الإنسان)، (ويمح الله الباطل)، (سندع الزبانية) فقد وقف يعقوب بالواو – أي بحركة طويلة، ووقف عليها الآخرون بالحذف – أي بالسكون إتباعاً للرسم.

وإذا حذفت أواخرها للجزم، أو البناء للأمر فالوقف على وجهين: بالسكون على ما قبل آخره رسماً مثل: اغزْ، لم يغزْ، ارمْ، لم يرمْ، اسعْ، لم يسعْ.

ومن العرب من يلحقه هاء السكت كما تقدم فيقول: اغزه، لم يغزه، وقد يجب الإلحاق في مثل: قه وعه مما بقي على حرف واحد.

---

[1] – النشر 182/2، والإتحاف/113.

[2] – الإتحاف /117.

[3] – الإيضاح لابن الأنباري 257/1، والنشر 190/2.

ولم يرد منه في القرآن موقوفاً عليه بالهاء سوى قوله تعالى: (لم يتسنه)، (فبهداهم اقتده).

المراجع الأساسية

مرتبة حسب ورودها في البحث

1	النشر في القراءات العشر	لابن الجرزي
2	منار الهدى في الوقف والابتداء	للأشموني
3	الاتقان في علوم القرآن	للسيوطي
4	تفسير الكشاف	للزمخشري
5	تفسير زاد المسير	لابن الجوزي
6	إيضاح الوقف والابتداء	لأبي بكر بن الأنباري تحقيق د. محي الدين رمضان
7	شرح المفصل	لابن يعيش
8	علم اللغة	للدكتور كمال بشر
9	الكشف عن وجوه القراءات	لمكي بن أبي طالب تحقيق د. محي الدين رمضان
10	اتحاف فضلاء البشر	للبنا الدمياطي
11	ظاهرة الإعراب	للدكتور أحمد ياقوت
12	التكملة (الإيضاح العضدي)	لأبي علي الفارسي تحقيق د. حسن الشاذلي فرهود
13	اللهجات العربية في التراث	د. أحمد علم الدين الجندي
14	تفسير البحر المحيط	لأبي حيان
15	إملاء ما من به الرحمن	لأبي البقاء العكبري
16	الكتاب	لسيبويه
17	القراءات في ضوء علم اللغة الحديث	د. عبد الصبور شاهين
18	في اللهجات العربية	للدكتور إبراهيم أنيس
19	الخصائص	لابن جني
20	سر الإعراب	لابن جني

الدوحة في 1986/2/15

من الدراسات القرآنية

دور الوقف

في

خدمة النص القرآني

بقلم الدكتور

إسماعيل أحمد الطحان

رئيس قسم التفسير والحديث

كلية الشريعة – جامعة قطر

تمهيد

استأثرت ظاهرة الوقف باهتمام النحاة والقراء، وأولى كل فريق منهما ما يخصه من تلك الظاهرة فضل اهتمامه، فتحدث النحاة عنهما من حيث الوجوه الجائزة في الكلمة الموقوف عليها، وطرق أدائها. وشاركهم القراء في ذلك، وتفردوا بالحديث عن أقسام الوقف وأنواعه، ومواضعه في آي القرآن الكريم، وبيان مذاهب القراء فيه.

والوقف عند القراء فن جليل، به تتبين معاني الآيات، ويؤمن الاحتراز عن الوقوع في المشكلات.

وقد تضافرت لديهم البواعث على تعلمه، وتعليمه، فقد نقلوا عن عبد الله بن عمر – رض ي الله عنهما – أنهم – أي الصاحبة – رضوان الله عليهم – كانوا يعلمون ما ينبغي أن يوقف عنده كما يتعلمون القرآن، ورووا عن علي ﷺ أنه سئل عن الترتيل في قوله تعالى: (ورتل القرآن ترتيلا) 73/4، فقال: الترتيل: تجويد الحروف، ومعرفة الوقوف[1].

وقال السخاوي (ت 643 هـ): ينبغي للقارئ أن يتعلم وقف جبريل عليه السلام فإنه كان يقف في سورة (آل عمران) عند قوله تعالى: (قل صدق الله) ثم يبتدئ (فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين) 3/95، والنبي ﷺ يتبعه[2].

واشتدت عناية القراء ببيان وقف القرآن لتكون في خدمة النص القرآني تدفع التوهم المفسد للمعنى، وتفصل بين متباين المعاني، وقد تكثر منها بتغير مواقعه، كما قد تعين على توجيه القراءات المختلفة...

وهذا ما سوف تتكفل هذه الدراسة ببيانه، تحقيقاً، وتطبيقاً...

تعريف الوقف:

الوقف لغة: الكف عن الفعل والقول.

وفي اصطلاح القراء: قطع الصوت آخر الكلمة زمناً مّا يتنفس فيه عادة بنية استئناف القراءة.

---

[1] – النشر في القراءات العشر لابن الجزري 225/1.

[2] – انظر: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء: للأشموني/5.

وأما (السكت) فدون الوقف زمناً؛ ولا تنفس معه. ومن ثم قال الأئمة في نعته: سكتة يسيرة، أو وقفة يسيرة، أو وقفة خفيفة، أو وقيفة، أو سكتة لطيفة. وما ذاك منهم إلا تأكيد للتفرقة بين الوقف والسكت.

وتقييد (الوقف) بنية استئناف القراءة للتفرقة أيضاً بينه وبين مصطلح ثالث هو (القطع) ويعني (القطع) ويعني عندهم قطع القراءة رأساً – على معنى الانتهاء – والانتقال منها إلى حالة أخرى.

((369))

وليس براجح لدى كثير من أئمة القراء أن الثلاثة بمعنى واحد كما ذهب إليه بعضهم[1].

مذاهب القراء فيه:

ومن أئمة القراء من يستحب الوقف في أوسط الآي بمراعاة المعنى وقفاً وابتداء؛ كالإمام نافع (127 هـ) وابن عامر (ت 118 هـ)، أو حيث يتم الكلام كعاصم (ت 127هـ) والكسائي (ت 189هـ).

ومنهم من يستحب الوقف فقط على رؤوس الآي مطلقاً، كأبي عمرو بن العلاء (ت 154هـ).

واختلفت الرواية عن ابن كثير (ت 120 هـ) فهو يتعمده في أواسط الآي عند ثلاث، عند قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله) 3/8، (وما يشعركم) 6/109، (وإنما يعلمه بشر) 16/103، وفي سوى ذلك قيل: كان يراعي الوقف على رءوس الآيات، وقيل: كان يقف مع نفسه حيث ينقطع.

وأما حمزة (ت 156هـ) فالرواية عنه أنه كان يقف عند انقطاع النفس ولا يتعمد وقفاً معيناً[2].

واستحسن بعض المتأخرين من مذاهب هؤلاء القراء مذهب أبي عمر بن العلاء في الوقف على رءوس الآيات اتباعاً لهدي النبي ﷺ وسنته فقد روى أبو داود قال: حدثنا سعيد بن يحي الأموي، حدثني أبي،

((370))

---

[1] – راجع النشر 238/1 – ومنار الهدى/5.

[2] – راجع النشر 238/1، الإتقان للسيوطي 243/1.

حدثنا ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة عن أم سلمة رضي الله عنهما – أنها ذكرت – أو كلمة غيرها – قراءة رسول الله ﷺ (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) 1/3، (ملك يوم الدين) 1/4 يقطع قراءته آية، آية.

كما رواه أحمد والترمذي – واللفظ للترمذي: من حديث ابن جريج عن عبد الله بن أبي مليكة، عن أم سلمة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ يقطع قراءته يقول (الحمد لله رب العالمين) 1/2 ثم يقف، (الرحمن الرحيم) 1/3 ثم يقف. وكان يقرؤها (ملك يوم الدين) 1/4.

وقالوا: هذا أصل معتمد في الوقف على رءوس الآي، ولا يمنع منه تعلق ما قبل الوقف بما بعده في المعنى.

ورأى آخرون أن هذا الاستحسان ليس على إطلاقه؛ فإن ارتباط المعنى قد يكون أشد اقتضاء لوصل الكلام دون الوقف على رءوس الآيات كما في قوله تعالى: (فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون)[1] 4، 107/5.

ومن اشترط ابن الجزري (ت 833هـ) لهذا الوقف ارتضاء الابتداء بما بعده، وعدم الإخلال بالفهم والمعنى[2].

هذا فضلاً عن أن الحديث الذي أورده قال فيه المنذري: حديث

((371))

غريب، وليس بمتصل لأن الليث روى هذا الحديث عن ابن أبي مليكة عن يعلي بن مَمْلك عن أم سلمة قال.. ((ثم نعت قراءته فإذا هي تنعت قراءى مفسرة حرفاً حرفاً)). وحديث الليث أصح.

أضف إلى ذلك أن بعض العلماء قد حملوا (الوقف) الوارد في وصف قراءة ﷺ على أن المراد به (السكت) مستأنسين بما حكاه ابن سعدان عن أبي عمرو بن العلاء من أن السكت جائز في رءوس الآيات مطلقاً حالة الوصل لقصد البيان[3].

وأما ما ذهب إليه حمزة من أنه لا يعوّل على وقف إلا ما اضطر إليه عند انقطاع نفسه؛ فليس بشيء؛ إذ أن وصل الكلام على ما ذهب إليه قد يكون مدعاة إلى الإخلال بالفهم والمعنى، والعرب أحرص ما تكون عليهما في كلامها شعره ونثره، فمن ذلك ما يرويه أبو هلال (في الصناعتين) قال

---

[1] – ومثله مما اصطلح عليه في رسم المصحف بوضع علامة (لا) فوق رأس بعض الآيات.

[2] – راجع النشر 224/1، 225.

[3] – النشر 243/1، وانظر مختصر سنن الترمذي مجلد 12/6 ط دار المعرفة.

معاوية: يا أشدق قم عند قروم العرب وجحاجحها فسلّ لسانك، وجلّ في ميادين البلاغة، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بالٍ؛ فإني شهدت رسول الله ﷺ أملى عليّ بن أبي طالب ﷺ كتاباً وكان يتفقد مقاطع الكلام كتفقد المصرم صريمته.

ويروي أيضاً فيقول: قال الأحنف بن قيس: ما رأيت رجلاً تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص – ﷺ –كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام وأعطى حق المقام، وغاص في استخراج المعنى بألطف مخرج، حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً يحول بينه وبين تبعيته من الألفاظ [1].

((372))

فإذا كان هذا هو مبلغ حرص العرب على سلامة كلامها، فكتاب الله تعالى أحق أن يكون تاليه أحكم أداء، وأدق إفهاماً. وهذا ما نبه إليه أبو جعفر النحاس حيث قال: ينبغي لقارئ القرآن أن يتفهم ما يقرؤه، ويشغل قلبه بمعناه، ويتفقد قطعه وائتنافه[2].

ولا أحسب حمزة – وهو إمام أهل الكوفة في عصره – أن يتساهل في أداء القرآن الكريم تساهلاً يذهب بالمعنى ويخل بالفهم. وكيف تغيب عنه وقوف النبي ﷺ في قراءته، وهو القائل عن نفسه: ما قرأت حرفاً إلا بأثر.

وإنما المحتمل أن تكون قراءته – وقد كانت على التحقيق والمد الطويل – سبباً في ضيق نفسه، وحائلاً دون بلوغه بها الوقف المعتبر في الاختيار. فغلب عليه الاضطرار واشتهرت الرواية بذلك [3]. والوقف عند الاضطرار لا بأس به – أيًّا كان موضعه من القبح – ولكن على الواقف –كما قال الكواشي – أن يبتدئ من أول الكلام حتى ينتهي إلى وقف مرضي[4].

---

[1] – انظر كتاب (الصناعتين): لأبي هلال العسكري/438، 439.

[2] – أنظر (القطع والائتناف) لأبي جعفر النحاس، وراجع كتاب إيضاح الوقف والابتداء لأبي بكر بن الأنباري 25/1/ تحقيق د. محي الدين رمضان.

[3] – انظر النشر 238/1.

[4] – انظر منار الهدى/6.

أنواع الوقف:

ولما كان للوقف أهميته في دقة الإفهام، واستقامة المعنى؛ رأينا اهتمام القراء بتفقد مواضعه من آي القرآن الكريم تبعاً للمعنى، وتعيين أنواعه بحسب التعلق بين جزأي القول. وتفاوتت نظرتهم في ذلك دقة واستقصاء فبلغ به بعضهم ثمانية أنواع هي:

تام، وشبيه به/ناقص، وشبيه به/حسن، وشبيه به/قبيح، وشبيه به.

ومال بعضهم إلى اختصار هذه الأنواع في ثلاثة هي: التام، والحسن، والقبيح.

وكان ابن الجرزي أعدلهم عدًّا لأنواعه على أساس ما بين جزأي القول من تعلق، فنوعه أربعة أنواع هي:

التام، والحسن، والكافي، والقبيح.

وخلاصة ما انتهيت إليه دراستنا حول هذه الأنواع هي أن مواضع الوقف في آي القرآن ثلاثة:

الأول: موضع يوقف عليه ويقبح وصله؛ لإحالة المعنى أو فساده. وهذا منه (التام) الذي ليس بين جزأيه تعلق لفظي، ولا معنوي، كالوقف على:

* قوله تعالى: (ولا يحزنك قولهم/ إن العزة لله جميعاً) 10/65.

* وقوله تعالى: (أليس في جهنم مثوى للكافرين/ والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون) 39/32،33.

* وقوله تعالى: (وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم

((374))

أصحاب النار/ الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم..) 6، 40/7.

* وقوله تعالى: (إنما يستجيب الذين يسمعون/ والموتى يبعثهم الله) 6/36.

ومنه (الكافي) الذي بين جزأيه تعلق معنوي، لا لفظي، كالوقف على:

* قوله تعالى: (وما هم بمؤمنين/ يخادعون الله) 8، 2/9 ذلك أنه لو وصل توهم السامع أن اللجملة صفة لقوله تعالى: (بمؤمنين) وبذلك ينتفي الخداع عنهم، ويتقرر الإيمان لهم خالصاً عن الخداع، كما تقول: ما هو بمؤمن مخادع[1].

---

[1] - الإتقان 234/1.

* وقوله تعالى: (سبحان أن يكون له ولد/ له ما في السموات والأرض) 4/171. ذلك أنه لو وصل لأوهم أنه صفة (الولد) وأن المنفي ولد موصوف بأن له ما في السموات والأرض، والمراد نفي الولد مطلقاً[1].

* وقوله تعالى: (ليلة القدر خير من ألف شهر/ تتنزل الملائكة والروح فيها..) 3، 97/4. ذلك أنه لو وصل لأوهم أنه صفة (لألف شهر)[2]، وبذلك تكون خيرية ليلة القدر على الألف شهر مقيدة بهذا الوصف، وهو غير المراد.

((375))

* وقوله تعالى: (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة/ وما من إله إلا إله واحد)5/73. ذلك أنه لو وصل لأوهم أنه من مقولهم الذي كفروا به [3].

ومنه (الحسن) الذي بين جزأيه تعلق لفظي، ولا معنوي كالوقف على:

* قوله تعالى: (لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه/ وتسبحوه بكرة وأصيلا) 48/9. ذلك أنه لو وصل لأوهم عود الضمائر الثلاثة على شيء واحد، والمراد عود الضميرين الأولين على الرسول ﷺ، وعود الأخير على الله تعالى.

* وقوله تعالى: (واتل عليهم نبأ ابني آدام بالحق/ إذ قربا قربانا..) 5/27؛ ذلك أنه لو وصل لتوهم أن العامل في (إذ) الفعل المتقدم. ونحو ذلك أيضاً.

* قوله تعالى: (ألم تر إلى الملأ من بني إسرائيل من بعد موسى/ إذ قالوا لنبي لهم...) 2/246.

الثاني: موضع لا يوقف عليه لشدة تعلقه بعده لفظاً ومعنى، ولا يسوغ فصله لإحالة المعنى أو فساده، وذلك كالوقف على:

* قوله تعالى: (فويل للمصلين. الذين هم عن صلاتهم ساهون) 4، 107/5.

((376))

* وقوله تعالى: (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين. وبالليل أفلا تعقلون)) 137، 37/138.

* وقوله تعالى: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت..) 16/38.

---

[1] – المرجع السابق.

[2] – راجع النشر 233/1.

[3] – المرجع السابق.

* وقوله تعالى: (إن شجرة الزقوم. طعام الأثيم) 43، 44/44.

* وقوله تعالى: (قل إن الأولين والآخرين. لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم) 49، 56/50.

وقوله تعالى: (أيحسبون أنما نمدهم به من مال وبنين. نسارع لهم في الخيرات..) 55، 23/56.

وقد وضع كثير من القراء لهذا النوع ضابط يغني عن تتبع مواضعه في آي القرآن الكريم. ومن ذلك ما ذكره أبو بكر مُحَمَّد بن الأنباري (ت 328 هـ) في (إيضاحه) [1] من كراهة الوقف بين الفصائل النحوية المزدوجة فلا يصح عند الوقف على المضاف دون المضاف إليه، كقوله تعالى (صبغة/ الله) 2/138، ولا على المنعوت دون نعته، كقوله تعالى (إلى صراط العزيز الحميد/ الله) 1، 2،/14، ولا على المعطوف عليه دون المعطوف، كقوله تعالى (وسخر لكم الليل/ والنهار) 16/12، ولا على المبدل منه دون المبدل كقوله تعالى (أتدعون بعلا وتذرون أحسن الخالقين/ الله .) 125، 37/126، ولا على الشرط

دون جزائه كقوله تعالى (وإن يأت الأحزاب/ يودوا..) 33/20، ولا على القسم دون جوابه كقوله تعالى (والنجم إذا هوى/ ما ضل صاحبكم..) 1، 53/2، ولا على القول دون المقول كقوله تعالى (وقالت اليهود/ عزيز ابن الله) 9/30، ولا على المبتدأ دون خبره كقوله تعالى (وبالآخرة هم/ يوقنون) 2/4، ولا على الفعل دون فاعله كقوله تعالى (أعجب الكفار/ نباته) 57/20. وما إلى ذلك من الفضائل المزدوجة، كحال، والتمييز، والاستثناء، والموصول..

وعلى ذلك فلا يلتفت إلى ما قد يتعسفه المبتدعين في تأويل المعاني بما يقتضي وقفاً أو ابتداء، مخالفين ما أجمع عليه الثقات من اللقراء والمفسرين؛ كتعسف الوقف على (وارحمنا أنت) والابتداء (مولانا فانصرنا) 2/286 على معنى النداء، وكذلك الوقف (يا بني لا تشرك) والابتداء (بالله إن الشرك لظلم عظيم) 31/13 على معنى القسم، وأشد قبحاً من ذلك كله ما حكاه ابن الجرزي من قول بعضهم في (عينا فيها تسمى سلسبيلا) 76/18 أن الوقف على (تسمى) أي عينا مسماة ومعروفة، والابتداء (سل سبيلا) على الأمر أي سل طريقاً موصلة إليها، وبطلان ذلك غير خاف للإجماع على أنها كلمة واحدة [2].

---

[1] - الإيضاح لابن الأنباري 1/166-149.

[2] - أنظر النشر 1/231، 232.

الثالث: موضع يستوي فيه الوقف وعدمه؛ لاستقامة المعنى على أي منهما، وذلك كثير في آي القرآن ومن ذلك كثير في آي القرآن ومن ذلك قوله تعالى: (وما أنزل من قبلك/ وبالآخرة هم يوقنون) 2/4، فواو العطف تقتضي عدم الوقف، وتقديم المفعول على الفعل يقتضي؛ فإن التقدير يوقنون بالآخرة.

((378))

وقوله تعالى (ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم/ وعلى أبصارهم غشاوة) 2/7، فإن وقف فعلى الأخفش والفراء أن معنى الختم قد انقطع ثم استأنف فقال (وعلى أبصارهم غشاوة) لأن الختم لا يقع على العيون. وإن وصل فعلى قول غيرهما أن الواو للعطف على ما قبله أي ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم، وعلى أبصارهم بغشاوة؛ فلما حذف الجر وصل الفعل إليه فانتصب كقول الشاعر:

تمـــرُّون الـــدَّيار فلـــم تعوجـــوا كلامكمـــو علـــيّ إذًا حـــرام

أي تمرون بالديار [1]. وقوله تعالى (أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة/ فلا يخفف عنهم العذاب ..) 2/86 فالفاء تقتضي التسبب والجزاء؛ وذلك يسوغ الوصل، وكون نظم الفعل على الاستئناف، يسوغ الفصل [2].

وربما خفي على العامة من الناس إدراك مثل هذه الملاحظ، فلا بأس إذاً أن يقرءوا وصلاً أو وقفاً [3] ما تجنبوا الإخلال بالمعنى؛ وهو الأكثر مراعاة عند الأكثرين من قارئي القرآن الكريم؛ كما في قوله تعالى: (يا حسرة على العباد/ ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون)36/30. (يأيها الناس اتقوا ربكم/ إن زلزلة الساعة شيء عظيم) 22/1.

غير أنه – والحالة هذه – قد يعرض في الكلام مقطعان يتضادان وقفاً؛

((379))

بمعنى أنه لا يجوز الوقف عليهما معاً، فإن وقف على أحدهما امتنع الوقف على الآخر؛ رعاية للمعنى. وهو ما يعرف في اصطلاح القراء (بوقف المراقبة) وذلك كما في قوله تعالى: (ذلك الكتاب لا ريب/ فيه/ هدى للمتقين) 2/2 فمن وقف على (لا ريب) لا يجوز له أن يقف على (فيه)، ومن وقف على (فيه) لا يجوز له أن يقف على (لا ريب).

---

[1] – انظر منار الهدى /18.

[2] – انظر الإتقان 235/1.

[3] – مصطلحة في رسم المصحف (ج) رمز الجواز وصلاً أو وقفاً.

* وفي قوله تعالى: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة/ ومن الذين أشركوا/ يود أحدهم لو يعمر ألف سنة ..) 2/96.

* وفي قوله تعالى: (يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه، وليكتب بينكم كاتب بالعدل، ولا يأب كاتب أن يكتب/ كما علمه الله/ فليكتب...) 2/282.

* وفي قوله تعالى: (وما يعلم تأويله إلا الله/ والراسخون في العلم/ يقولون آمنا به..) 3/7.

* وفي قوله تعالى: (قال فإنها محرمة عليهم/ أربعين سنة/ يتيهون في الأرض) 5/26.

* وفي قوله تعالى: (يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم/ ومن الذين هادوا/ سماعون للكذب..) 5/41.

* وفي قوله تعالى: (وإذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم قالوا بلى/ شهدنا/ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) 172/ 7.

((380))

* وفي قوله تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون/ ومن أهل المدينة/ مردوا على النفاق لا تعلمهم، نحن نعلمهم..)9/101.

* وفي قوله تعالى: (قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطانا فلا يصلون إليكما/ بآياتنا/ أنتما ومن اتبعكما الغالبون) 28/35.

* وفي قوله تعالى: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء/ إن اتقيتن/ فلا تخضعن بالقول..) 33/32.

* وفي قوله تعالى: (فشدوا الوثاق، فإما مناً بعد وإمّا فداء حتى تضع الحرب أوزارها/ ذلك/ واو يشاء الله لانتصر منهم ..) 47/4.

في هذا كله نجد الكلم المحصور بين الوقفين لا يستقل بمعنى، ولا يستقيم إلا إذا اتصل بما قبله أو بما بعده على خيار من القارئ فيما يأخذ به من مذاهب القراء وأهل التأويل.

ولا يمنعنا هذا الخيار من أن نشير إلى ما استحسنه بعض أهل التأويل؛ من الوقفين:

* ففي قوله تعالى من سورة البقرة: (ذلك الكتاب لا ريب/ فيه/ هدى للمتقين) قال أحمد بن جعفر: إن الوقف على (لا ريب) خطأ؛ لأن الكتاب لا عائد له في صلته ومستحيل أن تخلو الصلة والصفة من عائد على الموصول والموصوف. واستدل لرأيه هذا بقوله تعالى: في سورة السجدة (تنزيل

الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين) من أن الوقف على (ريب) في هذه الآية ممنوع اتفاقاً، ومن ثم فلا يصح

((381))

في آية البقرة؛ لأن من شرط صحة الوقف، صحة الوقف على نظير ذلك الموضع.

ورد ابن الأنباري ذلك القول وعده من صاحبه تقحماً، وتعسفاً شديداً؛ لأن جماعة أهل النحو ترتضي مذاهبهم لم يذهبوا إلى أن (الكتاب) خلا من عائد حيث إنهم أضمروا خبر (لا النافية) لوضوح معناه، ولو ظهر في اللفظ لقيل (لا ريب فيه، فيه هدى للمتقين) والخبر المضمر يحمل العائد على الكتاب، ولا يستنكرون إضمار خبر (لا) في حال نصب الاسم ولا رفعه، بل هو وجه صحيح في العربية غير بعيد في القياس[1].

* وفي قوله تعالى من سورة البقرة: (ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا/ يود أحدهم..) مال ابن الأنباري والأشموني مع عامة المفسرين إلى الوقف على (أشركوا) على معنى أن اليهود أحرص الناس، وأحرص من الذين أشركوا – يعني المجوس – على حياة أي حياة، وخص المجوس بالذكر لأن تحيتهم لملوكهم (زه هزارسال)، أي عن ألف سنة.

ولم يذهب إلى الوقف على (حياة) سوى نافع وهو عنده وقف تام، وما بعده جملة مستأنفة من مبتدأ مقدر خبره (ومن الذين أشركوا) على معنى ومن الذين أشركوا – يعني المجوس – قوم يود أحدهم لو يعمر ألف سنة [2].

((382))

* وفي قوله تعالى من سورة البقرة: (ولا يأب كاتب أن يكتب/ كما علمه الله/ فليكتب..).اختار عامة المفسرين الوقف على (كما علمه الله) وقال الأشموني: ومن وقف على (أن يكتب) ثم يبتدئ (كما علمه الله فليكتب) فقد تعسف التأويل [3].

* وفي قوله تعالى من سورة آل عمران: (وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم/ يقولون آمنا به..) نقل الأشموني أن الوقف على (إلا الله) وقف السلف وهو أسلم، والوقف على (في العلم) وقف الخلف. ونقل رواية ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ وقف على (إلا الله) وتابعه عليه جمع من

---

[1] – انظر منار الهدى/17، وإيضاح الوقف 488/1.

[2] – الإيضاح 524/1، 525 – ومنار الهدى/26.

[3] – انظر منار الهدى/ 40.

الصحابة كابن مسعود، وأبيّ، ففي مصحف ابن مسعود: إن تأويله إلا عند الله، والراسخون في العلم يقولون آمنا به. وفي مصحف أبيّ: ويقول الراسخون في العلم آمنا به.

وقال ابن الأنباري: وهو قول أكثر أهل العلم.

وذهب مجاهد فيما يرويه عنه ابن جريج إلى أن (الراسخون) مرفوع بالعطف على لفظ الجلالة، وجملة (يقولون آمنا به) حال من الراسخين، كأنه قال: قائلين آمنا به [1].

وإلى هذا الرأي ذهب مفسروا الشيعة وقالوا: لو لم يكن الراسخون في العلم يعلمونه؛ لكان مستحيلاً منهم أن يقولوا (آمنا به)،

((383))

والإيمان معناه التصديق – وهم بزعم أهل الخلاف لم يعلموا فيصدقوا، فكيف يجوز تصديق المرء بما لم يعلم [2].

* وفي قوله تعالى من سورة المائدة: (فإنها محرمة عليهم/ أربعين سنة/ يتيهون في الأرض) قال النحاة: يجوز نصب (أربعين) بمحرمة فتكون ظرفاً للتحريم والوقف على (سنة) ويجوز نصبها بيتيهون فتكون ظرفاً للتيه، والتحريم مؤبد والوقف على (عليهم).

وعن يحي بن نصير النحوي أنه قال: إن كان اليهود قد دخلوا الأرض المقدسة بعد الأربعين فالوقف على (سنة) وإن لم يكونوا قد دخلوها بعد الأربعين فالوقف على (عليهم).

ونقل الأشموني رواية عن ابن عباس أن التحريم والتيه أربعين سنة [3].

* وفي قوله تعالى من سورة المائدة: (يأيها الرسول لا يحزنك الذين يسارعون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفواههم ولم تؤمن فلوبهم/ ومن الذين هادوا سماعون للكذب...) وقف أبو عمر بن العلاء على (قلوبهم) و (سماعون) مبتدأ وما قبله خبر، أي ومن الذين هادوا قوم سماعون للكذب، أي يسمعون ليكذبوا، والمسموع حق. ووقف غيره على (هادوا) و (سماعون) خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هم سماعون، راجعاً إلى الفئتين.

((384))

وقال الأشموني: والأول أجود؛ لأن التحريف محكي عنهم، وهو مختص باليهود لا بالمنافقين [1].

---

[1] – انظر منار الهدى/42، والإيضاح لابن الأنباري 566/2.

[2] – انظر ظاهرة الإعراب في القرآن: د. أحمد ياقوت/ 205 نقلاً عن مصدره.

[3] – منار الهدى /73، والإيضاح 616/2.

* وفي قوله تعالى من سورة الأعراف: (ألست بربكم قالوا بلى/ شهدنا/ أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين) اختلف أهل التأويل في قوله (شهدنا) أهي من كلام الملائكة على معنى أن الذرية قالوا بلى أنت ربنا، ثم قال الله للملائكة اشهدوا عليهم، فقالت الملائكة (شهدنا) وحينئذ تكون (بلى) آخر قصة الميثاق فاصلة بين السؤال والجواب، والوقف عليها تام. أم أن (شهدنا) من كلام الذرية على معنى أنهم قالوا بلى أنت ربنا شهدنا على أنفسنا وأقررنا بوحدانيتك؛ وحينئذ فلا وقف على (بلى) لتعلق ما بعدها بما قبلها لفظاً ومعنى، وإنما الوقف على (شهدنا)، وقوله (أن تقولوا) متعلق بمحذوف – أي فعلنا ذلك لئلا تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين.

واختار الوقف على (شهدنا) أبو حاتم السجستاني، ومشى عليه الزمخشري في (كشافه).

وغلط أبو بكر بن الأنباري أبا حاتم السجستاني في هذا، وقال لا يوقف على (بلى) ولا على (شهدنا) لتعلق (أن تقولوا) بقوله تعالى: (وأشهدهم على أنفسهم) فالكلام متصل بعضه ببعض، وتمامه على قوله تعالى: (ولعلهم يرجعون)[2].

((385))

* وفي قوله تعالى من سورة التوبة: (وممن حولكم من الأعراب منافقون/ ومن أهل المدينة/ مردوا على النفاق).

قال الزمخشري: (وممن حولكم) خبر مقدم (من الأعراب) لبيان الجنس، (منافقون) مبتدأ مؤخر وهم: جهينة، وأسلم، وأشجع وغفار؛ وكانوا نازلين حول المدينة. والوقف على (منافقون) كاف إن جعلنا (ومن أهل المدينة) خبراً مقدماً، والمبتدأ بعده محذوف قامت صفته مقامه، والتقدير: ومن أهل المدينة قوم مردوا على النفاق، وهو وصف خاص بمنافقي أهل المدينة. وليس بوقف إن جعلنا (مردوا) جملة في موضع النعت لقوله: (منافقون) أي وممن حولكم من الأعراب، ومن أهل المدينة عطفاً على خبر المبتدأ الذي هو ممن حولكم، منافقون (مردوا على النفاق) راجعاً إلى الفئتين[3].

* وفي قوله تعالى من سورة القصص: (قال سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكما سلطاناً فلا يصلون إليكما/ بآياتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون). نقل الزركشي عن الشيخ عز الدين قوله: الأحسن الوقف على (إليكما)؛ لأن إضافة الغلبة إلى الآيات أولى من إضافة عدم الوصول إليها، لأن المراد بالآيات العصا وصفاتها، وقد غلبوا بها السحرة ولم تمنع عنهم فرعون.

---

[1] – منار الهدى/74.

[2] – الإيضاح 669/2، منار الهدى/95، الكشاف 129/2.

[3] – انظر الكشاف 211/2.

وقال الأشموني: ولكن تعلق الآيات بيصلون هو المشهور قراءة، والأصح عربية؛ لأن تعلقها (بالغالبون) يجعلها داخلة في الصلة

((386))

وهذا غير سديد لأن النحاة يمنعون التفريق بين الصلة والموصول، لأن الصلة تمام الاسم.

وأجاز أبو حيان الوقف على (إليكما) والابتداء (بآياتنا) على أن (الباء) للقسم أي بحق آياتنا، والجواب محذوف تقديره (لتغلبن).

وعلقها آخرون بمحذوف تقديره: اذهبا بآيتنا أنتما ومن اتبعكما الغالبون[1].

* وفي قوله تعالى من سورة الأحزاب: (يا نساء النبي لستن كأحد من النساء/ إن اتقيتن/ فلا تخضعن بالقول..)

* قال أهل التأويل: يا نساء النبي أفضل وأشرف من غيركن فليست الواحدة منكن كالواحدة من آحاد النساء (إن اتقيتن). قال ابن عباس: فشرط عليهن التقوى لبيان أن فضلهن بالتقوى لا بنفس اتصالهن برسول الله ﷺ، وعليها الوقف، واختاره جمهور المفسرين[2].

* وفي قوله تعالى من سورة مُحَمَّد: (فشدوا الوثاق فإما منًّا بعد وإما فداء، حتى تضع الحرب أوزارها/ ذلك/ ولو يشاء الله لانتصر منهم ..) معظم أهل التأويل يختارون الوقف على (ذلك) لتعلقه بما قبله فهو بيان وإيضاح لمعنى قوله فإذا لقيتم الذين كفروا ووقع الإثخان وتمكنتم من أخذ من لم يقتل فشدوا وثاقه ولكم الخيار في أن تمنوا عليه بالإطلاق دون مقابل، أو أن تأخذوا منه فديه؛ (ذلك) أي

((387))

الأمر ذلك كما فعلنا وقلنا، فهو خبر لمبتدأ محذوف، أو مبتدأ محذوف الخبر – أي ذلك كذلك. ثم يبتدئ (ولو يشاء الله).

ولا يعدم بعض أهل التأويل تأويل المعنى على نحو آخر بالوقف على (أوزارها) والابتداء (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم) أي ذلك ما كلفكم الله به من جهاد الكفار – مع أنه قادر على الانتصار منهم وإهلاكهم بقدرته – ليخبر إيمانكم وثباتكم [3].

---

[1] – انظر البرهان للزركشي 346/1، ومنار الهدى /185.

[2] – انظر القرطبي 177/14، وزاد المسير لابن الجوزي 378/6.

[3] – انظر مختصر ابن كثير 330/3، ومنار الهدى/ 230.

دور الوقف في خدمة النص القرآني:

لا خلاف بين القراء وأهل التأويل على أن مراعاة وقوف القرآن من أعون الوسائل على تدبر آياته وفهم معانيه؛ ذلك أن للقراء أسلوباً فريداً في نظم آياته؛ فقد يورد آيات قصاراً منقطعات لفظاً، متصلات معنى، كما يورد آيات طوالاً منقطعات معنى، متصلات لفظاً، فمن قرأ على ظاهر النظم فربما تحول فواصل الآيات القصار، كما يحول تداخل المعاني في الآيات الطوال بينه وبين المعنى المراد من النص القرآني فيسيء فهمه؛ لذلك اشتدت عناية المتأخرين من القراء ببيان وقوف القرآن؛ لتكون في خدمة النص القرآني؛ تدفع التوهم المفسد للمعنى عن متداخل النظم، وتفصل بين متباين المعاني، وقد تكثّر منها بتغير مواقعه، كما قد تعين على توجيه القراءات المختلفة.

ولعل ما نعرضه من نماذج الآيات يؤكد هذه الحقيقة ويشهد بما للوقوف القرآنية من أهمية بالغة في تدبر آيات القرآن، وفهم معانيه.

أولاً: الوقف لدفع التوهم:

* في قوله تعالى: (وما هم بمؤمنين/ يخادعون الله) 8، 2/9 قد يوهم تداخل النظم أن جملة (يخادعون الله) داخله في حيز النفي؛ فينتفي الخداع عنهم، ويتقرر الإيمان لهم خالصاً عن الخداع، كما تقول: ما هو بمؤمن مخادع، والقصد في الآية إثبات الخداع بعد نفي الإيمان، لذلك الوقف على (بمؤمنين) [1].

* وفي قوله تعالى: (سبحانه أن يكون له ولدا/ له ما في السموات وما في الأرض) 4/171، قد يوهم تداخل النظم أن ما بعد (ولد) وصف له، فيكون المنفي ولداً موصوفاً بهذا، والمراد نفي الولد مطلقاً لذلك لزم الوقف على (ولد) [2].

* وفي قوله تعالى: (قال لا تثريب عليكم/ اليوم يغفر الله لكم) 12/52.

قال بعض المفسرين: إن تداخل النظم قد يوهم أن (اليوم) ظرف للتثريب، وليس كذلك، لأن تعلقه بالتثريب يجعل اسم (لا) عاملاً في الظرف فيكون حينئذ شبيهاً بالمضاف فيجب نصبه وتنوينه،

---

[1] – انظر الإتقان 234/1.

[2] – المرجع السابق.

والقراءة في (لا تثريب عليكم) بالبناء على الفتح؛ ل ذا وجب تعلق الظرف بالفعل (يغفر)، ولزم الوقف على (عليكم)[1].

ولكن هذا الرأي ليس براجح عند عامة المفسرين، فقد قال

((389))

أبو حيان: وأما أن يكون اليوم متعلقاً (بيغفر) فمقول، وقد وقف بعض القراء على (عليكم) وابتدأ (اليوم يغفر الله لكم)، ثم ذكر أن ابن عطية رجح الوقف على (اليوم) لأن الآخر فيه حكم على مغفرة الله.

* اللهم إلا أن يكون ذلك بوحي – .. ثم ذكر أبو حيان من أقوال النحاة ما يدفع به إشكال تعلق اليوم بالتثريب فقال: وأجاز الحوفي أن يكون (عليكم) في موضع صفة لتثريب ويكون الخبر (اليوم) وهو وجه حسن، ولو قيل إن الخبر محذوف تقديره: لا تثريب يثرب عليكم اليوم؛ لكان وجهاً قويًّا، لأن خبر (لا) إذا علم كثر حذفه عند الحجازيين، ولم يلفظ به بنو تميم [2].

* وفي قوله تعالى: (الآن خفف الله عنكم/ وعلم أن فيكم ضعفا) 8/66 قد يوهم تداخل النظم أن (الآن) ظرف للتخفيف والعلم، وبذلك فإن الله إنما يستفيد العلم بالشيء عند كونه وحدوثه، كما يستفيده الناس، وهو ما توهمه ابن الراوندي، وقد ردّ وهمه أبو الحسين الخياط فقال: إن (الآن) وقعت على التخفيف وحده، والعلم بالضعف متقدم، ونظيره قول القائل: اليوم أصير إلى فلان، وأعلم أنه لا ينصفني، فمصيره إليه حدث في اليوم وعلمه به متقدم كأنه قال: أصير إليه وأنا أعلم بأنه لا ينصفني [3].

((390))

* وفي قوله تعالى: (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة/ إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا إن الكافرين كانوا عدوا مبيناً. وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة..) 101، 4/102.

أجمع المفسرون على أن الخوف ليس شرطاً في قصر صلاة المسافر، وإنما اختلفوا في توجيه الشرط المذكور في الآية، فقيل: إن سبب النزول يبين أن الشرط مفصول عما قبله بالوقف على (من

---

[1] – منار الهدى /123.

[2] – راجع البحر المحيط لأبي حيان 343/5 ومشكل إعراب القرآن لمكي بن أبي طالب تحقيق ياسين السواس 438/1.

[3] – انظر ظاهرة الإعراب، د. ياقوت/ 196 نقلاً عن مصدره.

الصلاة) لئلا يوهم تداخل النظم أنه شرط في قصر الصلاة قبله؛ فقد أخرج ابن جرير من حديث علي ﷺ، قال: سأل قوم من بني النجار رسول الله ﷺ فقالوا: يا رسول الله إنّا نضرب في الأرض فكيف نصلي؟ فأنزل الله (وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقصروا من الصلاة). ثم انقطع الوحي، فلما كان بعد ذلك بعام غزا النبي ﷺ فصلة الظهر، فقال المشركون: لقد أمكنكم مُحَمَّد وأصحابه من ظهورهم، هلاّ شددتم عليهم، فقال قائل منهم: إن لهم صلاة أخرى مثلها في أثرها، فأنزل الله بين صلاة الظهر والعصر (إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا) إلى قوله تعالى: (عذابا مهينا) فنزلت صلاة الخوف. قال ابن جرير: هذا تأويل في الآية حسن؛ لو لم يكن في الآية (إذا).

قال ابن الفرس: ويصح مع (إذا) على جعل الواو زائدة فيكون –كما قال السيوطي – من اعتراض الشرط. وأحسن منه أن تجعل (إذا) زائدة بناء على قول من يجيز زيادتها [1].

((391))

وقال الأشموني: بل افتتح صلاة الخوف بقوله تعالى: (إن خفتم) على إضمار (الواو) أي – وإن خفتم – [2] كما أضمر في قوله تعالى: (وكأي من نبي قتل معه ربيون كثير) على قراءة من قرأ (قتل) مبنيًّا للمفعول بإسناد القتل للنبي فقط عملاً بما أشيع يوم أحد (ألا إن مُحَمَّداً قد قتل) فالقتل واقع على النبي فقط، كأنه قال: كم من نبي قتل/ معه ربيون كثير؛ بإضمار الواو، أي – ومعه ربيون كثير –كما تقول: جئت مع زيد، أي – ومعي زيد – [3].

وقيل في توجيه الشرط أيضاً: هو لبيان الواقع حيث كانت أسفارهم لا تخلو من خوف العدو لكثرة المشركين، وأيّد هذا القول بحديث (يعلي بن أمية) قال: قلت لعمر رضي الله: إن الله يقول (إن خفتم) وقد أمن الناس؟ فقال: عجبتُ مما عجبتَ منه فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك فقال: (صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلوا صدقته)[4]. وعلى هذا فلا بأس أن يقف على قوله: (الذين كفروا).

* وفي قوله تعالى: (وهو الله/ في السموات وفي الأرض يعلم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون) 6/3.

---

[1] – انظر الإتقان 253/1، 254، وقارن بالطبري 127/9.

[2] – راجع منار الهدى/65.

[3] – منار الهدى/ 55.

[4] – راجع صفوة التفاسير للصابوني 301/1.

ذهب بعض أهل التأويل إلى أن الوقف على (الله) لئلا يوهم تداخل النظم أن في السموات وفي الأرض ظرف لاسم الجلالة،

((392))

وإنما الظرف متعلق (بيعلم) أي يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض، والآية من المقدم والمؤخر نظير قوله تعالى: (الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا، قيماً) – أي أنزل على عبده الكتاب قيماً ولم يجعل له عوجاً. وهو مذهب ابن عباس رضي الله عنهما[1].

ثانيا: الوقف للفصل بين متباين المعاني:

* في قوله تعالى: (وقالوا اتخذ الله ولدا/ سبحانه بل له ما في السموات والأرض) 2/116. يفصل الوقف على (ولد) بين قول اليهود والنصارى: اتخذ الله ولداً، وبين قول الله: (سبحانه) تنزيهاً له عما نسبوه إليه.

* وفي قوله تعالى: (وقالت اليهود يد الله مغلولة، غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا/ بل يداه مبسوطتان) 5/64 بفصل الوقف على (بما قالوا) بين قول اليهود: يد الله مغلولة وبين رد الله عليهم (بل يداه مبسوطتان).

* وفي قوله تعالى: (قال الملأ من قوم فرعون إن هذا لساحر عليم. يريد أن يخرجكم من أرضكم/ فماذا تأمرون) 7/110 ذهب معظم أهل التأويل إلى الوقف على (أرضكم) فصلاً بين كلام الملأ، وكلام فرعون (فماذا تأمرون)؟ ويؤيده ما جاء من جوابهم له (قالوا أرجه وأخاه..).

((393))

* وفي قوله تعالى: (.. فلما أتوه موثقهم، قال/ الله على ما نقول وكيل) 12/66. ذهب كثير من المحققين إلى الوقف على (قال) فصلاً بين جملتين أولاهما: قال هو – أي يعقوب عليه السلام، وأخراهما: الله على ما نقول وكيل. جملة من مبتدأ وخبر في محل نصب مقول الله. ولما كان الواقف هنا فاصلاً بين القول والمقول وهو مما يكرهه القراء – رأي السجاوندي الأحسن في مثل هذا أن يفرق بينهما بقوة الصوت، إشارة إلى أن (الله) مبتدأ بعد القول، وليس فاعلاً [2].

---

[1] – انظر منار الهدى /79 وقارن بالبرهان 347/1.

[2] – انظر منار الهدى/122.

* وفي قوله تعالى: (ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر/ لسان الذي يلحدون من أهل التأويل إلى الوقف على (بشر) فصلاً بين قولين: أولهما قول قريش: إنما يعلمه بشر، وثانيها: (لسان الذي يلحدون ..) ردّ الله تعالى على قول قريش وهي كما قال الزمخشري: جملة مستأنفة لا محل لها.

وذهب بعض المعربين إلى أنها حال من فاعل يقولون أي يقولون ذلك والحالة هذه أي علمهم بأعجمية هذا البشر، وعربية هذا القرآن؛ كانت تمنعهم من تلك المقالة [1]، والأول أجود معنى وأداء.

* وفي قوله تعالى: (ووهبنا له إسحاق/ ويعقوب نافلة وكلاًّ جعلنا

((394))

صالحين) 21/72. يقف نافع على (إسحاق) أن (نافلة) – وهي الزيادة – يراد بها يعقوب خاصة فكأن إبراهيم سأل واحداً، فأعطي اثنين، وهذا مذهب ابن عباس وقتاده، وابن زيد، والفراء. وحسنه ابن الأنباري، ومال إليه الزمخشري فجعل النافلة ولد الولد؛ ويكون الكلام من عطف جملة على جملة.

وقد يصل الكلام من ذهب أن النافلة بمعنى العطية والمراد بها إسحاق ويعقوب، وهو مذهب مجاهد، وعطاء ويكون الكلام من عطف مفرد على مفرد [2].

* وفي قوله تعالى: (قد كانت تتلى عليكم فكنتم على أعقابكم تنكصون مستكبرين/ به سامراً تهجرون) 66، 23/67. اتفق أهل التأويل على أن الضمير في (به) إما راجع إلى البيت العتيق، وهو كناية عن غير مذكور لشهرة الأمر والمعنى، أو راجع إلى القرآن المدلول عليه بالآيات وإنما اختلفوا في تعلق الجار والمجرور؛ فذهب بعضهم إلى تعليقه بمستكبرين – والضمير للبيت – على معنى: أنكم تستكبرون وتفتخرون بالبيت الحرام لأمنكم فيه مع خوف سائر الناس في مواطنهم، وبهذا قال ابن عباس وغيره. وذهب آخرون إلى تعليقه بمستكبرين – والضمير للقرآن – على معنى: تحدث لكم تلاوته عليكم استكباراً؛ وبهذا قال الزجاج، والوقف على كلا التأويلين عند (تنكصون).

ورأى آخرون من أهل التأويل أن التعلق بمستكبرين فيه بُعدٌ

((395))

وإغراب، وأن تعلق الجار والمجرور بما بعده (سامراً تهجرون) فيه صرف للكلام إلى ما يصلح أيًّا كانت كناية الضمير، فإذا كان للبيت، كان المعنى: تسمرون بالبيت تلهون بالباطل، وتهجرون كتاب الله

---

[1] – انظر الكشاف 429/2، البحر المحيط لأبي حيان.

[2] – انظر زاد المسيرة 368/5، والكشاف 578/2، والإيضاح 776/2 ومنار الهدى /159.

ونبيه في وقت سمركم. وإذا كان الضمير للقرآن، كان المعنى: تسمرون بالقرآن – أي تتخذونه مادة سمركم – فتهجرونه – أي تصفونه بالهُجر من الكلام – أي الفاحش منه – فتقولون: إنه سحر، أو شعر، أو كهانة، إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة. ومال هذا التأويل القرطبي، وابن كثير والنسفي[1]. والوقف على هذا عند قوله (مستكبرين) ثم يبتدئ (به سامراً تهجرون) للفصل بين حالين مختلفين.

* في قوله تعالى: (.. لقد أضلني عن الذكر بعد إذ جاءني/ وكان الشيطان للإنسان خذولا) 25/29. ذهب أهل التأويل إلى الوقف على ــ جاءني) فصلاً بين كلام الظالم، وكلام الله (وكان الشيطان للإنسان خذولا) تعقيباً عليه.

وذكر الأشموني جواز اتصاله على أنه من كلام الظالم بدءاً من قوله (يا ليتني اتخذت) إلى قوله (خذولا). وحمل الكلام على التأويل الأول أولى لما فيه من إيلام التبكيت ولذع التوبيخ.

* وفي قوله تعالى : (قالت إن الملوك إ ذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلة/ وكذلك يفعلون) 27/34. ذهب الفراء والزجاج وتابعهما كثير من أهل التأويل إلى الوقف على (أذلة) فصلاً بين كلام

((396))

ملكة سبأ، وبين تعقيب الله تعالى بقوله: (وكذلك يفعلون) على ما قالت. وحكى الماوردي اتصال الكلام والوقف عند (يفعلون) وهو من تمام كلام بلقيس[2].

* وفي قوله تعالى: (فآمن له لوط/ وقال إني مهاجر إلى ربي) 29/26. أجمع أهل التأويل على الوقف على (لوط) فصلاً بين حكايتين أولاهما إ يمان لوط، وأخراهما هجرة إبراهيم عليه السلام في قوه: وقال أي إبراهيم إني مهاجر إلى رضى ربي، أو إلى حيث أمرني ربي.

وفي قوله تعالى: (قالوا يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا/ هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون) 36/52. ذهب جمهور المفسرين إلى الوقف على (مرقدنا) فصلاً بين كلامين أولهما الكفار عند بعثهم من قبورهم، وثانيهما رد الملائكة أو المؤمنين عليهم بأن (هذا ما وعد الرحمن) به من بعثكم بعد موتكم وصدق المرسلون في الإخبار به عن الله عز وجل.

---

[1] – راجع: زاد المسير 482/5، الإيضاح لابن الأنباري 79/2، مختصر ابن كثير 569/2.

[2] – انظر زاد المسير 169/6 والإيضاح 817/2 مع الهامش.

وما عداه – مما ذكره ابن الأنباري من جواز الوقف على (هذا) والابتداء (ما وعد الرحمن) على معنى: بعثكم وعد الرحمن – تكلف في التأويل لا يؤبه له[1].

* وفي قوله تعالى: (.. وإن تظاهرا عليه فإن الله هو مولاه/ وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير) 66/4 اختلف أهل

((397))

التأويل على الوقف في هذه الآية فذهب نافع إلى الوقف على (مولاه) يردان أن مولى النبي ﷺ هو الله تعالى فحسب كقوله: نعم المولى ونعم النصير، ثم يفصلان على استئناف معنى جديد هو أن جبريل ومن بعده مبتدأ خبره (ظهير).

ويذهب آخرون إلى الوقف على (صالح المؤمنين) عطفاً على لفظ الجلالة أي إن الله هو مولاه، وكذلك جبريل وصالح المؤمنين أولياؤه في العون والنصرة، والملائكة – على الاستئناف – ظهير له من بعد ذلك[2].

* وفي قوله تعالى: (أأنتم أشد خلقاً أم السماء/ بناها) 79/27 ذهب بعض أهل التأويل إلى الوقف على (السماء) فصلاً بين أمرين أولهما: سؤال المشركين – بقصد التوبيخ والتقريع – أخلقكم بعد الموت أشد عندكم، أم السماء في تقديركم؟ وهما في قدرة الله واحد. وثانيهما: تفسير أمر السماء (بناها رفع سمكها فسواها...) – أي رفعها عالية محكمة البناء مستوية الأرجاء[3].

ثالثا: الوقف وتكثير المعنى:

* في قوله تعالى: (ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون) 3/113.

((398))

يجوز في الآية الوقف عند (سواءً) فيكون المعنى: ليس المؤمنون من أهل الكتاب والفاسقون سواء، وهذان قد جرى ذكرهما قبلاً في قوله تعالى: (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون) 3/110. وما بعد سواء جملة مستأنفة (أمة قائمة) مبتدأ، والخبر من أهل الكتاب.

---

[1] – انظر مختصر ابن كثير 166/3، والإيضاح لابن الأنباري.

[2] – انظر زاد المسير 22/9، والإيضاح 965/2.

[3] – انظر زاد المسير 22/9، والإيضاح 695/2.

ويجوز أن ينتقل الوقف عند (يسجدون) فتكون أمة مرفوعة بليس، وسواء خبر؛ فيستجد معنى آخر هو: ليست تستوي من أهل الكتاب أمة مستقيمة على أمر الله وأخرى عاصية معتدية؛ وأضمر الأخرى لما دل عليها من من قوله تعالى: (ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون) [1] – 3/112.

* وفي قوله تعالى: (فاستجاب لهم ربهم أني لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض)3/195.

يجوز الوقف في الآية عند (بعض) على معنى: لا أضيع عمل بعضكم من بعض ذكوراً وإناثاً، نظير قوله تعالى: (والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض) 4/25 – أي بإيمان بعضكم من بعض.

أو على معنى: لا أضيع عمل عامل منكم ذكراً كان أو أنثى فبعضكم من بعض، أي الذكور من الإناث، والإناث من الذكور.

ويجوز أن ينتقل الوقف إلى (أنثى) ويبتدئ (بعضكم من

بعض)، فيضيف نقل الوقف معنى آخر للنص وهو: كلكم متساوون مجتمعون في عدل الله، آمنون من أن يحيف عليكم [2].

* وفي قوله تعالى: (قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا) 6/151.

يجوز الوقف عند (عليكم) وتتعلق بِحَرَّمَ وهو اختيار البصريين، أو تتعلق بأتل وهو اختيار الكوفيين، فهو من باب التنازع، والمعنى: أتل الذي حرمه ربكم عليكم، أو أتل عليكم الذي حرمه ربكم هو (ألا تشركوا به شيئا) بمعنى حرم أن تشركوا به شيئاً و (أن) ناصية، و (لا) زائدة.

ويجوز أن ينتقل الوقف عند (ربكم) والابتداء (عليكم ألا تشركوا ..) فيضيف معنى جديداً وهو: الزموا نفي الإشراك.. والأسلوب للإغراء[3].

* وفي قوله تعالى: (وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا...) 6/155.

يجوز أن يتصل الكلام بدون وقف، ومعناه: وهذا القرآن أنزلنا بهذا الوصف العظيم كراهة أن تقولوا يوم القيامة ما جاءنا من كتاب فنتبعه، فقد جاءكم ما يقطع عذركم.

---

[1] – راجع زاد المسير 441/1، الإيضاح 582/2، منار الهدى/52.

[2] – راجع الإيضاح 590/2.

[3] – راجع الإيضاح 590/2.

((400))

ويجوز الوقف على (فاتبعوه)، والابتداء (واتقوا) فينشئ الوقف معنى جديداً وهو: واتقوا – أي احذروا أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا[1].

* وفي قوله تعالى: (المص كتاب أنزل إليك فلا يكن صدرك حرج منه لتنذر به وذكرى للمؤمنين، اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم) 1-7/3.

يجوز أن يتصل الكلام بدون وقف، ومعناه: هذا كتاب أنزله الله إليك يا مُحَمَّد فلا يضيق صدرك من تبليغه خوفاً من تكذيب قومك؛ لتنذر به ولتذكر به المؤمنين وفي هذا المعنى يتعلق الإنذار بالإنزال.

ويجوز الوقف عند (إليك) على أن (كتاب) خبر لمبتدأ محذوف أي هو كتاب، و(أنزل إليك) جملة في محل صفة لكتاب، ثم يبتدئ (فلا يكن في صدرك حرج منه لتنذر به) فينشئ الوقف معنى جديداً بتعلق الإنذار بنفي الحرج – أي الشك – المنهي عنه في الآية؛ لأنه إذا لم يخفهم أنذرهم، وإذا أيقن أنه من عند الله شجعه اليقين على الإنذار؛ لأن صاحب اليقين جسور متوكل على ربه ، متكل على عصمته [2].

* وفي قوله تعالى: (وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون فريقاً هدى وفريقاً حق عليهم الضلالة) 29، 7/30.

يجوز الوقف عند (تعودون) على معنى: كما بدأكم من الأرض

((401))

تعودون إليها، أو كما قال الزمخشري: كما أنشأكم ابتداء بقدرته كذلك يعيدكم؛ ليجازيكم بأعمالكم فأخلصوا له العبادة.

ثم قال وأنتم فريقان: هدى فريقاً منكم، وأضل فريقاً وهو الفعال لما يريد.

ويجوز الوقف عند (الدين) وانتصاب كلمتي (فريقاً) حالين من الضمير في (تعودون) – أي تعودون فريقاً مهديًّا وفريقاً حاقًّا عليهم الضلالة؛ ويدل لهذا التفسير ما جاء في مصحف أبيّ: كما بدأكم تعودون فريقين فريقاً هدي وفريقاً حق عليهم الضلالة[3].

---

[1] – راجع زاد المسير 155/3، الإيضاح 647/2.

[2] – راجع الكشاف 66/2.

[3] – أنظر الكشاف 76/2، الإيضاح 654/2، المنار/89.

* وفي قوله تعالى: (وبينهما حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلاًّ بسيماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون) 7/46.

يجوز الوقف عند (سلام عليكم) ثم يبتدئ (لم يدخلوها وهم يطمعون) كأن سائلاً سأل عن حال أصحاب الأعراف فقيل: دخلوها وهم لا يطمعون في دخولها، على نقل النفي من الدخول إلى الطمع، كما تقول في الكلام: ما كلمت عبد الله وعنده أحد، فمعناه: كلمت عبد الله وليس عنده أحد.

ويجوز أن ينتقل الوقف عند (لم يدخلوها) فيحتمل النص معنى آخر وهو: لم يدخلوها لأنهم محبوسون، ثم يبتدئ (وهم يطمعون) في دخولها لم ييأسوا، وإلى هذا ذهب الزمخشري [1].

((402))

* وفي قوله تعالى: (وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون) 8/33.

جرى معظم أهل التأويل مع ما ذهب إليه الضحاك من أن الضمير في (ليعذبهم) للكفار، والضمير في (معذبهم) للمؤمنين، وعلى هذا المذهب يكون الوقف في الآية عند (وأنت فيهم) ومعناه: وما كان الله ليعذبهم – أي كفار مكة – وأنت بين أظهرهم إكراماً لك يا مُحَمَّد، وهذان أمان الكفار، ثم ابتدأ قوله (وما كان الله معذبهم) أي معذب المؤمنين (وهم يستغفرون) وهذا الاستغفار أمان المؤمنين وهو – على ما قال ابن عباس – باق فيهم إلى يوم القيامة.

وقد يتصل الكلام وينتقل الوقف إلى آخر الآية عند قوله (وهم يستغفرون) على أن الضميرين في الكلمتين للكفار فيستجد معنى آخر وهو أسنة الله قد جرت من قبل ألا يعذب أمة قط ونبيها فيها، وإن كانوا مستحقين للعذاب إكرماً لنبيها، وقد عامل أهل مكة بمقتضى هذه السنة، وما كان معذبهم أيضاً وهم يستغفرون وحمل الاستغفار على أنه استغفار من بقي من المسلمين ببين أظهرهم في مكة من المستضعفين، وهو أحد قولي الزمخشري في تف سير الآية. وأما قوله الثاني فقد نفى الاستغفار عن الكفار؛ على أن المعنى: لو كانوا ممن يمنون ويستغفرون لما عذبهم، ولكنهم لا يؤمنون ولا يستغفرون نظير قوله تعالى: (وما كان ربك ليهلك القرى بظلمٍ وأهلها مصلحون) [2].

((403))

* وفي قوله تعالى: (يأيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين) 8/64.

---

[1] – انظر الكشاف 81/2، الإيضاح 655/2.

[2] – راجع الكشاف 156/2، الإيضاح 684/2.

يجوز الوقف عند (حسبك الله) ونصب ما بعده بفعل مضمر كأنك قلت: يكفيك الله، ويكفي من اتبعك من المؤمنين، وقال السجستاني: الجملة محل رفع الاستئناف وتأويلها: ومن اتبعك من المؤمنين حسبهم الله.

ويجوز أن ينتقل الوقف إلى آخر الآية فيستجد معنى آخر وهو: كفاك الله، وكفاك أتباعك من المؤمنين وإليه ذهب مجاهد، والحسن البصري، واختاره السيوطي، وذكر الزمخشري القولين في كشافه([1]).

* وفي قوله تعالى: (الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها...) 13/2.

يجوز الوقف عند (السموات) ثم يبتدئ (بغير عمد ترونها) – أي ترون السماء بلا عمد قاله صالح عن ابن عباس وبه قال الحسن، وقتاده، والجمهور عليه، ومال إليه الطبري فقال (ترونها) تأكيد لنفي ذلك أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها؛ وهذا الأكمل في القدرة، ويبين هذا المعنى الوقف عند (عمد) ثم يستأنف ترونها كذلك.

ويجوز أن ينتقل الوقف (ترونها) فيستجد معنى آخر وهو: الله

الذي رفع السموات بعمد، لا ترون تلك العمد، ويكون معنى النفي قد انتقل من العمد إلى الرؤية وهذا مذهب عطاء والضحاك عن ابن عباس، ومجاهد وعكرمة، وهو أيضاً مذهب أبيّ فيما ذكره الزمخشري عن مصحفه: (بغير عمد ترونه)[2].

* وفي قوله تعالى: (قال أرأيت إ ذ أوينا إلى الصخرة فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره واتخذ سبيله في البحر عجباً) 18/63.

يجوز الوقف عند (عجباً) على أنه ثاني مفعولي اتخذ ومعناه: واتخذت الحوت سبيله في البحر يرى عجباً ويحدث عجباً.

ويجوز أن ينتقل الوقف عند (واتخذ سبيله في البحر) ثم يبتدئ (عجبا) فيستجد معنى آخر وهو: أن إخبار الله تعالى انقطع عند قوله: في البحر، فقال موسى عليه السلام (عجبا) – أي أعجب لسير

---

[1] – انظر الكشاف 167/2، الإيضاح 687/2، منار الهدى /100.

[2] – انظر الكشاف 349/2، زاد المسير 301/4.

الحوت في البحر، وعودة الحياة إليه لقد كان مشوباً مأكولاً بعضه، ويكون انتصاب (عجبا) على المصدرية [1].

* وفي قوله تعالى: (وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا)25/32.

يجوز الوقف عند (جملة واحدة) وهو نهاية كلام المشركين، ومضمونه: لم نزل عليه القرآن متفرقاً، ولم ينزل جملة واحدة. فقال

((405))

الله عز وجل ردًّا على اعتراضهم (كذلك) – أي أنزلناه كذلك متفرقاً لنثبت به فؤادك.

ويجوز أن ينتقل الوقف إلى (كذلك) على أنها من كلام المشركين؛ فيستجد معنى آخر وهو: قال المشركون هلا نزل عليه القرآن جملة واحدة كما أنزلت التوراة على موسى جملة واحدة، فيكون كغيره من الكتب السابقة، ثم يبدأ الرد عليهم (لنثبت به فؤادك) – أي خالفنا به ما سبق من الكتب؛ وأنزلناه عليك مفرقاً لنثبت به فؤادك ونقوي به قلبك[2].

* وفي قوله تعالى: (فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقاً علينا نصر المؤمنين) 30/47.

يجوز الوقف عند (أجرموا) ثم يبتدئ (وكان حقًّا علينا نصر المؤمنين) 30/47.

ويجوز أن ينتقل الوقف عند (وكان حقًّا) ثم يبتدئ (علينا نصر المؤمنين) فيستجد معنى آخر وهو: فانتقمنا من الذين أجرموا وكان انتقامنا منهم حقًّا، ثم يقول: إن علينا أن ننصر المؤمنين بالانتقام من أعدائهم وهم الذين أجرموا. واستحسن أبو حاتم الوجه الأول بسببين أحدهما: أنه لا يحتاج معه إلى تقدير اسم كان وهو انتقامنا، وثانيهما: من جهة المعنى وذلك أن الوقف على (حقًّا) يوجب الانتقام ويوجب نصر المؤمنين[3].

((406))

* وفي قوله تعالى: (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) 35/10.

يجوز الوقف عند قوله (الطيب) ثم يبتدئ (والعمل الصالح يرفعه) ومعناه: والعمل الصالح يرفعه الله تعالى أي يقبله وهو قول قتادة.

---

[1] – راجع زاد المسير 166/5، الإيضاح 759/2.

[2] – انظر الإيضاح 805/2، منار الهدى/147.

[3] – راجع الإيضاح 834/2، منار/192.

ويجوز أن ينتقل الوقف إلى (يرفعه) فيستنجد معنى آخر وهو أن العمل الصالح يرفع الكلم الطيب، وهو قول ابن عباس، والحسن، وابن جبير، ومجاهد، والضحاك، وكان الحسن يقول: يعرض القول على الفعل فإن وافق القول الفعل قبل وإن خالف ردّ. أو أن العمل الصالح يرفعه الكلم الطيب وهو عكس السابق، وبه قال أبو صالح وشهر بن حوشب[1].

* وفي قوله تعالى: (علمه شديد القوى ذو مرة فاستوى وهو بالأفق الأعلى..) 5، 6، 53/7.

يجوز الوقوف عند قوله (فاستوى) ثم يبتدئ (وهو بالأفق الأعلى) ومعناه: علمه القرآن ملك شديد قواه ذو حصافة في العقل، هو جبريل عليه السلام، وقد استوى – أي استقر على صورته الحقيقية وهو بأفق السماء وحيث تطلع الشمس جهة المشرق، وهو قول الزجاج وتابعه عليه كثير من أهل التأويل.

ويجوز أن ينتقل الوقف عند قوله (ذو مرة) ثم يبتدئ (فاستوى

[1] – انظر زاد المسير 478/9، الإيضاح 848/2.

((407))

وهو بالأفق الأعلى)) فيستجد معنى آخر وهو: فاستوى هذا الشديد القوي ذو المرة هو ومُحَمَّد بالأفق الأعلى أي استويا جميعاً بالأفق الأعلى وذلك ليلة الإسراء، قاله الفراء وتابعه ابن جرير وابن الأنباري، وأنكره ابن كثير[1].

الوقف وتوجيه القراءات:

ذهب الأجلاء من العلماء إلى أن اختلاف وجوه المعاني باختلاف القراءات ضرب من ضروب إعجاز القرآن الكريم؛ ذلك أن تنوع القراءات يقوم مقام تعدد الآيات، فدل بإيجاز ألفاظه، واتساع دلالاته على إعجاز بيانه، وإحكام نظمه، وافتنان تعبيره.

غير أن ما يقتضيه توجيه القراءات من وجوه المعاني قد لا يستقيم إلا بوصل الكلام أو قطعه في موضع معين؛ الأمر الذي يجعل من الوقف أعون وسيلة على بيان تلك المعاني. ولعل فيما نعرضه من نماذج القراءات ما يوضح مدى الارتباط بين الوقف وتوجيه المعنى.

* في قوله تعالى: (وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً، واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى..) .2/125

* قرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وعاصم، وحمزة، والكسائي (واتخذوا) بكسر الخاء على الأمر؛ وهذه القراءة تقتضي الوقف عند قوله (وأمناً) والابتداء بالأمر (واتخذوا).

* وقرأ نافع، وابن عامر (واتخذوا) بفتح الخاء على الخبر ووجهه أنه

((408))

معطوف على ما قبله كأنه قال: وإذ جعلنا وإذ اتخذوا، ويؤكد الفتح أن ما بعده إخبار وهو قوله (وعهدنا) وهذه تقتضي الوقف عند قوله (مصلى)، ولا يستقيم توجيه أي من القراءتين إلا مع وقفه[2].

* وفي قوله: (ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العقاب) .2/165

---

[1] – انظر زاد المسير 64/8، الإيضاح 910/2.

[2] – الإيضاح 532/1، زاد المسير 142/1.

* قرأ أبو عمرو، وابن كثير، وعاصم، وحمزة، والكسائي، (ولو يرى..) بالياء ومعناه: لو يرون عذاب الآخرة لعلموا أن القوة لله جميعاً وأن الله شديد العقاب، وهذا المعنى يقتضي الوقف على آخر الآية.

* وقرأ نافع، وابن عامر، ويعقوب (ولو ترى..) بالتاء وفتح (أنّ) فيهما، والخطاب للنبي ﷺ والمراد جميع الناس، وجواب (لو) محذوف تقديره لرأيتم فظيعاً، وحذفه أبلغ في التهويل لذهاب المتوعد إلى كل ضرب من الوعيد.

* وقرأ أبو جعفر يزيد بن القعقاع (ولو يرى) بالياء، وكسر (إنّ) فيهما على الاستئناف.

* وروى إسماعيل عن الحسن (ولو ترى) بالتاء، وكسر (إن) فيهما، على الاستئناف أيضاً، ويقتضي هؤلاء جميعاً عند (العذاب) لبيان المراد[1].

((409))

وفي قوله تعالى: (وأتموا الحج والعمرة لله، فإن أحصرتم فما استيسر من الهدي)2/196.

* قرأ جمهور القراء (والعمرة) بالنصب بإيقاع الفعل المتقدم عليها عطفاً على الحج، وتلك القراءة تدل على وجوبها، وهو مذهب علي، وابن عمر، وابن عباس، والحسن، وغيرهم، وهذا يقتضي الوقف على (لله) لتمام المعنى المراد.

* وقرأ الأصمعي عن نافع، والقزاز عن أبي عمرو، والكسائي عن أبي جعفر (والعمرةُ)، وتلك القراءة تدل على أن العمرة سنة وتطوع وهو مذهب ابن مسعود وبه أخذ أبو حنيفة ومالك؛ وتقتضي هذه القراءة الوقف على (الحج)؛ لأن ما بعده استئناف من مبتدأ وخبر[2].

* وفي قوله تعالى: (الحج أشهر معلومات فمن فرض فيهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) 2/197.

* قرأ شيبة، ونافع، وعاصم، والأعمش، وحمزة، والكسائي، وابن عامر (فلا رفث ولا فسوق ولا جدال في الحج) بنصب الثلاثة بلا تنوين، وقراءة هؤلاء بالفتح أشد مطابقة للمعنى المقصود؛ وهو نفي جميع الرفث والفسوق والجدال. والوقف على (الحج) لتمام الكلام.

* وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو (فلا رفثٌ ولا فسوقٌ) بالرفع والتنوين،

---

[1] - زاد المسير 170/1، الإيضاح 540/1.

[2] - زاد المسير 204/1، الإيضاح 545/1.

((410))

على النفي لواحد لفظاً، والمراد بالمعنى الجميع. (ولا جدال في الحج) بالنصب على معنى: ولا شك في الحج أنه واجب في ذي الحجة فقد استقام أمره وعرف وقته وزال النسيء عنه، وإلى هذا المعنى ذهب السدي عن أشياخه، والقاسم بن مُحَمَّد، وهذه القراءة تقتضي أن يكون الوقف عند (ولا فسوقٌ) ليستقيم المعنى مع هذا التوجيه [1].

* وفي قوله تعالى: (فلما وضعتا قالت رب إني وضعتها أنثى والله أعلم بما وضعت وليس الذكر كالأنثى) 3/36.

* قرأ الأسود، ويحي بن وثاب، وأبو جعفر، وشيبة، ونافع وأبو عمرو، وحمزة، والكسائي (بما وضعت) بسكون التاء قال ابن قتيبة: وفي الكلام تقديم وتأخير، تقديره: إني وضعتها أنثى، وليس الذكر كالأنثى – وهذا من كلام أم مريم – (والله أعلم بما وضعتْ) من كلام الله تعالى إخباراً. ويقتضي هذا التوجيه أن يكون الوقف عند (إني وضعتها أنثى) للفصل بين حكايتين.

* وقرأ ابن عامر وعاصم – إلا حفصًا، ويعقوب (والله أعلم بما وضعت) بضم التاء للمتكلم، ويقتضي هذا أن يكون الوقف عند (وضعتُ) لأن الكلام قبله متصل كله، وهو من حكاية أم مريم.

وقال أهل التأويل (وليس الذكر كالأنثى) صالح لأن يكون من كلام الله تعالى، أو من حكاية أم مريم [2].

((411))

* وفي قوله تعالى: (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين) 3/146.

* قرأ أبو جعفر، وشيبة، وعاصم، والأعمش، وحمزة والكسائي (وكأين من نبي قاتل معه ربيون كثير فما وهنوا..) على معنى: كم من نبي قاتل، وقاتل معه ربيون كثير – أي جموع كثيرة – فقتل منهم من قتل فما جبنوا ولا خارت عزائمهم، ولا ذلوا لعدوهم بما أصاب منهم. ويقتضي هذا وصل الكلام، ولا وقف إلا عند قوله تعالى: (وما استكانوا).

* وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وأبان، والمفضل (وكأين من نبي قتل معه ربيون كثير...) وهذه القراءة على معنيين، أحدهما أن يكون القتل للنبي وحده، فما وهن الربيون بعد قتله، والأبين لهذا المعنى

---

[1] – انظر زاد المسير 210/1، 211، 212، والإيضاح 545/1.

[2] – انظر زاد المسير 377/1، الإيضاح 575/2، منار الهدى /46.

أن يكون الوقف عند (وكأين من نبي قتل) ثم يبتدئ (معه ربيون كثير فما وهنوا). والمعنى الثاني: أن يكون القتل للربيين.

* والمراد بعضهم – فما وهن الباقون لمن قتل منهم، والكلام متصل، والوقف عند (وما استكانوا) على نحو ما تقدم في القراءة المشهورة [1].

* وفي قوله تعالى: (وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة) 6/74.

((412))

* قرأ الجمهور (آزر) بالفتح مجروراً على البدل من أبيه، غير مصروف، وتقتضي هذه القراءة منع الوقف على (لأبيه) لما يترتب عليه من قطع البدل عن المبدل منه.

* وقرأ الحسن، ويعقوب (آزر) بالرفع، على وجهين: إما على البدل من أبيه أيضاً، كقولك: مررت بزيد أخوك، قال ابن الأنباري عن أبي العباس هو جائز على معنى هو أخوك، ولا يصلح الوقف على أبيه لما سبق. والوجه الثاني الرفع على النداء: وإذ قال إبراهيم لأبيه، يا آزرُ، ويقتضي هذا أن يكون الوقف على (لأبيه) حسناً ثم يبتدئ يا آزر، وهي في مصحف أبيّ: يا آزر اتخذت آلهة[2].

* وفي قوله تعالى: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إ ذا جاءت لا يؤمنون) 6/109.

* قرأ أبو جعفر، وشيبة، ونافع، وحفص عن عاصم، والأعمش، وحمزة، والكسائي (وما يشعركم أنها إذا جاءت) بفتح همزة (أنها)، ومضمون الآية أن الكفار أقسموا لئن جاءهم ما اقترحوه من الآيات ليؤمنن، وطمع المؤمنون في إيمانهم، فتمنوا مجيء تلك الآية لهم، فقال عز وجل مخاطباً المؤمنين: وما يشعركم أي وما يدريكم أنها إذا جاءت لا يؤمنون. وكان مقتضى الإنكار على المؤمنين الذين أحسنوا الظن بالمعاندين، فاعتقدوا أنهم يؤمنون عند نزول الآية، أن يقال لهم: وما يدريكم أنها إذا جاءت يؤمنون،

((413))

---

[1] – انظر زاد المسير 471/1، الإيضاح 585/2.

[2] – انظر زاد المسير 71/3، الإيضاح 637/2.

بإسقاط (لا)، ولكي يستقيم الرد مع مضمون الآية حمل أهل التأويل (لا) على أنها زائدة، كقوله تعالى: (وما منعك أن لا تسجد إذْ أمرتك) ذكره الفراء. ورده الزجاج واختار تأويل (أنّ) بمعنى لعل، والمعنى: وما يدريكم لعلها إذا جاءت لا يؤمنون، ويؤيده ما جاء في مصحف أبيّ: (لعلها إذا جاءت لا يؤمنون). وفي كلام العرب: ما أدري أنك صاحبها، – أي ما أدري لعلك صاحبها.

وأما الزمخشري ففهم للآية مضموناً آخر لا يقتضي حذف (لا) ولا تأويل (أنها) بلعلّها؛ وهو أن الآية وردت عذراً للمؤمنين في عدم علمهم بالمغيب في علم الله تعالى من عدم إيمان هؤلاء، فقال للمؤمنين: وما يدريكم ما علمته أنا من أنهم لا يؤمنون إذا جاءتهم؛ وبهذا يستقيم دخول (لا). ويقتضي هذا التأويل عدم الوقف على (يشعركم) في قراءة من فتح (أنها).

* وقرأ ابن كثير، وأبو عمرو، وأبو بكر عن عاصم، وخلف في اختياره (وما يشعركم إنها إذا جاءت لا يؤمنون) بكسر همزة (إنها) على معنى: وما يدريكم ما يكون منهم. وهذا تمام الكلام، ثم ابتدأ الله الإخبار عن حالهم فقال: إنها إذا جاءت لا يؤمنون ألبته. وهذه القراءة تقتضي الوقف عند (وما يشعركم) ليستقيم المعنى مع هذا التوجيه[1].

* وفي قوله تعالى: (قال يا نوح إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح) 11/46.

((414))

* قرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وحمزة (إنه عملٌ غير صالح) برفع وتنوين (عملٌ) ورفع (غيرُ) ومعناه على قولين:

أحدهما: أن يرجع الضمير إلى سؤال نوح فيكون المعنى: إن سؤالك إياي ما ليس لك به علم عمل غير صالح، والوقف في هذه القراءة عند (أهلك) لتمام الكلام، وانقطاعه عما بعده لاختلاف الضميرين في الآية على هذا التأويل.

وثانيهما: أن يرجع الضمير إلى (الابن) ومعناه على تقدير مضاف – أي ذو عمل غير صالح، كما تقول العرب: عبد الله إقبال وإدبار – أي صاحب إقبال وإدبار. ويقتضي هذا التأويل الكلام دون وقف على (أهلك) لكون (إنه عمل غير صالح) تعليلاً لانتفاء أنه من أهله.

---

[1] – انظر الكشاف 44/2 مع الهامش، زاد المسير 104/3، الإيضاح 642/2.

* وقرأ ابن عباس، وغيره، وعكرمة، والكسائي (إنه عمل غير صالح) أي (عمل) عملاً (غير صالح)، يشيرون إلى إشراكه بالله. وهذه القراءة تلتقي في المعنى مع الوجه الثاني من القراءة الأولى، وهما سواء في عدم الوقف على (أهلك) للعلة السابقة[1].

* وفي قوله تعالى: (وامرأته قائمة فضحكت، فبشرناها بإسحق ومن وراء إسحق يعقوب)11/71.

* قرأ ابن عامر، وحمزة، وحفص عن عاصم (يعقوب) بالنصب حملاً على المعنى: أي وهبنا لها إسحق، ووهبنا لها يعقوب، واختيار الوقف في هذه القراءة على (يعقوب).

((415))

* وقرأ ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، والكسائي، وأبو بكر عن عاصم (يعقوب) بالرفع مبتدأ وشبه الجملة قبله خبر، وهذه القراءة تقتضي أن يكون الوقف عند (إسحق) ثم يبتدئ (ومن وراء إسحق يعقوب)[2].

* وفي قوله تعالى: (وآتاكم من كل ما سألتموه، وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) 14/34.

* قرأ الجمهور (وآتاكم من كل ما سألتموه) بالإضافة والمعنى –كما قال الزمخشري – وآتاكم بعض جميع ما سألتموه نظراً في مصالحكم، وتمام الوقف على هذه القراءة عند (سألتموه).

* وقرأ ابن مسعود، وأبو رزين، والحسن، وعكرمة، وقتادة، وأبان عن عاصم، وأبو حاتم عن يعقوب (من كل ما سألتموه) بتنوين (كلٍ) من غير إضافة قال قتادة والضحاك: ومعناه: وآتاكم من كلٍ ما لم تسألوه. وقريب منه تأويل الزمخشري: أي وآتاكم من جميع ذلك غير؛ بإعراب الجملة المنفية على الحال.

وحكى ابن الأنباري عن أبي العباس معناه: وآتاكم من كلٍ لم تسألوه، وذلك أننا لم نسأل شمساً ولا قمراً ولا كثيراً من نعمه.

والوقف في هذه القراءة عند (كل) حسن، ثم يبتدئ (ما سألتموه) – أي لم تسألوه[3].

---

[1] – راجع الكشاف 273/2، زاد المسير 114/4، الإيضاح 713/2.

[2] – زاد المسير 132/4، الإيضاح 715/2.

[3] – الكشاف 379/2، زاد المسير 365/4، الإيضاح 742/2.

((416))

* وفي قوله تعالى: (ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون)19/34.

* قرأ عاصم، وابن عامر، ويعقوب (قولَ الحق) بنصب اللام، قال الزجاج ومعناه: أقول قول الحق، وقال الزمخشري: النصب على المدح إن فسر بكلمة الله، والوقف في هذه القراءة عند (ابن مريم).

* وقرأ باقي السبعة (قولُ الحق) بالرفع. قال الزمخشري: على أنه خبر بعد خبر، أو بدل، وقال غيره: نعت لعيسى، ويقتضي هذا التأويل امتناع الوقف عند (ابن مريم) لصلة ما بعده به على الخبرية أو البداية، أو الوصفية، ويجوز من وجوه الرفع أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف، تقديره: ذلك قولُ الحق، أو ذلك الكلام قول الحق، وهو قول الحق، وهذا التأويل يقتضي أن يكون الوقف عند (ابن مريم) لانقطاعه عما بعده[1].

* وفي قوله تعالى: (إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم) 47/25.

* قرأ السبعة – إلا أبا عمرو (وأمْلَى لهم) بفتح الهمزة واللام عطفاً على ما قبله على معنى: أن الشيطان زين لهم ذلك الأمر وغرهم وخدعهم بالأمل وطول الأجل. والوقف لتمام المعنى على آخر الآية.

* وقرأ أبو عمرو، وشيبة (وأُمْليَ لهم) بضم الهمزة وفتح الياء ماض لم يسم فاعله.

((417))

* وروي عن مجاهد (وأملي لهم) بضم الهمزة وسكون الياء مضارع مبني للفاعل، والإملاء في كلتا القراءتين مسند إلى الله تعالى لقوله: (فأمليت للكافرين) وتقتضي هذه القراءة الوقف على (سول لهم) والابتداء (وأُمْلى لهم) ليفصل بين التسويل وهو الشيطان، ويبين الإملاء وهو من الله؛ ليستقيم المعنى على هذا التوجيه[2].

* وفي قوله تعالى: (يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب وأباريق وكأس من معين، لا يصدعون عنها ولا ينزفون، وفاكهة مما يتخيرون، ولحم طير مما يشتهون، وحور عين كأمثال اللؤلؤ المكنون)17-56/23.

---

[1] – انظر الكشاف 509/2، زاد المسير 231/5، الإيضاح 763/2.

[2] – البرهان للزركشي 348/1، الإيضاح 898/2، منار الهدى/230.

* قرأ ابن كثير، وعاصم، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر (وحورٌ عينٌ) بالرفع فيهما، ويقف هؤلاء على (يشتهون) ثم يبتدئون (وحور عين) أي وعندهم حور عين، وكأنهم كرهوا الخفض لأنه معطوف على قوله (يطوف عليهم) والحور ليس مما يطاف به.

* وقرأ أبو جعفر، وحمزة، والكسائي، والمفضل عن عاصم (وحورٍ عين) بالخفض فيهما، قال الزجاج: وليس خفضهما على ما في معنى (يطوف) وإنما على معنى ينعمون أي يطوف عليهم ولدان مخلدون بأكواب ينعمون بها، وكذلك ينعمون بلحم طير، وكذلك ينعمون بلحم طير، وكذلك ينعمون بحور عين. ومن هذا الوجه لا يحسن الوقف على (يشتهون) لاتصال الكلام بعضه ببعض[1].

[1] – انظر زاد المسير 137/8، الإيضاح 921/2.

المراجع الأساسية

مرتبة حسب ورودها في البحث

1- النشر في القراءات العشر : لابن الجرزي

2- منار الهدى في الوقف والابتداء : للأشموني

3- الإتقان في علوم القرآن : للسيوطي

4- إيضاح الوقف والابتداء : لأبي بكر بن الأنباري

تحقيق د. محي الدين رمضان

5- ظاهرة الإعراب في القرآن : للدكتور أحمد ياقوت

6- تفسير الكشاف : للزمخشري

7- البرهان في علوم القرآن : للزركشي

8- تفسير زاد المسير : لابن الجوزي

9- مختصر ابن كثير : لابن كثير – (الصابوني)

10- مختصر البحر المحيط : لأبي حيان

11- صفوة التفاسير : للصابوني